
حتى وصلوا إلى بغداد
صوت الناس







وَصَلوا إلى بَغدادْ





أغاثا كريستي
وصلوا إلى بغداد
مس ماربل
السلسلة البوليسية

THEY CAME TO BAGHDAD

by

AGATHA CHRISTIE

ترجمة

شارل شهوان

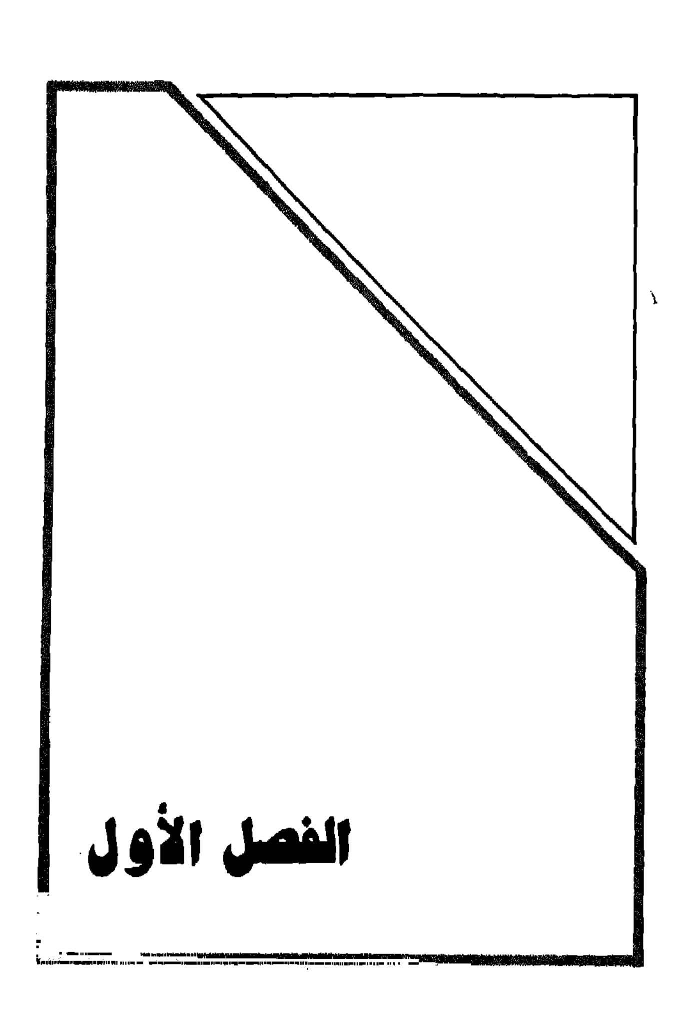
ARABIC EDITION 1993

P.O.Box:7038 - Limassol
CYPRUS
P.O.Box:113/5796 -Beirut
LEBANON

ISBN 1-85513-154-4



الطبعة الأولى، تموز/يوليو ١٩٩٣
الغلاف، تصميم رملة شماعة
رسوم شيفورن كوريقان



الفصل الأول



- ١ -

خرج الكابتن كروسبي من البنك، منفرج الأسارير كواحد قبض شيكاً واكتشف أن في حسابه أكثر بقليل مما كان يظن.

وكان الكابتن كروسبي، رجلاً قصيراً ممتلىء الجسم ذا وجه أقرب الى الاحمرار وشاربين عسكريين غليظين وكان يبدو بطبعه، راضياً بحاله، يتمشى بخيلاء مرتدياً ثياباً فضفاضة.

كان محبوباً بين أقرانه من الرجال، لطيف المعشر وغير متزوج، وما عدا ذلك فقد كان رجلاً عادياً، مثل الكثيرين من أمثاله في شرق البلاد.

ويسمى الشارع الذي انطلق منه الكابتن كروسبي بشارع البنوك وذلك لأن معظم بنوك المدينة تقع فيه.

وكان الجو داخل البنك قاتماً وبارداً ورطباً، يسيطر على أجوائه ضجيج الآلات الكاتبة، الذي ينبعث من كواليسه. أما خارج شارع البنوك، فقد كان الطقس مشمساً، مفعماً بالغبار وصاخباً بأنواع مريعة من الضجيج حيث تختلط أصوات زمامير السيارات

المتـواصلة، بصراخ البـاعـة من مختلف الأصناف. كانت هناك مشـاجرات ساخنة بين مجموعات صغيرة من الناس تبدو وكأنـها مستعدة لقتل بعضها بعضاً، غير أنها في الواقع خليط من أصدقاء أوفيـاء. كانـوا رجـالاً، وصبيـة وأولاداً يبيعون من كل أصناف الأشجـار والمـربى، البـرتقال والموز. مناشف الحمام، الأمشاط، شفـرات الحـلاقة، وبضائع أخرى متنوّعة يحملونها على صوان ويتنقلون بها عبر الشوارع بسرعة.

كان هناك أيضاً صخب متواصل ومتجدد من السعال والبصاق، وفـوق كل هذا النحيب الهـزيـل والحزين لرجال يقودون الحمير والأحصنة بين سيل السيارات والمشاة زاعقين: «بالك.. بالك!».

كانت الساعة الحادية عشرة صباحاً في مدينة بغداد.

استوقف الكابتن كروسبي صبياً يهرول بكدسة جرائد وابتاع واحـدة، ثم انعطف إلى شارع البنوك ودخل شارع الرشيد، وهو الشـارع الرئيسي في بغـداد، الممتـد عبرها حوالي الأربعة أميال بموازاة نهر دجلة.

رمق الكـابتن كروسبي العناوين الرئيسة في الصحيفة ودسها تحت ذراعه، مشى حوالى المئتي ياردة ثم انعطف الى زقاق صغير منحدر، ودخل خاناً واسعاً وعند الجهة الأبعد فيه دفع باباً مصفحاً بالنحاس فوجد نفسه داخل مكتب.

ترك موظف عراقي شاب أنيق آلته الكاتبة واقترب مرحباً بابتسامة:

ـ «صباح الخير كابتن كروسبي. ماذا يمكن ان افعل من اجلك؟».

ـ «السيد داكين في غرفته؟ عظيم، سأدخل».

اجتاز باباً ونزل بضع درجات حادة ليقطع ممراً قذراً نوعاً ما ثم قرع باباً عند آخر الممر، فقيل له: «ادخل».

كانت غرفة مرتفعة وخالية الى حد ما. كان هناك مدفأة مازوت وضع عليها إناء ماء وكنبة واطئة وطويلة، عليها مساند، مع طاولة صغيرة امامها مكتب ضخم وبالٍ الى حد ما. جلس وراءه رجل بثياب بالية ايضاً، ذو وجه متعب، وغير معبّر، يبدو عليه انه شخص لم ينجح في هذا العالم ويعرف ذلك ولم يعد يكترث.

نظر كروسبي المرح الواثق من نفسه، وداكين الحزين المتعب الى بعضهما.

بادر داكين: «مرحباً يا كروسبي. هل عدت تواً من كركوك؟».

اومأ كروسبي بالإيجاب. ثم اقفل الباب وراءه بعناية. كان باباً رديء المظهر ومدهوناً بطريقة بشعة، إلا انه كان يمتلك ميزة غير متوقعة، فقد كان يقفل بإحكام من غير شقوق او فراغ في الأسفل.

كان في الحقيقة عازلاً للصوت.

مع اقفال الباب تغيّرت شخصيتا الرجلين بعض الشيء. فقد اصبح الكابتن كروسبي اقل عدائية وثقة بالنفس، وتضاءل هبوط كتفي السيد داكين، واضحى سلوكه اقل تردداً. ولو قدر لأحد ان يسمعهما في الغرفة لكان فوجيء مكتشفاً ان داكين كان صاحب القرار.

سأل كروسبي: «هل من أنباء يا سيدي؟؟».

«أجل»، أجاب داكين متنهداً. وكان قد وضع أمامه ورقة يعمل لتوّه على فك رموزها. ثم كتب كلمتين أخريين وقال:

- «ستعقد في بغداد».

ثم أشعل ثقاباً، وأضرم النار في الورقة وهو يراقب احتراقها. حين استحالت رماداً نفخ برفق، فتطاير الرماد وتناثر.

«نعم» قال «لقد صمموا على اعتماد بغداد. في العشرين من الشهر القادم. علينا «المحافظة على السريّة التامة»».

«رواد السوق يعلمون بذلك منذ ثلاثة أيام» أردف كروسبي بجفاف.

أفلت الرجل الطويل العنان لابتسامته المريبة.

- «سريّة تامة! لا وجود لما يسمى بأسرار تامة في الشرق، أليس كذلك يا كروسبي؟».

- «لا سيدي. إن كنت تسألني، في الواقع ليست هناك سّرية تامة في أي مكان. خلال الحرب غالباً ما لاحظت أن أي حلّاق لندني كان يعرف أكثر من القيادة العليا».

- «لا اشكال في ذلك، فإذا تقرر عقد الاجتماع في بغداد فلا بد أن يعلن عنه وعندئذٍ سيبدأ العمل الممتع، عملنا نحن على الأخص؟».

سأل كروسبي مشككاً: «هل تعتقد يا سيدي أن هذا الاجتماع سيتم؟ وهل ينوي «العم جوس» فعلاً أن يأتي هذه المرة؟».

وكان كروسبي يقصد، مزدرياً كعادته، زعيم القوى الأوروبية العظمى.

«أظن يا كروسبي انـه سيـأتي هذه المـرة»، ردد داكـين وهو مستغرق في التفكير. «نعم أظن هذا. وإذا انعقد الاجتماع ـ انعقد من غير عقبات ـ حسناً قد يكون المنقذ لكل شيء. إن تمّ الوصول الى تفاهم ما...» ثم توقف فجأةً.

كان كروسبي لا يزال يساوره بعض الشك: «عذراً، هل ان اتفاقاً من أي نوع يبدو ممكناً؟».

ـ «لا أعتقد يا كروسبي ان الأمر ممكن في المعنى الذي تقصده. على الأرجـح لا! إن كان الأمـر يتعلق فقـط بجمع رجلين يمثلان أيديولوجيتين مختلفتين تماماً لربما انتهى الأمر برمته، كالعادة، بشكـوك متزايدة وسوء فهم. لكن هنالك العامل الثالث. إن كانت رواية كار مايكل الغريبة صحيحة».

توقف بغتة عن الكلام.

ـ «ولكن بالتأكيد يا سيدي لا يمكن أن تكون صحيحة. انها غريبة الى أقصى الحدود».

بقي الرجـل الآخـر صامتـاً بضع دقائق. كان يرى بوضوح شديد، وجهاً مضطرباً جدّي الملامح، ويسمع صوتاً هادئاً غير قابل للوصف يقول أشياء غريبة غير قابلة للتصديق. كان يحدث نفسه قائـلاً كما انبرى يقول بعدها: «واحدة من اثنتين إما أن أفضل رجالي وأكثرهم جدارة قد فقد عقله، وإما أن هذا الأمر حقيقي...».

وتـابع بصوته الناعم الكئيب: «كار مايكل يعتقد بذلك. كل ما

استطاع العثور عليه أكّد له هذه الفرضية. لقد أراد التوجه الى هناك للحصول على مزيد من الاثباتات. ولا أدري، إذا كنت قد تصرفت بحكمة عندما سمحت له بالذهاب. إذا لم يرجع فلن يكون لدي سوى روايتي كما أخبرني إياها كار مايكل، وهي أيضاً رواية سمعها من شخص آخر. هل هذا يكفي؟ لا أظن ذلك. إنها كما تقول رواية عجيبة.. لكن ماذا لو كان الرجل بنفسه هنا، في بغداد في العشرين من الشهر ليخبر قصته بنفسه، فتكون رواية شاهد عيان مدعمة بالاثباتات!».

«إثباتات؟» قال كروسبي بحدة.

أومأ الآخر إيجاباً.

ـ «نعم لديه اثباتات».

ـ «كيف عرفت؟».

ـ «الصيغة المتفق عليها. وصلت الرسالة عبر صلاح حسن. أورد بدقة المعلومات التالية: «**جمل ابيض محمل شوفاناً قادم عبر الممر**»».

توقف ثم تابع:

«إذن استطاع كار مايكل الحصول على المعلومات التي ذهب من أجلها. ولكنه لم يستطع أن ينجو من الشبهات انهم يلاحقونه، ويراقبون أي طريق سيسلكها. ولكن الأمر الأشد خطورة هو أنهم سيكونون في انتظاره هنا. أولاً عند الحدود. وإن نجح في عبور الحدود فإنهم سوف يضربون طوقاً حول السفارات والقنصليات. انظر الى هذا».

وانبرى ينبش الأوراق المكدسة على مكتبه، فقرأ:

«قتل بالرصاص رجل انكليزي مسافر في سيارته من إيران الى العراق. من المرجح على يد لصوص. وقع تاجر كردي مسافر عبر التلال في مكمن وقتل. قتلت الشرطة كردياً آخر يشتبه بأنه مهرب سجائر. عثر على طريق رواندوز على جثة رجل تبين فيما بعد أنه سائق شاحنة أرمني».

«والفت انتباهك الى أن لديهم بصورة تقريبية مواصفات كار مايكل نفسها. إنهم لا يجازفون البتة. لقد خرجوا للنيل منه. وفي اللحظة التي يدخل فيها العراق سيزداد الخطر وقد يكون الأمر بواسطة بستانيّ في السفارة، او خادم في القنصلية، أو موظف رسمي في المطار، في الجمارك، في محطات الخطوط الحديدية... كل الفنادق مراقبة... طوق، مشدود بإحكام».

رفع كروسبي حاجبيه.

ـ «هل تظن يا سيدي انهم منتشرون الى هذا الحد؟».

ـ «ليس لدي أدنى شك في الموضوع. حتى ان هناك تسّرباً في صفوفنا. وهذا هو الأشد سوءاً من أي شيء. كيف بوسعي أن اتأكد من ان الاجراءات التي نعتمدها لإرجاع كار مايكل سليماً الى بغداد لم تصل إلى الطرف الآخر؟ كما تعلم إنه أحد قوانين اللعبة الاكثر بدائية، ان ترشو احداً ما في المعسكر الآخر».

ـ «هل تشتبه بأحد؟».

هز داكين راسه نافياً.

زفر كروسبي تنهيدة ثم قال:

ـ «في غضون ذلك نحن نتابع».

ـ «أجـل».

ـ «ماذا في شأن كروفتون لي؟».

ـ «لقد وافق على الحضور الى بغداد».

أجـاب كروسبي: «الجميع آتٍ الى بغداد. حتى العم جو وفقاً لكـلامك يا سيدي. لكن ان حصل للرئيس أي مكروه ـ بينما هو هنا ـ فسينطلق البالون منذراً بالثأر».

«ليس من المفتـرض أن يحـدث أي شيء»، رد داكـين، «هذه وظيفتنا، أن نعمل على منع ذلك».

حين غادر كروسبي جلس داكين منحنياً على مكتبه. متمتماً:

ـ «لقد حضروا الى بغداد...».

على الورقـة النشّـافة رسم دائرة وكتب تحتها بغداد. ثم نقّط حولها. رسم جَمَلاً، طيّارة، سفينة بخارية، وقطار صغير نفّاث. كلها تميل الى الإلتقاء حول الدائرة. ثم عند زاوية الورقة رسم نسيج عنكبـوت. في وسـط نسيج العنكبوت كتب اسماً: آنا شيل. تحت الاسم وضع علامة استفهام كبيرة. ثم تناول قبعته وغادر المكتب. بينما كان يقطع ماشياً شارع الرشيد، سمع رجلاً يسأل رجلاً آخر: «من هو ذلك الرجل؟».

ـ «آه، هذا داكين. انه يعمل في احدى شركات النفط. رجل طيب ولكنه لا ينسجم أبداً مع أحد. لا مبالٍ للغاية، يقال إنه يتعاطى الخمرة. لن يحقق شيئاً. ينبغي أن تكون نشيطاً لتفلح في هذا الجزء من العالم».

- ٢ -

- «آنسة شيل هل احضرت التقارير الخاصة بأملاك كروغنهورف؟».

- «أجل سيد مورغانتال».

دفعت الآنسة شيل الهادئة والقديرة الأوراق أمام مستخدمها وراح يقرؤها مهمهماً:

- «انه مرضٍ على ما أظن».

- «مرضٍ بدون شك يا سيد مورغانتال».

- «هل شوارتز هنا؟».

- «انه ينتظر في المكتب الخارجي».

- «فليدخل فوراً».

ضغطت الآنسة شيل على أحد الأجراس الكهربائية الستة.

- «هل أنت بحاجة إليّ يا سيد مورغانتال؟».

- «لا. لا أظن ذلك يا آنسة شيل».

وهكذا انسحبت آنا شيل من الغرفة في سكون. لقد كان شعرها أشقر بلاتينياً؛ ولكنها لم تكن بالشقراء الفاتنة.

كان شعرها مرفوعاً عن جبهتها الى الخلف بتسريحة انيقة ملفوفة عند العنق. عيناها الزرقاوان الشاحبتان والذكيتان تنظران الى العالم من خلف نظّارتين سميكتين. كانت ملامح وجهها ناعمة وصغيرة، ولكنها غير معبّرة. وقد استطاعت ان تشق طريقها في الحياة معتمدة على كفاءتها وليس على مفاتنها. وكانت تستطيع أن

تحفظ أي شيء مهما يكن معقداً، وتذكر أسماء التواريخ والأوقات من غير أن تستعين بمفكرتها. وكان بوسعها تنظيم مجموعة موظفين في مكتب ضخم بدقة توازي حركة آلة مزيتة بشكل خارق. كانت هي الحذر بعينه، وتملك طاقة لا تفتر رغم انضباطها وانتظامها.

كان أوتو مورغانتال رئيس شركات: «مورغانتال»، «براون وشيبرك»، «المصرفيون العالميون» مدركاً جيداً أنه مدين لآنا شيل بما لا يمكن أن يعوّضه أي مال. كان يثق فيها كلياً وكانت بذاكرتها، وخبرتها، واحكامها، وحدّة ذكائها الهادئة أكبر من أن تقدر بثمن. وكان يدفع لها أجراً كبيراً، وهو على استعداد لزيادته لو طلبت اليه ذلك.

لم تكن تعرف فقط تفاصيل أعماله، إنما أيضاً تفاصيل حياته الشخصية. حين استشارها بشأن قضية زوجته الثانية، نصحته بالطلاق واقترحت بدقة مبلغ النفقة. لم تُظهر نحوه عطفاً أو فضولاً. فهي لم تكن ـ إذا جاز التعبير ـ من ذاك الصنف من النساء. وهو لم يخطر في باله أبداً انها تمتلك أية مشاعر، ولم يحدث له أن تساءل عن الأفكار التي كان يمكن أن تراودها. كان يمكن أن يفاجأ فعلاً لو قيل له انها تراودها أية أفكار أخرى بعيدة عن الأفكار المتعلقة بشركتي «مورغانتال» و «براون شيبرك» ناهيك بمشاكل أوتو مورغانتال الشخصية. ولذلك كانت دهشته فائقة وهو يسمعها تقول وهي تستعد لتغادر المكتب:

ـ «سيد مورغانتال أرغب في إجازة لثلاثة أسابيع إن كان هذا ممكناً. ابتداء من نهار الثلاثاء القادم».

محدقاً فيها، قال مرتبكاً: «سيكون هذا احراجاً مربكاً للغاية».

ـ «لا أظن أن الأمور ستكون صعبة جداً يا سيد مورغانتال. فالآنســة وايفـايت مؤهلة لتهتم بالأمـور. سأترك لها ملاحظاتي وتعليمـات شاملة. ويستـطيـع السيـد كورنـويل الاعتناء بشأن الـ «آشير ميرغن»».

سألها وعلامات عدم الارتياح ما زالت تسيطر عليه:

ـ «لست مريضة أليس كذلك؟ أو أي شيء من هذا القبيل».

لم يكن في مقـدوره أن يتخيـل الآنســة شيـل مريضة. حتى الجراثيم كانت تحترم آنا شيل وتبتعد عن سبيلها.

ـ «آه لا يا سيد مورغانتال. أود الذهاب الى لندن لرؤية شقيقتي هناك».

ـ «شقيقتك؟».

لم يكن يعرف أن لها شقيقة. لم يتصور البتة أن لديها عائلة أو أقارب. لم تذكر مرة أن لديها أياً من ذلك. وها هي تشير عرضاً أن لديهـا شقيقـة في لنـدن. كانت سافرت معه الى لندن في الخريف الماضي، غير أنها لم تُشِرْ اطلاقاً آنذاك الى أن لها شقيقة.

سألها وهو يشعر بالأسى:

ـ «لم أعرف اطلاقاً أن لديك شقيقة في انكلترا!».

ابتسمت الآنسة شيل.

ـ «آه، أجل يا سيد مورغانتال. انها متزوجة من رجل انكليزي يعمـل في المتحف البـريـطاني. من الضروري أن تخضع لعملية جراحية خطيرة. وتريدني أن أكون معها. انـا أرغب في الذهاب».

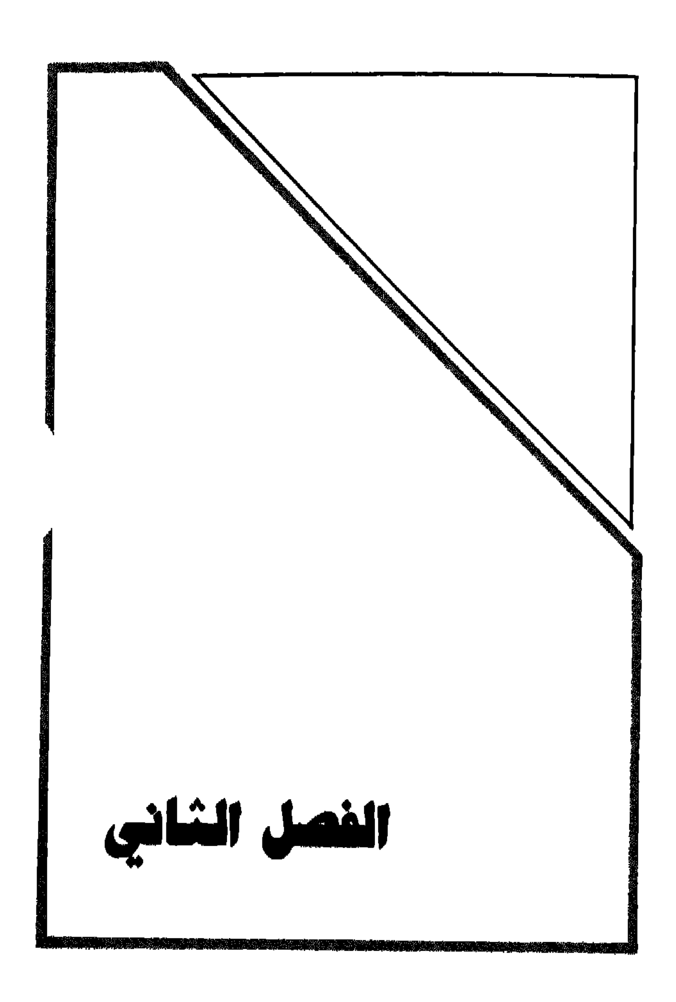
بكلام آخر رأى أوتو مورغانتال انها عقدت النية على الذهاب فقال متذمراً:

- «حسناً، حسناً... عودي بأسرع وقت ممكن. لم أرَ أبداً السوق مضطرباً كما هو الآن. إنها الشيوعية الملعونة! قد تندلع الحرب في أية لحظة. انه الحل الوحيد، هكذا يخطر لي أحياناً. الشيوعية تفسد معظم البلاد. انها تفسدها، ان الرئيس مصمم الآن على الذهاب الى هذا الاجتماع السخيف في بغداد. أظن أنها مؤامرة. ها قد خرجوا للنيل منه. بغداد! من بين كل الأمكنة الهمجية!».

«آه. أنا متأكدة انه سيكون محروساً بعناية». قالت الآنسة شيل بهدوء.

- «لقد نالوا من شاه إيران السنة الفائتة، ألم يفعلوا؟ لقد نجحوا في القضاء على برنادوت في فلسطين. انه الجنون - هذا هو - الجنون بعينه».

«وعلى كل حال»، أضاف السيد مورغانتال بجديّة، «العالم كله مجنون».



الفصل الثاني



كانت فيكتـوريـا جايمس جالسـة بكآبة على مقعد في حدائق فيتز جايمس. مستغرقة كلياً في التفكير لا بل في التأويل الأخلاقي للسيئـات المتـأتيـة عن توظيف المـواهب الاستثنائية لأحدهم في اللحظة الخطأ.

كانت فيكتوريا مثلنا جميعاً، فتاة تمتلك ميزات حسنة وعيوباً. من حسناتها أنها كانت كريمة، محبّة وشجاعة. وهي تميل بطبعها الى المغـامرة؛ وهذا أمر يخضع للتقدير الشخصي في هذا العصر الذي تعتبر الطمأنينة فيه هي الهدف الاسمى في الحياة، ومن أبرز عيوبها قدرتها على الكذب في اللحظات الملائمة وغير الملائمة في آن. لم يكن بوسعهـا مقاومة سيطرة الخيال على الواقع. كانت تكذب بطلاقة، وبسهولة، وبتوهج فنّي. فإذا تأخرت عن موعد (وكان هذا غالبـاً ما يحدث)، لم يكن يكفيها أن تهمس اعتذاراً بأن توقفت ساعـة يدهـا (وكـان هذا هو السبب غالباً)، أو بسبب تأخر غير محسوب للباص. ولكنها كانت تدعي مثلاً أن فيلاً هارباً تمدد في عرض طريق الباص الرئيسـة، أو أنها تأخرت عن الموعد بسبب غارة لمخربين لصوص حيث لعبت هي دوراً مهماً في معاونة الشرطة في مكافحتهم.

إن عالم فيكتوريا الأكثر روعة هو بالتأكيد ذاك الذي تختبىء فيه النمور في صالة الستراند ويقوم مجرمون خطيرون بغزو متجر توتينغ.

فتاة نحيلة، ذات وجه فاتن وساقين من الدرجة الأولى، في الواقع يمكن وصف قسمات فيكتوريا بالوضوح. قسمات دقيقة وناعمة حجبت بمهارة مميزة فيها. إذ ان ذلك «الوجه الممحاة»، كما كان أحد المعجبين بها يدعوه، يمكن أن يحوّل تلك القسمات الجامدة الى مقلّد ساخر لأي كان تقريباً.

وكانت هذه الموهبة بالذات هي التي أدت بها الى مأزقها الراهن. فقد كانت موظفة كطابعة على الآلة الكاتبة عند السيد غرينهولز في شركته «سيمونز وليدر بتر» في شارع غرايسهولم ف س ٢. وكانت تحاول قتل الوقت الممل صباح كل يوم بإلهاء زميلاتها الطابعات الثلاث الأخريات وكذلك ساعي المكتب بتقديم استعراض حيّ لزيارة تقوم بها السيدة غرينهولز لمكتب زوجها. فقد كانت مطمئنة لعلمها أن السيد غرينهولز قد خرج في زيارة لمحاميه، وهكذا أفلتت فيكتوريا لخيالها العنان.

«لماذا تقول اننا لا نستطيع شراء تلك الكنبة يا دادي؟». سألته بصوت مرتفع ساحر، «ان السيدة ديتاكيس تملك كنبة من الساتان الأزرق المشع. تقول انك تعاني من ضيق مالي؟ لماذا اذن تصطحب تلك الفتاة الشقراء الى العشاء والرقص ـ آه، تظن انني لا أعرف ـ ولو كنت تصطحب تلك الفتاة ـ فسأحصل على تلك الكنبة وكل تلك الأرائك المذهّبة والأرجوانية. وحين تقول انه عشاء عمل لا بد انك ستكون بمنتهى الحماقة، إذ ستعود بأحمر شفاه على قميصك.

لا بد انك ستشتري لي تلك الكنبة كما انني سأوصي على معطف من الفراء ـ يشبه تماماً فراء المنك وبسعر بخس ولا شك أنه بسعره المعروض يبدو صفقة ممتازة!».

وفجأة صمت الجميع.. وأخذت الطابعات تضرب بحركة عفوية على آلاتهن مما جعل فيكتوريا تتوقف وتستدير لتواجه السيد غرينهولز الواقف أمام الباب مراقباً إياها.

فيكتوريا العاجزة عن التفكير في قول أي شيء مناسب تقوله قالت «آه» وحسب.

صرخ السيد غرينهولز واندفع الى داخل مكتبه الخاص. وعا الفور سُمِع جرسه الكهربائي. رنتان قصيرتان ثم واحدة طويلة وكان هذا يعني استدعاء لفيكتوريا.

«هذا استدعاء لك يا جونيسي»، أشارت إحدى زميلاتها من غير طائل، ولمع بريق عينيها بحبور سببه تعاسة الآخرين. الموظفات الأخريات انتابهن أيضاً هذا الشعور نفسه وهتفن بقوة: «لقد نال منك يا جونز» و«ازحفي يا جونيسي». ساعي المكتب الصبي السمج أخذ يمرر إبهامه على حنجرته بغبطة ويصدر أصواتاً شريرة.

تناولت فيكتوريا دفتر ملاحظاتها وقلماً وانسلّت داخل مكتب السيد غرينهولز بكل ما تيسر لها من ثقة بالنفس.

تمتمت محدقة فيه في هدوء كامل: «هل طلبتني يا سيد غرينهولز؟».

كان السيد غرينهولز يخشخش بثلاث ليرات معدنية ويبحث في جيوبه عن قطع نقد أخرى.

ـ «إذن ها أنتِ، أولاً لقـد ضقت ذرعاً بك يا سيدتي الشابة. وثانياً، هل يمكنك أن تقدمي لي أي سبب خاص أو مبرر يمنعني من دفع أجرك الأسبوعي وطردك فوراً؟».

كانت فيكتوريا (اليتيمة) على وشك أن تفتح فاها لتشرح كيف ان حالة أمهـا الحـاضرة والتي خضعت مؤخـراً لعملية جراحية خطيرة، جعلتهـا طائشة كلياً. وكيف أن أجرها الحقير كان كل ما اعتمدت عليه أمها. غير أنها امتنعت وأذعنت بعدما ألقت نظرة على وجه السيد غرينهولز الكريه.

«لا يمكن أن نكون أكثر اتفاقاً»، بادرت بكل مودة ونعومة، «أظن أنك تماماً على حق، ان كنت تفهم ما أقصد».

فوجيء السيد غرينهولز قليلاً. لم يكن معتاداً أن تواجه قراراته بالصرف بردة الفعل هذه الموافقة والمهنئة. ولكي يخفي قليلاً من ارتباكه جعل يفرز كومة قطع النقد على المكتب أمامه. ثم أخذ يفتش مرة أخرى في جيوبه. وتمتم بعدها عابساً: «ينقصني تسع بنسات».

ردت فيكتـوريـا بلطف: «لا تهتم، اذهب بهـا الى السينما أو اصرفها على شراء الحلوى».

ـ «لا يبدو ايضاً انه لدي طوابع».

«يمكنني أن أبعثها اليك لاحقاً»، قال السيد غرينهولز.

«لا تتعب نفسك ـ ماذا بشأن كتاب التوصية؟»، سألت فيكتوريا.

استعر غضب السيد غرينهولز من جديد: «سحقاً لماذا يتوجب علي أن أعطيك توصية» سأل غاضباً.

ردت فيكتوريا: «هكذا جرت العادة».

سحب السيد غرينهولز ورقة و«خربش» بضعة أسطر. ثم دفعها نحوها.

ـ «هل يفي هذا بغرضك؟».

وكان كتب على الورقة:

الآنسة جونز عملت عندي لمدة شهرين كضاربة على الآلة الكاتبة ومختزلة. اختزالها غير دقيق واملاؤها سيء. انها تغادر العمل بسبب إضاعتها للوقت أثناء الدوام.

كشّرت فيكتوريا ولاحظت: «لا أظن أن هذه توصية».

رد السيد غرينهولز: «لم يكن مقصوداً أن تكون كذلك».

«أظن»، انبرت فيكتوريا قائلة، «انه يجدر بك على الأقل أن تقول بأني نزيهة، رزينة ومحترمة. أنا كما تعرف كذلك. وربما أيضاً يمكنك أن تضيف أني كاتمة أسرار».

«كاتمة أسرار؟»، زعق السيد غرينهولز.

واجهت فيكتوريا نظرته المحدقة بنظرة بريئة.

«نعم كاتمة أسرار»، قالت بنعومة.

متذكراً رسائل متعددة نصتها فيكتوريا وطبعتها على الآلة الكاتبة، قرر السيد غرينهولز أن الاحتراس هو أفضل ما في

الضغينة. فعاد وانتزع منها الورقة، ومزقها وشرع في كتابة واحدة جديدة:

عملت الآنسة جونز عندي لمدة شهرين كضاربة على الآلة الكاتبة ومختزلة. وهي تترك العمل بسبب الفائض في عدد موظفي المكتب.

ـ «ما رأيك؟».

ـ «كان من الممكن أن تكون أفضل». وأضافت، «لكنها وافية».

وهكذا تركت فيكتوريا المكتب وجلست متأملة على مقعد في حدائق فيتز جايمس وفي حقيبتها أجر اسبوع إلا تسعة بنسات. تلك الحدائق المؤلفة من مزروعات مثلثة الشكل، أو على الأصح شجيرات كئيبة تطوّق كنيسة ويطل عليها مستودع مرتفع.

كان من عادة فيكتوريا في أي يوم غير ممطر أن تبتاع من أحد المطاعم غداء بسيطاً في تلك الأمكنة الريفية هو عبارة عن سندويش من الجبنة والخس والبندورة. واليوم وبينما هي تمضغ متأملة، كانت تتحدث مع نفسها وليست هذه المرة الأولى. فقد كانت تقول ان لكل وضع زمانه ومكانه، وان المكتب لم يكن قطعاً المكان المناسب لتقليد زوجة رئيس العمل. وانه يجدر بها في المستقبل أن تكبح حماستها الطبيعية التي قادتها الى تلك المسرحية البائسة خلال وظيفة مملة. غير أنها في الوقت الحاضر متحررة من غرينهولز وشركة «سيمونز وليدربتر»، واحتمال حصولها على وضع مختلف في مكان آخر ملأها احساساً لذيذاً بالأمل.

كانت فيكتوريا تشعر دائماً بالسعادة قبيل حصولها على وظيفة جديدة. لا أحد يعلم ما قد يحدث، هكذا شعرت على الدوام.

كانت قد فرغت لتـوهـا من توزيـع آخـر كسرة خبز على ثلاثة عصافير كانت تتناقر على التقاطها، حين استرعى انتباهها شاب يقعد عند نهاية الجانب الآخر من المقعد. كانت فيكتوريا قد سبق ولاحـظتـه بشكـل عابـر بينما كان خيالها مستغرقاً في التخطيط للمستقبل، ولم تكن قد تأملته عن كثب حتى هذه اللحظة، ولكن ما تراه الآن (خارج زاوية عينها) أعجبها جداً. كان شاباً بهي الطلعة، وسيماً بملائكية، لكن بذقن حازمة وعينين زرقاوين بعمق. عينان كانتا كما خيّل إليها تتفحصانها بإعجاب خفي منذ فترة من الزمن.

لم يكن لدى فيكتـوريـا أي مانـع من التعرف على الشبّان في الأماكن العامة. وكانت تعتبر انها تحسن الحكم على الناس، وقادرة جيـداً على تقييم ملاحـظة جمال ونضارة الرجال غير المتزوجين. وهكذا أخذت تنظر اليه وتبتسم له بعفوية فاستجاب الشاب كدمية تتحرك وكأنها تشد أسلاكها بأصابعها.

«مرحباً»، قال الشاب، «هذا مكان ظريف، هل تأتين الى هنا غالباً».

- «كل يوم تقريباً».

- «لسوء الحظ انا لم آت أبداً الى هنا من قبل. هل كنت تتناولين غداءك؟».

- «أجـل».

- «لا اظن أن ما تأكلينـه كاف. قد امـوت جوعـاً لو تنـاولت سندويشين فقط. ماذا تقولين لو نذهب معاً ونأكل السجق في مطعم «سبو» في شارع محكمة توتنهام؟».

ـ «لا. شكراً. لقد اكتفيت. لا أستطيع تناول أي شيء آخر الآن».

وكانت تتوقع في الحقيقة أن يقول لها: «ربما في يوم آخر»، لكنه لم يفعل. واكتفى بتنهيدة ثم قال:

ـ «اسمي ادوارد، وأنتِ؟».

ـ «فيكتوريـا».

ـ «ما الذي جعل أهلك يختارون لك اسم محطة قطارات؟».

ـ «فيكتوريا ليس فقط اسم محطة قطارات، هناك الملكة فيكتوريا ايضاً».

ـ «أجل. ما هو اسم عائلتك؟».

ـ «جـونـز».

«فيكتوريا جونز» قال إدوارد وهم يكرر لفظ الاسم. ثم هزّ رأسه قائلاً: «الاسمان غير متناسقين».

قالت فيكتوريا مأخوذة: «معك حق. لو كنت أدعى جيني لكان هذا ألطف: جيني جونز. لكن اسم فيكتوريا يحتاج اسماً أعلى شأناً الى جانبـه. فيكتـوريا ساكفيلويست مثلاً. هذا هو المطلوب. اسم يتدحرج في الفم».

قال ادوارد باهتمـام وتعاطف: «تستطيعين ضمّ شيء آخر إلى جونز:

«بيـدفورد جونـز».

«كاريسبـروك جونـز».

«سانت كـلير جونـز».

«لونـدسيل جونـز»».

نظر ادوارد الى ساعة يده وقال متردداً بعد أن قطع عبثهما:

ـ «ينبغي أن أعود فوراً الى مديري ـ آه ـ ماذا بشأنك؟».

ـ «لقد فقدت عملي. لقد طردت هذا الصباح».

«آه، أنا آسف» رد ادوارد باهتمام شديد.

ـ «حسنا، لا حاجة للشفقة، لأني لست آسفة على الإطلاق. أولاً لأني أستطيع الحصول على وظيفة بسهولة، والى جانب هذا لقد كان الأمر مسلياً».

جعلته فيكتوريا يتأخر اكثر عن ميعاد عمله إذ قصّت عليه تفاصيل كل ما حدث في الصباح . وقامت مجدداً بتمثيل تقليدها للسيد غرينهولن، وكان إدوارد يستمتع كثيراً بذلك.

ـ «أنت خفيفة أخاذة يا فيكتوريا»، وأضاف «ينبغي أن تمثلي على المسرح».

تلقّت فيكتوريا هذا المديح بابتسامة امتنان واقترحت على ادوارد أن يسارع إلى الذهاب إذا كان لا يريد أن يطرد هو أيضاً.

«أجل. ولا أظن أن بمقدوري أن أحصل مثلك بسهولة على وظيفة. لا بد أنه أمر رائع أن تكوني ضاربة على الآلة الكاتبة ومختزلة.»، قال ادوارد بحسد.

«في الواقع لست ضاربة ومختزلة جيدة»، اعترفت فيكتوريا بصراحة، «لكن لحسن الحظ في هذه الأيام، تستطيع أسوأ السكرتيرات الحصول على أي نوع من العمل ـ قد تكون وظيفة تثقيفية او خيرية أحياناً ـ هؤلاء لا يستطيعون دفع أجور كبيرة لذا يستطيعون توظيف أناس مثلي. أحب العمل في المؤسسات العلمية.

قد تكون الأسماء والمصطلحات العلمية مرعبة، لكنك على أية حال لا تخجل ان كنت لا تعرف تهجئتها بشكل صحيح، ذلك أن لا أحد يستطيع أن يفعل. ما هي وظيفتك؟ أظن انك خارج من الخدمة العسكرية...».

- «لقد حزرت».

- «طيّار حربي؟».

- «لقد حزرت مجدداً. لقد وفوا بوعودهم وأمّنوا لنا الوظائف والمساعدات. لكن بصراحة المشكلة هي أننا لسنا أذكياء كفاية. أعني أن الواحد ليس بحاجة أن يكون ذكياً في الجيش. لقد وضعوني في مكتب بين مجموعة ملفات وأرقام ولا يتوجب علي سوى القليل من التفكير، لكني أخفقت إخفاقاً تاماً. بدا لي الأمر برمته من دون فائدة. لكن في النهاية نجد أن الأمر يتطلب بعض الوقت لنكتشف أننا غير نافعين».

وافقته فكتوريا بعطف. وتابع ادوارد بمرارة:

- «لقد فقدنا مهارتنا. لم نعد ننفع. كان الوضع جيداً خلال الحرب. كان في مقدورنا تحقيق أشياء. أنا مثلاً حصلت على... لكن الآن أظن أن لا موقع لي على الخارطة».

- «لكن ينبغي أن يكون هناك...».

لم تكمل.. شعرت أنها عاجزة عن التعبير عن قناعتها بأن تلك الصفات التي كللت صاحبها بـ... لا بد أن يكون لها مكانها المناسب في عالم الخمسينات.

- «إن هذا يهبط من عزيمتي على أية حال». وتابع: «أعني

أن أكون فاشلاً في كل شيء. من الأفضل أن أرحل. أقصد، هل تسمحين لي؟ هل سأكون وقحاً؟ لو كنت أستطيع فقط البقاء..!».

وبينما حدقت فيكتوريا مذهولة، متلعثمة ومتوردة خجلاً، انتشل ادوارد آلة فوتوغرافية صغيرة.

ـ «أود من كل قلبي أن ألتقط لك صورة. في الواقع أنا مسافر غداً الى بغداد».

«إلى بغداد؟»، سألت فيكتوريا بتعجب وخيبة.

ـ «أجل. أعني أنا أتمنى لو لم أكن مسافراً، خصوصاً الآن. لقد فرحت جداً، هذا الصباح حين أنبئت بالرحلة. ولهذا السبب قبلت في الواقع هذه الوظيفة؛ كي أخرج من هذا البلد».

ـ «ما هو نوع عملك؟».

ـ «وظيفة بائسة. لها علاقة بالثقافة والشعر وما شابه. مديري هو الدكتور راسبون. تصله كدسات من الرسائل ويحدق بي من خلف نظارة أنفية، مفعماً بالعطف، هاجسه الأوحد هو احداث نهضة ثقافية والعمل على نشرها الى أبعد وأوسع مساحة ممكنة. انه يفتتح مكتبات في أماكن نائية. ويعمل على افتتاح واحدة في بغداد. ويعمل على ترجمة أعمال شكسبير وميلتون الى العربية والكردية وكذلك اللغتين الفارسية والأرمنية، وجعل هذه الترجمات في متناول الجميع. أظن أن هذا تصرف سخيف لأن القنصل البريطاني يعمل على تحقيق الأمر نفسه هناك. وطالما أن هذا يؤمن لي وظيفة فلا يجدر بي أن أتذمر».

ـ «ما هو الذي تقوم به بالتحديد؟».

ـ «ليس شيئاً محدداً. وفي الحقيقة، لقد صرت في النهاية رجله المطيع أو كلبه الوفي. أشتري بطاقات السفر، اقوم بالحجوزات، املأ طلبات جواز السفر، أتحقق من توضيب كتيّبات الشعر الصغيرة المقيتة، والتجوال في كل الأمكنة. ومن ناحية أخرى يتطلّب مني أن اتآخى مع ما يشبه ـ حركة شباب متألق ـ حيث تجتمع كل الأمم معاً في سبيل النهضة». صوت ادوارد ازداد حزناً وختم قائلاً: «بصراحة كل هذا شنيع، أليس كذلك؟».

لم يكن في وسع فيكتوريا مؤاساته فصمتت عاجزة.

انبرى إدوارد يقول: «ها قد فهمت. فإن كنت لا تعترضين، أود أن ألتقط لك صورة من الجنب وأخرى وأنت تنظرين إليّ مباشرة. آه هذا عظيم».

تكّت آلة التصوير مرتين وقامت فيكتوريا راضية كل الرضى باستعراض كل إغرائها كفتاة تعلم تماماً أن عليها إغراء الجنس الآخر.

ـ «لكن هذا بشع في الحقيقة، أن أضطر للمغادرة وبالكاد التقيتك». وأضاف ادوارد: «يخطر لي أن أصرف النظر عن الرحلة. لكني أظن أن هذا مستحيل الآن في اللحظة الأخيرة، ليس بعد كل المشقات المرعبة التي عانيت في اجراء الطلبات وسمات الدخول وفي كل شيء. لن يكون هذا ظريفاً، أليس كذلك؟».

قالت فيكتوريا معزّية: «ربما لا تكون هذه الرحلة سيئة في النهاية».

«لا»، ردّ إدوارد بصوت ملؤه الشك، «الشيء العجيب انه

يمتلكني شعور أن هناك أمراً محيراً في هذه الرحلة».

ـ «محيراً؟».

ـ «أجل. في الأمر زيف. لا دليل لدي. انه مجرد شعور يتملك الشخص أحياناً. خالجني هذا مرة في شأن فتحة الزيت في سيارتي. تقصيت الأمر حينذاك في تلك السيارة الملعونة، واكتشفت في الحقيقة أن حلقة مطاطية سدّت مضخة المحوّل الاحتياطية».

كان حريصاً على استخدام تلك التعابير التقنية المعقدة أمام فيكتوريا. ولكنها فهمت الفكرة الأساسية.

ـ «هل تعتقد أن راسبون كاذب؟».

ـ «ليس بمقدوري أن أتخيّل كيف يمكن أن يكون كذلك. أعني انه محترم جداً ومثقف وينتمي الى تلك المجتمعات الودودة حيث الأساقفة ومدراء المدارس. لا، انه شعور لا أكثر. حسناً الوقت سيكشف ذلك. وداعاً. أتمنى لو تأتين أنت أيضاً».

قالت فيكتوريا: «هذا ما سأفعله؟».

ـ «ماذا ستفعلين؟».

«سأذهب الى مكتب سانت غيلدريك في شارع غوير، وسوف أحاول الحصول على وظيفة أخرى». تمتمت فيكتوريا حزينة.

ـ «وداعاً يا فيكتوريا». وقال بالفرنسية: «الغياب هو موت قصير، أولئك الفرنسيون يعرفون جيداً ماذا يعني الأمر. شباننا يهذون معتبرين الغياب حزناً محبباً. انهم مجرد حمير».

ـ «وداعاً يا إدوارد وأتمنى لك الحظ الجيّد».

ـ «لا أعتقد أنك ستفكرين بي بعد اليوم».

ـ «لا، سأفكـر بـك».

ـ «أنت مختلفة تماماً عن أي فتاة عرفتها من قبل. أتمنى فقط..».

قرعت ساعـة المدينة ربع قرعة، فقال ادوارد: «يا للشيطان ـ ينبغي أن أطير عائداً..».

معجلاً بالعودة سرعان ما ابتلعته معدة لندن الهائلة وبكلام آخر توارى كليـاً. فيكتوريا التي تركها وراءه وحيدة على المقعد كانت مأخوذة بالتأمل يتنازعها تياران متناقضان من الأفكار.

أحد التيارين كان يتعلق بموضوع روميو وجولييت، حيث شعرت انها وإدوارد كانا تقريباً في وضع مماثل لوضع ذاك الزوج التعس. على الرغم من أن روميو وجولييت ربما عبّرا عن عواطفهما بلغة أرقى بكثير. لكن خامر فيكتوريا أن الوضع كان مماثلاً. اللقاء، الانجذاب الفوري، الخيبـة، قلبان هائمان مطعونان ممزقان إرباً. وتذكرت مقطعاً من قصيدة كانت تلقيها باستمرار مربيتها القديمة:

قال جامبو لاليس: أحبك
قالت اليس لجامبو: لا أصدق ذلك
لو كنت تحبني كما تدّعي
لما كنت تذهب إلى أميركا وتتركني في حديقة الحيوانات.

وإن وضعنا بغداد بدل أميركا فسيكون الأمر سيان!

نهضت فيكتوريا أخيراً نافضة بقايا الخبز عن حضنها، وخرجت بسرعـة من حدائق فيتز جايمس في اتجاه شارع غوير. كانت قد

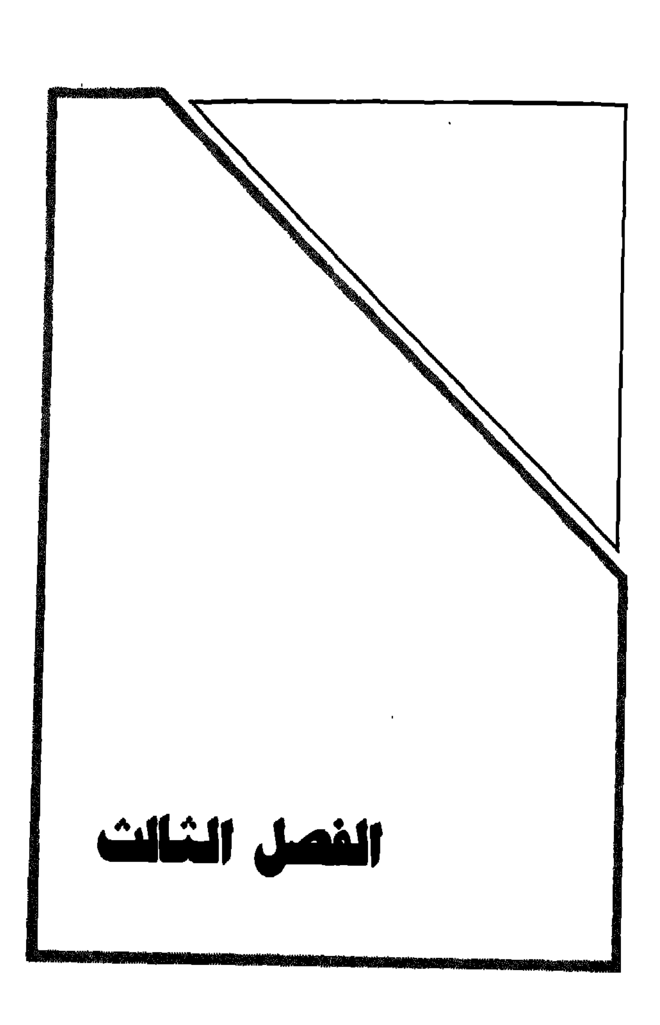
اتخذت قرارين. كان الأول انها مثل جولييت تعشق هذا الشاب وترغب في الحصول عليه.

وكـان قرارهـا الثاني كالتالي: بما ان إدوارد سيكون قريباً في بغداد فالشيء الوحيد الذي كان يجب أن تفعله هو الذهاب أيضاً الى بغداد. ما يشغل بالها الآن هو الوسيلة التي تمكّنها من تحقيق ذلك. ولم يكن لديها أدنى ريب في أن هذا الأمر سيتحقق بطريقة أو بأخرى. كانت شابة قوية الشخصية وممتلئة تفاؤلاً.

لم تكن تروقهـا فكـرة «حزن البعاد المحبب» ومثل ادوارد لم تعجبها اطلاقاً.

خاطبت فيكتوريا نفسها قائلة: «بطريقة ما، يجب أن أذهب الى بغداد!».





الفصل الثالث



- ١ -

رحب فندق سافوي بالآنسة آنا شيل في حفاوة يفرضها حضور زبـون قديم ومعتبـر. سألوا عن صحة وأحوال السيد مورغانتال واكدوا لها أن كل ما عليها أن تقوله إذا لم يعجبها جناحها هو: لا. لأن الآنسة شيل كانت بالنسبة لهم تمثل ببساطة الدولارات.

أخذت الآنسة شيل حمّاماً، ارتدت ثيابها، قامت باتصال هاتفي الى رقم في مدينة كينسيغتون، ثم هبطت في المصعد. عبرت الأبواب الدوّارة وطلبت سيارة اجرة. حين حضرت السيارة ركبتها وانطلقت متوجهة الى متجر «كارتييه» في شارع بوند.

ما إن ابتعدت السيارة عن محيط فندق سافوي ودخلت شارع ستراند، حتى تطلّع فجاة رجل نحيل أسمر كان يقف متفرجاً على واجهة متجر الى ساعة يده. ثم أشار مستوقفاً سيارة أجرة تعبر مسرعة وكان سائقها تخطى منذ دقيقة وبعماء كلّي امرأة منفعلة تحمل مشترياتها بعلب كرتونية.

طارد التاكسي طوال شارع ستراند سيارة الأجرة الأولى حيث

حرص على ابقائها في مجال نظره. وفجأة استوقفت السيارتين شارة ضوئية في منعطف ساحة «الطرف الأغر»، فتطلع الرجل الذي في التاكسي الثانية عبر نافذة الجهة اليسرى وقام باشارة ضئيلة بيده. وعلى الفور، انطلقت سيارة خاصة كانت متوقفة في الطريق الجانبية قرب قوس أميرالي واندست داخل سيل الازدحام ملاحقة سيارة الأجرة.

وعندما تحرك السير من جديد. كانت سيارة الأجرة التي تستقلها آنا شيل تواجه سيل الازدحام المتوجه نحو شارع «بول مول»، وانعطفت سيارة الرجل النحيل الأسمر في اتجاه الميمنة متابعة الدوران حول ساحة الطرف الأغر، بينما كانت السيارة الخاصة الرمادية اللون من نوع «ستاندارد» تقترب اكثر فأكثر من السيارة التي تقل آنا شيل. وكان في داخلها راكبان أحدهما السائق وهو شاب وسيم ذو وجه خال من التعبير والآخر امرأة شابة أنيقة.

لاحقت سيارة «ستاندارد» سيارة الأجرة التي تقل آنا شيل طوال شارع البيكاديلي وصعوداً حتى شارع بوند ستريت، وهناك توقفت برهة عند حافة الطريق وغادرتها المرأة الشابة، شاكرة سائقها. وبينما تابعت السيارة سيرها، كانت الفتاة الشابة تتمشى على الرصيف وهي ترمق بين الحين والآخر نوافذ السيارات. وعندها توقفت سيارة آنا شيل أمام مدخل محلات «كارتييه» فدفعت آنا شيل أجر التاكسي وولجت متجر الجواهر. بقيت وقتاً تتفحص قطعاً مختلفة من الجواهر. وفي النهاية اختارت خاتماً من الياقوت الأزرق والماس. وحررت شيكاً مسحوباً على أحد المصارف اللندنية، وعند رؤية الاسم المطبوع عليه أصبح الموظف أكثر لطافة معها.

ـ «أنا سعيد برؤيتك مجدداً في لندن يا آنسة شيل. هل السيد مورغانتال برفقتك؟».

ـ «لا».

ـ «كنت اتساءل لأن لدينا مجموعة من الياقوت الفاخر، وأعرف انه مهتم جداً بالياقوت، هل تودين رؤية المجموعة؟».

ابدت الآنسة رغبتها برؤيتها وأعجبت بها بالتأكيد ووعدت أن تنوّه بها أمام السيد مورغانتال.

خرجت بعدها الى شارع بوند ستريت بينما تملّصت المرأة الشابة من البائع، وكانت تتفحص أقراطاً من الحلق، مدعية أنها غير قادرة على الاختيار وانسلت الى الخارج.

السيارة الستاندارد الرمادية، التي كانت انعطفت الى يسار شارع غرافتون وانحدرت وصولاً الى شارع بيكاديلي، كانت تصل الآن أعلى شارع بوند ستريت، غير أن المرأة الشابة لم تبدِ ابداً أي انتباه لها.

انعطفت آنا شيل ودخلت شارع الآركايد، حيث دخلت هناك متجر زهور وطلبت ثلاث درزينات من الورد بجذوع طويلة، وباقة كبيرة من البنفسج القرمزي الرائع، ودزينة من الشقائق البيضاء وأخيراً جرّة ميموزا. ثم كتبت عنواناً على بطاقة وطلبت ارسال الزهور الى ذلك العنوان.

ـ «المجموع هو اثنا عشر جنيهاً وثمانية عشر شلناً يا سيدتي».

دفعت آنا شيل المبلغ وغادرت. بينما كانت المرأة الشابة قد دخلت للتو الى محل الزهور فسألت عن سعر زهور الربيع، إلا أنها

لم تشترِ شيئاً وانطلقت تطارد آنا شيل.

قطعت آنـا شيـل شارع بونـد ستريت، ثم شارع بيرلينغتون وتحـولت لتدخل شارع «سافيل رو». وهناك دخلت مؤسسة أحد الخيّاطين المختصين بالملابس الرجالية، الذي يتنازل أحياناً ويخيط بدلة لسيدة من سيدات المجتمع المتميزات.

استقبل السيد بولفورد الآنسة شيل استقبالاً يليق بزبون مهم. واستعرض لها مجموعة من الأقمشة.

ـ «لحسن الحـظ أستطيع أن أقدم لك النوع الذي نستورده نحن. متى ستعودين الى نيويورك يا آنسة شيل؟».

ـ «في الثالث والعشرين من الشهر الجاري».

ـ «نستطيع انجاز البدلة خلال هذا الوقت».

ـ «جيّـد».

ـ «كيف هي الأحوال في أمـيركـا؟ الأحـوال هنا تعيسة جداً ـ بائسة جداً في الواقع». هزّ السيد بولفورد رأسه مثل طبيب بصدد تصوير حالة مريض. وأردف قائلاً: «لا روح في الأشياء. أتفهمين ما أقصـد. لم يعـد أحـد يفتخـر بانجاز عمل جيد. هل تعرفين من سيفصّل بدلتك يا آنسة شيل؟ السيد لانتويك، عمره ٧٢ عاماً وهو الوحيد الذي أستطيع أن أثق به ليفصّل بدلات أفضل زبائننا. أما الآخرون...».

وعندها بلع السيد بولفورد ريقه وتنحنح وتابع قائلاً:

«الجودة هذا ما اشتهرت به هذه البلاد. الجودة! لا للأشياء الرخيصـة، لا للأشياء المبهرجة. حين نجرّب انتاج كميات كبيرة

نفشل، وهذه حقيقة جليّة. هذا اختصاص بلدك يا آنسة شيل وهذا ما يجب أن نكافح من أجله، وأقولها ثانية انها الجودة. ننجز عملنا بروية وبعناء ونقدم أصنافاً ليس بمقدور أحد مضاهاتها. أي يوم نحدد موعد التجربة الأولى للثوب؟ الأسبوع القادم في مثل هذا اليوم؟ عند الساعة الحادية عشرة؟ شكراً جزيلاً».

شقّت آنا شيل طريقها وسط أكداس القماش البالية والقاتمة، وخرجت الى ضوء النهار مجدداً ولوّحت لسيارة اجرة وعادت الى السافوي. في هذا الحين توقفت سيارة أجرة وفي داخلها الرجل النحيل الأسمر الى الجانب الآخر من الطريق، بعدما سلكت الطريق نفسها. غير أنها لم تدخل باحة فندق السافوي. ثم انطلقت لتدور حول سور الفندق، وفي مكان ما هناك توقفت لتنضم اليها امرأة قصيرة سمينة كانت خرجت لتوّها من باب الخدمات التابعة للفندق.

ـ «ماذا اكتشفت يا لويزا؟ هل تسلّلت الى غرفتها؟».

ـ «نعم. لا شيء».

تناولت آنا شيل طعام الغداء في المطعم. حيث كانت قد حجزت لنفسها طاولة قرب النافذة، وباهتمام بالغ استعلم مدير الفندق عن صحة السيد مورغانتال.

بعد الغداء أخذت مفتاحها وصعدت الى جناحها. كان السرير مرتباً ووضعت مناشف جديدة في الحمام وكان كل ما في الجناح في منتهى الأناقة. اقتربت آنا من حقيبتي السفر الخفيفتين، وكانت احداهما مفتوحة والأخرى مقفلة. حدقت في محتويات الحقيبة المفتوحة، ثم انتشلت مفاتيحها وفتحت الأخرى. كان كل شيء فيها مرتباً ومطوياً كما وضّبته هي، وفي الظاهر لم يبدُ أن أحداً لمس أو

نبش أي شيء فيها. على رأس المحتويات تمددت حقيبة يد جلدية صغيرة، وفي احدى الزوايا وضعت آلة تصوير من نوع لايكا وفيلمين. كان الفيلمان لا يزالان مختومين. مررت آنا أحد أظافرها فوق حاشية الحقيبة ورفعتها. ثم ابتسمت برقة. فالشعرة الشقراء غير المرئية تقريباً التي كانت وضعتها هناك لم تكن. نثرت برشاقة قليلاً من البودرة على جلد حقيبة اليد اللمّاع ونفخته. بقيت حقيبة اليد نظيفة ولّماعة. لم يكن هناك بصمات. مع انها كانت في الصباح قد امسكت الحقيبة بيدها بعدما مسحت بها قليلاً من المستحضر الزيتي على قبعتها؛ فكان من المفروض أن يكون على الحقيبة بصمات، بصماتها هي نفسها.

وابتسمت مرة أخرى.

- «عمل جيد» تمتمت لنفسها، «لكنه ليس جيداً كفاية».

جعلت توضب بصمت حقيبة للاستخدام اليومي ونزلت من جديد الى بهو الفندق حيث اقلتها سيارة تاكسي انطلقت بها الى الرقم ١٧ في شارع حدائق «إلمس لايت».

كان شارع حدائق «إلمس لايت» هادئاً. دفعت آنا أجر التاكسي وهرولت صاعدة الدرجات الى الباب الأمامي المتقشر، وضغطت الجرس وخلال دقائق معدودة فتحت امرأة كهلة بوجه تبدو عليه الريبة والحذر، ولكنه سرعان ما تحول مرحباً.

- «سوف تبتهج الآنسة إلسي كثيراً برؤيتك! إنها في غرفة الجلوس في المؤخرة. ان فكرة قدومك كانت الشيء الوحيد الذي رفع معنوياتها».

عجّلت آنا عبر الرواق وفتحت الباب عند نهايته. كانت الغرفة ضيقة وبالية ولكنها مريحة بكنباتها الجلدية الرثة. المرأة الجالسة على احداها قفزت واقفة في الحال.

ـ «آنـا، حبيبتــي».

ـ «إلـســي».

تعانقت المرأتان بحرارة.

ـ «كـل شيء معـد» انبــرت إلسي، «ســأذهب الليلــة. آمـل ذلك...».

ـ «تشجّعي». وأضافت آنا، «كل شيء يسير على ما يرام».

ـ ٢ ـ

دخل الرجل الأسمر النحيل بمعطفه كشك الهاتف العمومي في محطة شارع «هاي كينسيغتون» وطلب رقماً.

ـ «هل هنا شركة فتح الله للفونوغراف؟».

ـ «نعــم».

ـ «هنـا سانـدرز».

ـ «ساندرز النهري؟، أي نهر؟».

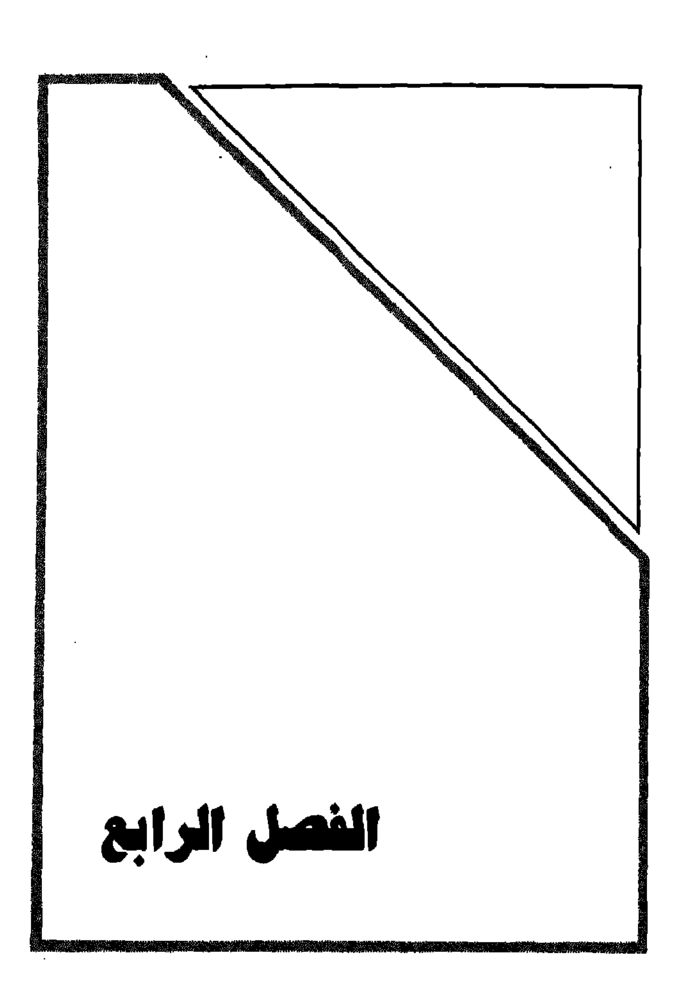
ـ «نهر دجلة. هذا تقريري عن أ. ش. وصلت هذا الصباح من نيـويـورك. توجهت الى متجر كارتييه وابتاعت خاتماً من الياقوت والمـاس ثمنــه مئــة وعشرون باونـداً. ثم ذهبت الى متجــر زهور لصاحبته جاين كنت واشترت زهوراً بمبلغ ١٢ جنيهاً و١٨ شلناً لتسلّم الى مستشفى في «بـورتـلاند بلايس». أوصت بعدها على

معطف وتنورة في مؤسسة بولفورد وآفوري للخياطة. لا يشتبه بأي من هذه المؤسسات أو المتاجر، لكنها ستبقى تحت المراقبة في المستقبل. جرى التسلل الى غرفة أ. ش. لم يوجد أي شيء مثير للشبهات فيها. حقيبة يد داخل حقيبة سفر احتوت أوراقاً تخص شركة بايير هيرغر وولفينشتاينز. كل الأشياء كانت موضوعة بشكل طبيعي. كاميرا وفيلمان غير مستعملين ظاهرياً، محتمل أن يكونا من نوع التسجيلات الفوتوستاتية. بدّلنا الفيلمين وتحققنا لاحقاً أنهما الأساسيان: فهما غير مستخدمين أبداً. حملت أ. ش حقيبة صغيرة وتوجهت الى عند شقيقتها في ١٧ شارع «إلمس لايت». ستدخل شقيقتها هذا المساء مستشفى في بورتلاند بلايس لإجراء عملية جراحية داخلية. تأكدنا من ذلك عبر المستشفى ومن دفتر مواعيد الطبيب الجرّاح.

زيارة أ. ش تبدو كلياً خارج الشبهات. لم تُظهر أي ارتباك ولم يبد عليها أنها لاحظت أنها ملاحقة. علمنا أنها ستقضي هذه الليلة في المستشفى. احتفظت بجناحها في السافوي. ستعود الى نيويورك في الثالث والعشرين من هذا الشهر، وقد حجزت بطاقتها مسبقاً».

وقف الرجل الذي دعا نفسه ساندرز النهري وأضاف قائلاً وكأنما لا علاقة له بالتقرير:

«وإن كنت تسأل رأيي فكل هذا سراب. انها تبدد أموالاً كيفما كان، هذا كل ما تقوم به. تصرف ١٢ جنيهاً و١٨ شلناً على الزهور!. ما رأيك؟».


الفصل الرابع



- ١ -

كان مزاج فيكتوريا العفوي المرح يمنعها من التوقّع، ولو لدقيقة واحـدة، أي احتمـال لفشـل هدفهـا. لم تكن بالفتـاة الحالمة أو المستسلمة. وكان من سوء حظها أن تقع في غرام شاب جذّاب، وأن يكون ذلك الشاب على وشك الرحيل الى مكان ناء يبعد ما يقارب الثلاثة آلاف ميل. كان يحتمل بكل بساطة أن يغادر الى أبردين أو بروكسيل أو حتى برمنغهام.

خطر لفيكتوريا أن من سوء طالعها أن تكون وجهة سفره بغداد، وقررت الوصول الى بغداد بطريقة أو بأخرى. ومهما كانت صعوبة الأمـر. مشت على امتـداد شارع محكمـة توتنهام وهي تستنبط الوسائل والطرق التي تؤدي إليها.

بغداد... ماذا يجري في بغداد؟

حسب إدوارد: «مهمة ثقافية». هل تستطيع بطريقة ما الوصول عبر قناة الثقافة؟ اليونسكو؟ منظمة اليونسكو التي تقوم باستمرار بارسال البعثات الى هنا وهناك ومعظم الأمكنة وأحياناً الى الأمكنة

الأكثر بهجة. لكن فيكتوريا عادت وفكرت أن الفتيات الموفدات هن عادة من الفتيات المتميزات والحائزات على شهادات جامعية ومنخرطات في هذا النشاط منذ زمن طويل.

قررت فيكتوريا أنه ينبغي أولاً التصرف حسب الأولويات، وهكذا انعطفت لتدخل وكالة سفريات وهناك استعلمت عن الأمر. كان يبدو أن لا صعوبة في السفر الى بغداد. يمكن السفر جواً وبحراً أيضاً الى ميناء البصرة، وبالقطار عبر مرسيليا، وكذلك أيضاً في الباخرة الى بيروت ومنها عبر الصحراء بواسطة السيّارة. ويمكن الوصول أيضاً عبر مصر. وبالامكان أيضاً قطع كل الرحلة بواسطة القطار. غير أن سمات الدخول الى بغداد صعبة المنال حالياً ولا يمكن التأكد من منحها؛ ويحصل أحياناً أن تنتهي فترة السمة المعطاة قبل حصولك عليها. كانت بغداد ضمن منطقة نفوذ الجنيه الاسترليني، فلن تشكل قضية العملة أي عقبة. وقد اكتشفت بعد كل تحرياتها في النهاية أن لا مشكلة اطلاقاً في الحصول على سمة دخول الى بغداد طالما أن في حوزتك بين الستين والمئة جنيه نقداً.

كان كل ما في حوزة فيكتوريا ثلاثة جنيهات (إلا تسع بنسات) إضافة إلى ذلك خمسة جنيهات في حسابها المصرفي، لذا كانت هذه الطريقة رابع المستحيلات.

استعلمت بجديّة عن امكانية العمل كمضيفة طيران أو خادمة على ظهر باخرة. غير أن هاتين الوظيفتين حسبما فهمت مرغوبتان بشكل غير معقول، وان هناك لائحة انتظار لهما طويلة.

قامت فيكتوريا بعدئذ بزيارة لوكالة غيلدريك، الآنسة سبانسر

الجالسة وراء مكتب أنيق رحّبت بها ترحيباً خاصاً باللواتي يترددن مراراً الى المكتب.

ـ «ربّاه. لا تقولي لي يا آنسة جونز انك فقدت وظيفتك مرة أخرى. كنت أرجو أن تكون هذه الأخيرة..».

ردت فيكتوريا بحزم: «كارثة بالفعل ليس بوسعي أن أخبرك بما عانيت».

لوّح احمرار خجول وجنتي الآنسة سبانسر الشاحبتين. وانبرت قائلة: «لا. أتمنى ألّا تفعلي. لم أتصور أنه من هذا الصنف. ولكنه بالطبع فظ بعض الشيء، أرجو أن...».

ـ «ان الأمر على ما يرام»، وقد رسمت على وجهها ابتسامة رائعة، أستطيع تدبّر أموري».

ـ «آه، بالطبع. أقصد أن في الأمر مرارة».

ـ «أجل» وأضافت فيكتوريا: «هذا مزعج. على أية حال..»، وابتسمت بشجاعة مرة أخرى.

تفحصت الآنسة سبانسر دفاترها. وبدأت بالقول: «مركز سانت ليونارد لمساعدة الأمهات غير المتزوجات يطلب سكرتيرة. وهم بالطبع لا يدفعون الكثير..».

سألتها فيكتوريا مقاطعة: «هل من الممكن الحصول على وظيفة في بغداد؟».

سألت الآنسة سبانسر بدهشة عارمة: «في بغداد؟».

رأت فيكتوريا انه كان من الأفضل لو انها قالت في كامشاتكا في القطب الجنوبي.

وأردفت فيكتوريا: «أود من كل قلبي الذهاب الى بغداد».

- «لا أظن.. أتقصدين العمل كسكرتيرة؟».

ردت فيكتوريا: «في أي شكل، كممرضة، أو طبّاخة، أو للإعتناء بمجنون. في أي شكل ممكن».

هزت الآنسة سبانسر رأسها سلباً:

- «أخشى أني لا أستطيع أن أعدك بالشيء الكثير. حضرت البارحة سيدة مع فتاتين صغيرتين وهي ترغب في استخدام احداهن في استراليا».

رفضت فيكتوريا كلياً فكرة استراليا.

نهضت وقالت: «إن جاءك أي عرض من هذا القبيل. ولو باجرة السفر فقط أعلميني. هذا كل ما أحتاج اليه». وواجهت حشرية عيني المرأة الأخرى مفسّرة: «لدي اقارب هناك، وعلمت أن هناك الكثير من الوظائف العالية الأجر. لكن بالطبع ينبغي أن نصل الى هناك أولاً».

- «أجل»، رددت فيكتوريا لنفسها وهي تغادر مكتب سانت غيلدريك، «ينبغي أن يصل الواحد الى هناك».

ضاعف من ضيق فيكتوريا، وكما يحدث عادة حين ينشدّ انتباه مطلق فرد الى اسم أو غرض معين، احساسها أن كل الأشياء وكأنما تتآمر فجأة لاجبارها على التفكير في بغداد.

قرأت في فقرة صغيرة في جريدة المساء التي ابتاعتها أن الدكتور باونسيفوت جونز وهو عالم آثار مشهور بدأ التنقيب في مدينة مورف القديمة والتي تبعد مئة وعشرين ميلاً عن بغداد. وقرأت

كـذلك اعـلاناً عن خطـوط شـحن بحري الى البصرة (وكـذلك في القطـار الى بغداد والمـوصـل و... الـخ). ولاحظت في صـحيفـة قديمة عنـد حافـة جارور جـواربها، سطـوراً قليلة عن تـلامذة يدرسون في بغداد.

في صالة السينما المحلية كانوا يعرضون فيلم «لص بغداد». وفي مكتبـة رفيعـة المستـوى، اعتادت التحديق في واجهتها، عرضت بشكل بارز سيرة جديدة لهارون الرشيد خليفة بغداد.

بدا لهـا وكـأن العـالم بأسره أصبح فجأة منتبهاً الى بغداد. والعجب أنها قبيل تلك الظهيرة وتقريباً عند الساعة الثانية إلا ربعاً، لم تكن سمعت ببغداد. وبالتأكيد لم تفكر بها البتة.

كانت احتمـالات الوصول الى هناك ضئيلة، إلا أنها لم تفكر بالاستسلام أبداً. لقد كانت خلّاقة متفائلة ومقتنعة بأن هناك دائماً سبيلاً للفلاح إن أراد المرء تحقيق أمر ما.

صرفت معظم العشية وهي تستعرض لائحة بالأساليب المحتملة لتحقيق مرادها؛ وكانت اللائحة كالآتي:

- المحاولة عبر وزارة الخارجية؟
- عبر اعلان في الصحف؟
- المحاولة عبر المفوّضية العراقية؟
- مصانع التمر؟
- شركات الشحن البحري؟
- القنصلية البريطانية؟
- مكتب سلفريدج للإستعلامات؟

ـ مكتب خدمة المواطن؟

كانت في طيّات نفسها مقتنعة تماماً أن أياً من هذه الاحتمالات لم يكن محتملاً. وأضافت إلى اللائحة:

«بطريقة أو بأخرى، احصلي على مئة جنيه».

ـ ٢ ـ

الجهد الذهني الكثيف الذي بذلته فيكتوريا في الليل الفائت، وربما أيضاً الاكتفاء الذاتي الداخلي بعدم اضطرارها للمثول إلى المكتب عند تمام الساعة التاسعة، جعلاها تستغرق ارادياً في النوم.

استفاقت عند الساعة العاشرة وخمس دقائق. وعلى الفور وثبت من الفراش وبدأت ترتدي ملابسها. كانت على وشك الانتهاء من تمشيط شعرها الأسود الأشعث حين رنّ الهاتف.

رفعت فيكتوريا السمّاعة.

من الجانب الآخر سُمع صوت الآنسة سبانسر المهتاج.

ـ «ماذا؟»، صرخت فيكتوريا.

ـ «إنها مصادفة مذهلة. ثمة سيدة تدعى هاميلتون كليب مسافرة بعد ثلاثة أيام الى بغداد، وقد أصيبت بكسر في يدها فهي في حاجة الى من يساعدها أثناء الرحلة. لقد اتصلت بك تواً. لا أعلم إن كنت اتصلت أيضاً بمكاتب توظيف أخرى».

ـ «أنا قادمة حالاً»، وأردفت فيكتوريا، «أين هي؟».

«في فندق سافوي».

ـ «ما هو الاسم السخيف الذي تحمله؟ أهو تريب؟».

ـ «أجل يا عزيزتي كليب. ذلك لأنها أميركية». هكذا أنهت الآنسة سبانسر مفسّرة لها كل شيء.

ـ «السيدة كليب في فندق السافوي».

ـ «السيد والسيدة كليب. في الواقع كان الزوج هو من اتصل».

انبرت فيكتوريا قائلة: «أنت ملاك. وداعاً».

مسحت ثوبها بالفرشاة على عجل وتمنت لو أن حالته أفضل بقليل. سرحت شعرها مجدداً لكي يبدو أصغر حجماً وأكثر ملاءمة لدورها كملاك حارس، ورحّالة متمرسة. ثم انتشلت كتاب توصية السيد غرينهولز وحدقت فيه وهي تهز برأسها.

قالت فيكتوريا: «ينبغي أن أكتب واحدة أفضل».

وصلت فيكتوريا بواسطة الباص رقم ١٩ إلى شارع غرين بارك ودخلت فندق ريتز. دخلت غرفة المطالعة ونصت لنفسها كتاب توصية فاخراً ووقعته باسم الليدي سينتيا برادبوري.

كتبت فيكتوريا: «تعتني بالمريض بشكل عظيم» و«يمكن الاعتماد عليها في معظم الأمور».

مغادرة فندق ريتز، قطعت الطريق واجتازت معبراً لتصل الى شارع ألبر مارل وأدركت أخيراً فندق بالدرتون المشهور كمأوى لكبار الأساقفة والعجائز المحترمين القادمين من القرى. فدخلت الى غرفة المطالعة وكتبت لنفسها بخط يد أقل حيوية توصية من أسقف منطقة لانغو.

وهكـذا بعتـاد كامـل ركبت فيكتوريا مجدداً الباص رقم ١٩ وتابعت نحو فندق سافوي.

سألت في مكتب الاستعـلامـات عن السيدة هاميلتون كليب. وعـرّفت عن نفسهـا بأنهـا مبعوثة من قبل وكالة سانت غيلدريك للتوظيف. كان الموظف على وشك انتشال سمّاعة الهاتف حين توقف ناظراً وقال:

- «ها هو السيد هاميلتون كليب».

كان السيـد هاميلتون كليب طويلاً جداً، نحيلاً جداً ذا شعر رمادي على الطريقة الأميركية. كان لطيف السيماء ويتكلم بهدوء وتأن.

عرّفت فيكتوريا بنفسها وذكرت اسم الوكالة التي أرسلتها.

لقد تأخرت يا آنسة جونز، من الأفضل أن تصعدي فوراً وتقابلي السيـدة كليب. فهي لما تزل في جناحنا. أقدّر أنها تقابل فتاة ما أخرى. وقد تكون غادرت الآن.

انعصر قلب فيكتـوريـا خوفاً بارداً وأخذت تتساءل: «هل من المعقول أن يكون الأمر قريباً وبعيداً الى هذا الحد؟».

استقلا المصعد الى الطبقة الثالثة.

بينما كانا يخترقان الرواق العميق المكسو بالسجاد، اندفعت امرأة شابة من باب عند نهايته وتقدمت نحوهما. أصاب فيكتوريا ما يشبه الهلوسة انها هي بالذات تلك الفتاة المنافسة لها. خطر لها أن ثوب تلك الشابة الأنيق والذي كانت تود لو كانت هي من يرتديه، كان ربمـا سبب ما حل بها. «ثم انه يناسب قياسي. إنها ترتدي

قيـاسي بالذات»، قالت في سرها ثم أردفت، «آه كم أود أن أنتزعه عنها». وكأنما تملكتها فجأة ردّة الى وحشية الأنثى البدائية.

تجاورتهما المرأة الشابة. كانت تعتمر قبعة مخملية على جهة من شعرها الجميل فتحجب قسماً من وجهها، لكن السيد هاميلتون استدار ونظر اليها وبدا مندهشاً.

- «يا للمصادفة»، مخاطباً نفسه، «ما كان يخطر هذا ببال! آنا شيل؟».

أضاف بعدها مبرراً:

- «عفواً يا آنسة جونز. كل ما في الأمر أني فوجئت برؤية امرأة شابة كنت شاهدتها في نيويورك منذ أسبوع فقط. انها سكرتيرة في أحد أضخم مصارفنا العالمية».

توقف عن الكلام عند أحد المداخل في الرواق. كان المفتاح داخل القفل. قرع السيد هاميلتون بخفّة ثم فتح الباب وتنحى جانباً مفسحاً لفيكتوريا كي تتقدمه الى داخل الغرفة.

كانت السيدة هاميلتون كليب مستريحة على كنبة ذات ظهر مرتفع إزاء النافذة، وهبّت واقفة عند دخولهما. كانت امرأة قصيرة، جسمها أشبه بجسم عصفور وذات عينين حادتين. كان ذراعها الأيمن مكسواً بالجص.

بعد أن قدمها السيد هاميلتون أجابت السيدة كليب: «يا لسوء الحظ!، ها قد كنّا في أوج رحلتنا، ونستمتع بإقامتنا في لندن وكل برامجنا جاهزة والحجوزات مؤكدة. أنا متوجهة لزيارة شقيقتي المتزوجة في العراق يا آنسة جونز. لم أشاهدها منذ سنتين تقريباً.

ما كنت أتصور البتة أن أسقط وأكسر يدي. في الواقع حدث ذلك في دير وستمينيستر. تدحرجت فوق درجات حجرية وها أنذا. نقلوني بسرعة الى المستشفى وعالجوني. الأمر برمته غير مريح البتة. ولكنه حصل. أشعر أني عاجزة، كيف سأتدبر أمري وأسافر. لا أعرف. لدى زوجي جورج ارتباطات عمل وليس بوسعه أن يغادر قبل ثلاثة أسابيع. أقترح عليّ أن أستعين بممرضة لمرافقتي. لكن الحقيقة أني لست بحاجة الى أي ممرضة ما إن أصل هناك، تستطيع شقيقتي سادي أن تقوم بكل ما هو متوجب، بما في ذلك دفع ثمن بطاقة العودة للممرّضة. وهكذا قررت الاتصال بوكالات التوظيف إن كان هناك أحد يرغب في مرافقتي من أجل السفر فقط».

ـ «لست ممرّضة تماماً» قالت فيكتوريا بطريقة توحي انها عملياً تمارس هذه المهنة: «لكن لدي خبرة جيدة في مجال التمريض. ثم قدمت شهادة التوصية الأولى قائلة: «كنت مرافقة لليدي سينتيا برادبوري لمدة سنة. وإن كنتم بحاجة الى تحرير بعض الرسائل أو عمل سكرتاري، في وسعي القيام بذلك، لقد عملت كسكرتيرة عند عمي لبضعة أشهر». وأضافت فيكتوريا بتواضع «عمّي هو اسقف لانغو».

ـ «هل حقاً عمك اسقف؟ رباه كم هذا رائع!».

خطر لفيكتوريا انها قد أعطت ولا بد، انطباعاً حسناً لدى السيد والسيدة كليب، (ولا بد أنهما سيوافقان بعد كل هذه المشقة التي بذلتها).

ناولت السيدة كليب شهادتي التوصية الى زوجها.

ـ «هذا رائع بالفعل» انبرت تقول بوقار، «انها العناية الإلهية. لقد استجيبت الصلوات».

وخطر لفيكتوريا أن هذا هو ما حدث بالفعل.

سألتها السيدة كليب: «هل تسافرين للالتحاق بوظيفة ما هناك؟ أم لزيارة قريب لك؟».

ابان اضطرابها الشديد في اختلاق شهادات التوصية، نسيت فيكتوريا كلياً انها قد تضطر الى تبرير نيتها في السفر الى بغداد. تحت وطأة المفاجأة كان عليها أن ترتجل سبباً وفي سرعة. وعاد الى ذهنها الفقرة التي كانت قرأتها في الأمس.

ـ «إني ذاهبة لألتحق بعمي هناك. انه الدكتور بانسفوت جونز».

ـ «حقاً؟ عالم الآثار؟».

ـ «أجل». وتساءلت فيكتوريا للحظة ما إذا كان من المناسب أن تذكر كل هذا العدد من الأعمام المتميزين. «أنا مهتمة جداً بعمله. لكني لا أملك بالتأكيد أية مؤهلات خاصة، لهذا كان من غير الممكن أبداً أن تدفع بعثة التنقيب تكاليف سفري؛ نفقاتهم محدودة. ولكن ان قدر لي السفر على حسابي الخاص، فسأستطيع عندها الانضمام اليهم وسأفعل ما بوسعي لمساعدتهم».

قالت السيدة كليب: «لا بد وانه عمل مثير للغاية. وبلاد ما بين النهرين هي بالتأكيد مكان عظيم لعلم الآثار.

انبرت فيكتوريا قائلة: «أخشى أن يكون عمي الأسقف في طريقه الآن الى اسكوتلندا. لكني أستطيع أن أعطيك رقم هاتف سكرتيرته. انها باقية في لندن. الرقم هو ٨٧٦٩٣ (بيمليكو) وهو أحد امتدادات

منطقة قصر فولهام. انها هناك في أي وقت بعد الساعة (ورمقت فيكتوريا ساعة الحائط في المقابل) ١١:٣٠. يمكنك ان أردت الاتصال بها والاستعلام عني».

ـ «ما الداعي. أنا واثقة...» بادرت السيدة كليب إلى القول، إلا أن زوجها قاطعها قائلاً:

ـ «ليس لدينا متسع من الوقت كما تعرفين. الطائرة ستغادر بعد غد. هل لديك جواز سفر يا آنسة جونز؟».

ـ «نعم». وشعرت فيكتوريا بالامتنان لرحلتها القصيرة الى فرنسا في العام المنصرم، لأن جواز سفرها لم يزل صالحاً. «لقد أحضرته معي في حقيبتي».

انبرى السيد كليب إلى القول في حماسة: «ممتاز، هذا ما ادعوه بالروح العملية». لو كان هناك اي منافس لها، لكان الآن مُني بالفشل. كانت التوصيات الجيدة، وأهمية أعمامها اضافة الى جواز سفرها الجاهز مواصفات أكثر من كافية لحسم الموقف.

قال السيد كليب: «سوف تحتاجين الى سمات دخول»، وتناول منها جواز السفر، «سوف أذهب الى صديقنا السيد بورجيون في «الأميركان اكسبريس»، وسوف يرتب كل شيء. من المفضل أن تعودي هذا المساء ربما هو بحاجة الى توقيعك».

وافقت فيكتوريا بطيبة خاطر.

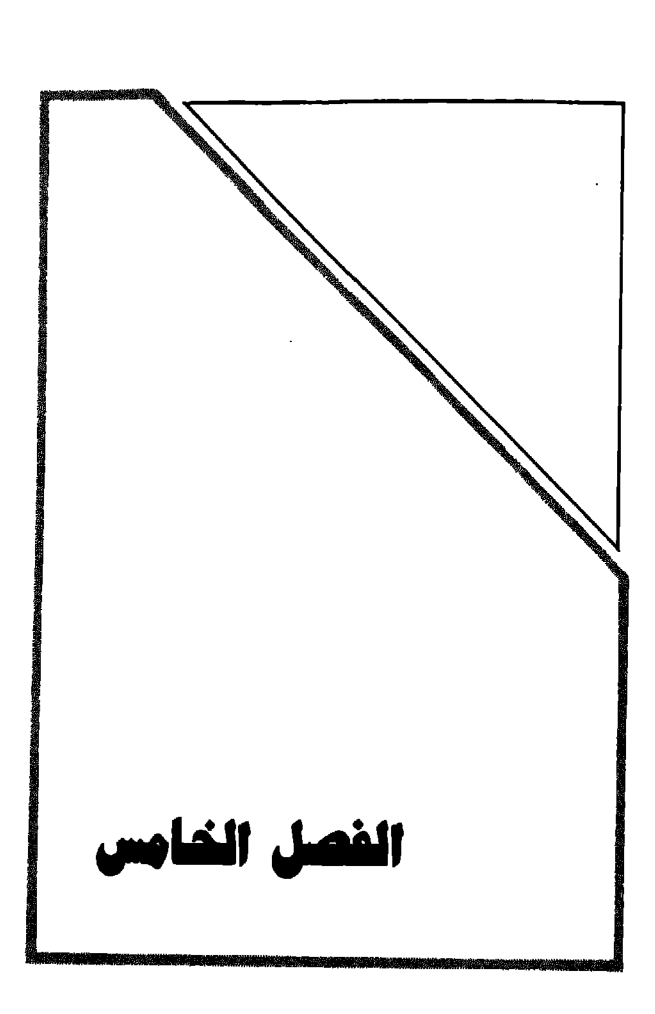
ما إن انغلق باب الغرفة وراءها حتى سمعت السيدة هاميلتون تقول لزوجها:

ـ «يا لها من فتاة مستقيمة. إننا، حقاً، محظوظان».

توردت فيكتوريا خجلاً وهي تسرع عائدة الى شقتها وتسمّرت قرب الهاتف تستعد للإجابة بلكنة راقية ورقيقة تليق بسكرتيرة أسقف ولتأكيد قدراتها في حال اتصلت السيدة كليب للاستعلام. إلا أن السيدة كليب كانت أخذت انطباعاً حسناً جداً بشأن استقامة شخصية فيكتوريا. ولهذا لم تكلف نفسها عناء القيام بهذه التقنيات. في النهاية كان ارتباطهما مع فيكتوريا لمدة أيام قليلة فقط كرفيقة سفر.

جرت الأمور كما كان مقرراً لها، أنجزت الأوراق المطلوبة وسمات الدخول التي تحتاجها. وكان على فيكتوريا أن تقضي الليلة الأخيرة في فندق سافوي لتساعد السيدة كليب على النهوض باكراً عند الساعة السابعة ومرافقتها الى مطار هيثرو.




الفصل الخامس



المـركب الذي كان قد غادر المستنقعات قبل يومين تقدم الآن بهدوء عبر شط العرب. كان التيار سريعاً وما كان على الرجل العجوز الذي كان يسيّره القيام بالشيء الكثير. كانت حركته لطيفة ومتواترة. كانت عيناه نصف منغلقتين. كان يهمهم مغنياً بنعومة أغنية عربية لا متناهية.

في مناسبات أخرى غير معدودة قطع عبدالسليمان أحد عرب المستنقع، النهر الى البصرة. هذه المرة كان هناك رجل آخر معه في المركب. كان ذا هيئة مألوفة هذه الأيام تخلط في زيّها بشكل شاذ بين الشرقي والغربي. فوق ثوبه الطويل من القطن المقلّم كان يرتدي سترة كاكية بالية، عتيقة مبقعة وممزقة. كان يضع أيضاً شالاً أحمر باهتاً حشره في معطفه المهلهل. غير أن رأسه أنقذ أخيراً شرف الرداء العربي: حيث كانت الكوفية وهي الزي التقليدي سوداء وبيضاء مشدودة في مكانها بواسطة عقال حريري. كانت عيناه غير المركزتين محملقتين وتنظران بضعف الى رصيف النهر. وفي الوقت نفسه بدأ هو أيضاً يهمهم الأغنية نفسها وبالوقع عينه. كان يشبه آلافاً من الوجوه الأخرى في منطقة بلاد ما بين النهرين. لم يكن هناك أبداً ما يدل على أنه انكليزي ويحمل معه سراً يجاهد رجال

مهمّون في كل بلدان العالم تقريباً من أجل اعتراضه وتدمير السر وحامله.

عاد بذهنه وأخذ يستعرض بغموض الأسابيع الأخيرة الماضية الكمين في الجبال، الصقيع الجليدي للثلج القادم عبر المعبر، قافلة الجمال. الأيام الأربعة التي قضاها مجاهداً بقدمين عاريتين عبر الصحراء برفقة رجلين يحملان آلة عرض سينمائي صغيرة. الأيام في الخيمة السوداء والتجوال مع قبيلة عنيزة، أصدقاؤه القدماء. كل هذا كان شاقاً ومحفوفاً بالمخاطر. وكذلك عمليات التسلل تباعاً وتكراراً عبر النطاق المضروب للإمساك به ومنعه من المتابعة.

كان يدعى هنـري كارمايكل وهو عميل بريطاني. عمره حوالى الثلاثين. شعره بنّي. عيناه سوداوان. طوله خمسة أقدام. يتكلم اللغات العربية، الكردية، الفارسية، الأرمنية، الهندوستانية، التركية وعدداً من لهجات الجبال. صديق لرجال القبائل. خطير.

ولد كارمايكل في كاشغر حيث كان والده موظفاً رسمياً من قبل الحكومة البريطانية. نطق منذ الطفولة عدة لهجات ولغات محلية. كانت مربياته من أصول عرقية مختلفة. وكان له أصدقاء في كل الأمكنة الغريبة في الشرق الأوسط.

كانت علاقاته شبه معدومة في المدن والعواصم. والآن وبينما كان يقترب من البصرة أيقن أن اللحظات الأشد خطورة في مهمته قد بدأت. أعاجلاً أم آجلاً سيدخل ولا بد المنطقة المتحضرة. على الرغم من أن بغداد كانت مقصد رحلته الوحيد، فقد كان قرر أنه لن يكون أبداً خياراً حكيماً التوجه اليها مباشرة. في كل بلدة عراقية كان يصلها كانت تنتظره التسهيلات التي كانت نوقشت وحضّرت

بعناية قبل أشهر عديدة. كان قد ترك له تقرير مكان توقفه حسبما يرتئي هو بالذات. لم يكن يبعث أي كلمة الى مرؤوسيه حتى عبر القنوات غير المباشرة حيث كان بوسعه أن يفعل. كان الأمر هكذا أكثر أماناً. الخطة السهلة ـ الطائرة التي كانت في انتظاره في موعد محدد ـ فشلت. كما كان يتوقع أن يحدث. استطاع الأعداء معرفة تاريخ الموعد. تسّرب معلومات! دائماً ذلك التسّرب القاتل، ذلك التسّرب المبهم.

وهكذا تضاعفت خشيته من الخطر. هنا في البصرة وسط المشهد الآمن استشعر، غريزياً، أن الخطر المحدق به قد يكون أعظم ما سيصادفه في رحلته الطائشة. ولم يكن في مقدوره مجرد التفكير بالفشل في هذه المرحلة الأخيرة.

محركاً مجذافيه بتواتر ايقاعي، كان العجوز العربي يهمهم من غير أن يدير رأسه:

ـ «لقد دنت اللحظة يا بني. فليباركك الرب».

ـ «لا تمكث طويلاً في المدينة يا والدي. عد الى المستنقعات. لا أريد أن يصيبك أي سوء».

ـ «هذه إرادة الله ومشيئته».

وردد الرجل الآخر: «إن شاء الله».

لبرهة تمنى فعلاً لو كان رجلاً شرقياً وليس ذا دم غربي. فلا يقلق بشأن احتمالات النجاح والفشل، ولا يحسب مراراً وتكراراً المصادفات، أو لا يسأل نفسه باستمرار إن كان خطط بذكاء، بل يضع كل المسؤوليات في يد الكليّ الرحمة، الكليّ الحكمة.

- «إن شاء الله سوف أنجح!».

حتى وهو يردد في دخيلته هذه الكلمات أحسّ بسكونية وقدرية هذه البلاد تغمرانه فرحاً.

الآن بعد بضع دقائق سوف يترك القارب ويمشي في شوارع المدينة بين الأقنعة والأعين الحادة. قد يتمكن من النجاة بطريقة واحدة فقط هي أن يشعر كعربي وأن يبدو مثله.

انعطف القارب في هدوء في مجرى المياه وفي اتجاه الميمنة في النهر. حيث كانت أوثقت كل أنواع القوارب النهرية، وكانت مراكب أخرى تدخل امامهما أو تلحق بهما. كان مشهداً محبباً وأشبه بمنظر البندقية. القوارب بمقدماتها المعقوفة وألوان طلائها الشاحب واللطيف. كان هناك مئات منها مربوطة ملتصقة ببعضها البعض.

سأل الرجل العجوز بكياسة:

- «لقد حانت الساعة. هناك ترتيبات بانتظارك أليس كذلك؟».

- «أجل. خططي جاهزة بالفعل. لقد آن الأوان لكي أغادر».

- «جعل الله طريقك آمنة وأطال عمرك».

شمّر كارمايكل قفطانه المقلم وعقده حول خصره وصعد الدرجات الحجرية الزلقة حتى الرصيف في الأعلى.

انتشر حوله أشخاص يوجدون عادة عند ضفتي النهر. صبية صغار، بائعو برتقال يتجولون بصوانيهم المكدسة بالبضاعة. مربعات حلوى ومربيات دبقة. صوانٍ عليها شرائط أحذية وأمشاط رخيصة وقطع من المطاط. كان رجال دين يعبرون وبين الوقت

والآخـر يبصقون بصوت أجش. يتجوّلون في الأرجاء وسبحاتهم تطقطق في أيديهم. في الجانب الآخر من الشارع حيث كانت المحال التجارية والمصارف، كان الشبان يسيرون بنشاط في بدلات أوروبية مشـوبـة بمسحـة أرجوانية. كان هناك أوروبيون أيضاً، انكليز وأجانب. أحد لم يهتم أو يتطلع بحشرية؛ لأنه لم يكن غير واحد مما يقارب الخمسين رجلاً عربياً نزلوا الى المرفأ من القوارب.

تقدم كارمايكل صامتاً وكانت عيناه تستوعبان المشهد في بهجة تشبه انشداه ولد عاد الى حيّه. بين حين وآخر كان يتنخّع ويبصق لكن ليس بعنف، كان يفعل هذا فقط ليمثل دوره خير تمثيل. تمخّط مرتين بواسطة أصابعه.

وهكذا وصل الغريب إلى المدينة. أدرك الجسر عند آخر القناة، فاجتازه، ثم عبر الى داخل السوق.

هنـاك كان الصخب والحـركـة عارمين. كان رجال أقوياء من القبـائـل يتجـولون في كافـة الاتجـاهات وهم يدفعون كل الذين اعترضوا سبيلهم. كانت الحمير تتجول محمّلة وكان الباعة يزعقون بأصوات خشنة: «بالك، بالك»... كان صبية يتعاركون، ويطلقون الصرخـات ويطاردون الأوروبيين منادين على أمل الحصول على المال: «بخشيش.. يا مدام.. بخشيش. مسكين. مسكين..».

هنا كان انتاجا الغرب والشرق يباعان جنباً الى جنب. قدور من الألومينيوم. كؤوس وأباريق شاي. أوانٍ نحاسية مزينة، وحلّي فضّية ساعات بخسة، أباريق خزفية مطلية. مطرزات وسجادات مقطّعة من إيران. صناديق مطليّة بالنحاس الأصفر من الكويت. معاطف و«بنـطلونـات» مستعملة. ستـرات من الصوف المحبوك للأطفال.

اغطية للفراش من صنع محلي. مصابيح زجاجية ملوّنة. أكداس من أوعيـة المـاء المصنـوعـة من الطين وقدور فخارية. كل البضاعة البخسة من الحضارة الى جانب منتوجات محلية بدائية.

كان كل شيء طبيعيـاً وكالمعتاد. بعد رحلته المديدة في الأماكن البريّة بدا الازدحام والفوضى غريبين عليه بعض الشيء، لكنه شعر أن كل شيء كان كما هو معهود، وكذلك لم يسمع أي صوت نافر، ولا اشارة الى أن أحداً ينتبه لوجوده. لكن بالحدس الذي يمتلكه عرف جيداً ولمدة سنوات ماذا يعني أن يكون مطارداً، أحس بضيق لا بل باحساس غريب بالخطر. رغم أنه لم يكن قادراً على تبيّن أي امر يثير الشبهة. لم يتطلّع اليه أحد. كان تقريباً واثقاً أن أحداً لم يكن يطارده أو يراقبه. لكنه شعر واثقاً بخطر محدق ومبهم.

تحوّل صعوداً في منعطف ضيق مظلم، ومجدداً الى اليمين ثم الى اليسار. اخيراً من بين مجموعات أكشاك صغيرة أطل على مدخل خان ثم تدرّج وعبر المدخل الى الباحة، التي تحيط بها الباحة من كل جانب متاجر مختلفة. توجه كارمايكل نحو أحدها حيث كانت معلقة بعض الفروات وهي معاطف من جلود خراف الشمال. وقف هناك متفحصاً إياها في انتباه. كان صاحب المتجر يقدّم القهوة الى زبون. وكان الزبون رجلاً طويلاً ملتحياً ولافتاً. حول طربوشه التفّ شريط أخضر يدلّ على أنه حاجّ كان قد توجه الى مكة المكرّمة.

وقف كارمايكل يتفحّص باصبعه الفروة.

سأل: «كم ثمنها؟».

ـ «سبعة دنانير».

ـ «كثير».

قال الحاج: «هل ستقوم بتسليم السجادات في الخان؟».

رد التاجر «من دون أدنى تأخير. هل ستنطلق غداً عند الفجر الى كربلاء؟».

انبرى كارمايكل يقول: «أنا من كربلاء. آخر مرة رأيت قبر الحسين كانت منذ خمس عشرة سنة».

قال الحاج: «إنها مدينة مقدسة».

قال البائع من غير أن يستدير مكلماً كارمايكل: «هناك فروات أرخص ثمناً داخل المتجر».

- «فروة بيضاء من الشمال، هذا هو مرادي».

أشار البائع الى باب يقع في الجدار الخلفي من المتجر.

تمت الشعائر حسبما خطط سابقاً - حوار يشبه أي حوار يوميّ في أي سوق. كان التسلسل دقيقاً. كل الكلمات المفاتيح: كربلاء - الفروة البيضاء...

إلا أن كارمايكل وهو يعبر المتجر ليدخل الغرفة الداخلية نظر الى وجه البائع وأيقن على الفور أنه ليس ذاك الذي توقع رؤيته. وعلى الرغم من أنه لم يكن رأى ذاك الرجل، المتوقعة رؤيته، بالتحديد غير مرة واحدة من قبل، كان هناك شبه قريب جداً بينهما: غير أنه لم يكن الرجل نفسه.

توقف قائلاً بنبرة تشوبها مفاجأة فاترة: «اين هو إذن صلاح حسّان؟».

- «كان شقيقي. لقد مات منذ ثلاثة أيام. لقد توليت أنا أعماله».

أجل قد يكون هذا شقيقه فالشبه كان قريباً جداً. وكان يعقل أن

تكـون المخـابـرات قد استخـدمتـه. كانت ردات فعله بالتـأكيد صـحيحـة. على أيـة حال دخل كارمايكل الغرفة الداخلية المعتمة بحـذر متعاظم. هناك أيضاً كانت البضاعة مكدسة على الرفوف. أبـاريق لتحضـير القهوة ومطارق من النحاس الأبيض والأصفر لطحن السكر. أوانٍ فضية إيرانية قديمة، كدسات من المطرزات، صوانٍ مطلية من الشام وطقوم فناجين قهوة.

كانت فروة بيضـاء مطوية بعناية موضوعة على طاولة صغيرة. توجه كارمايكل نحوها وانتشلها. كان وضع تحتها مجموعة ملابس أوروبيـة. بدلة عمل مستعملة ومبهرجة بعض الشيء. في الجيب الداخلي حشرت محفظة ومال وأوراق ثبوتية.. الرجل العربي الغريب الذي دخل المتجر سوف يخرج حاملاً اسم السيد والتر وليامس الموظف في شركة السادة كروس وشركاهم وكلاء الاستيراد والشحن البحري. إضافة الى هذا كانت حددت له مقدماً مجموعة مواعيد ضرورية. لم يكن السيد والتر وليامس شخصية مبتكرة. كان هناك في الواقع رجل حقيقي يحمل الاسم نفسه، (كانوا دقيقين الى هذه الدرجة) ولهذا الرجل ماضٍ تجاري محترم. تنهد كارمايكل بارتياح وراح يفك أزرار سترته العسكرية الرثّة. كان كل شيء على ما يرام.

لو كانوا اختاروا مسدساً ليستخدمه كارمايكل في مهمته لكانت فشلت ولا بد في مرحلة ما. فللخنجر أفضليات قد يكون أهمها الصمت.

على الرف قبـالة كارمايكل برز ابريق قهوة نحاسي وكان جرى تلميع ذلك الإبريق بناء لطلب سائح أميركي سوف يعود لابتياعه. انعكس بريق الخنجـر على تلك الصفحة المصقولة اللمّاعة. ظهر

المشهد بكامله لكن بصورة مشوّهة. فقد اندفع الرجل المنسل من بين البضاعة المعلّقة خلف كارمايكل وهو يستل خنجره من ثنايا ثوبه. كانت تكفي دقيقة واحدة كي ينغرز الخنجر في ظهر كارمايكل.

استدار كارمايكل بسرعة البرق، وعالج الرجل بضربة أسقطته أرضاً. طار الخنجر عبر الغرفة. حرر كارمايكل نفسه في سرعة، وثب فوق جسم الرجل وهرول مخترقاً الغرفة الخارجية. ملقياً نظرة خاطفة لمحت وجه البائع المذهول والحاقد. ثم أصبح خارجاً، عبر الخان وأدرك من جديد السوق المزدحمة. انعطف بعدها متحولاً الى الشارع الأول، ثم آخر. إنه يمشي الآن متمهلاً من غير ان يظهر أي علامة استعجال في بلاد يعتبر فيها السير في سرعة امراً غير طبيعي.

كان يمشي تقريباً من دون هدف، يتوقف أحياناً لتفحّص شيء ما، ليتحسس تركيباً ما، كان عقله يعمل في نشاط عنيف. لقد تعطلت آلية كل المخطط؛ ومرة جديدة وجد نفسه أعزل في مدينة معادية. كان يدرك تماماً معنى ما جرى ولم يكن مرتاحاً لذلك. لم يكن عليه أن يخشى فقط مطارديه من أعدائه. ولم يكن الأمر مجرد أعداء يحرسون مداخل المدينة. كان عليه أن يخشى أعداء من داخل جهاز المخابرات نفسه. لقد انكشفت كلمة السر الآن وأتت ردة الفعل مدروسة ودقيقة. وتم توقيت الهجوم تماماً في اللحظة التي أخذ يشعر فيها بالاطمئنان ولا عجب في ذلك. لا بل ربما تكون هناك خيانة من الداخل. فقد سعى العدو دائماً الى تسريب عميل أو أكثر داخل الجهاز نفسه. أو ربما تمت رشوة الرجل الذي يحتاجون اليه. ان رشوة رجل ما هي امر أسهل بكثير مما نعتقد. يمكن الرشوة بأشياء كثيرة غير المال.

على أية حال لا يهم كيف انكشف المخطط. ها قد حصل. كان فاراً لا شيء يعتمد عليه سوى وسائله الخاصة. من غير مال، ومن غير مساعدة جديدة مزيّفة. قد يكون مطارداً في هذه الدقيقة بالذات.

لم يلتفت. ما الفائدة؟ لم يكن مطاردوه مجرد مبتدئين في اللعبة.

في هدوء ومن غير هدف تابع يتمشى. خلافاً لتصّرفه الكسول كان يراجع في دخيلتـه احتمالات مختلفة. غادر أخيراً السوق وقطع الجسر الصغير فوق القناة. تابع يمشي حتى رأى فتحة كبيرة مطليّة فوق مدخل كتبت فوقه عبارة: القنصلية البريطانية.

نظر الى أعلى وأسفل الشارع. لم يظهر أن أحداً أعاره أدنى اهتمام. بدا له أن شيئاً لم يكن أسهل من الدخول الى القنصلية البـريطانية. توارد ذلك إلى ذهنه لحظة مشاهدته مصيدة فئران. مصيدة فئران مشّرعة وفيها قطعة الجبن المغرية. كان ذلك المشهد سهلاً وبسيطاً جداً في نظر الفأر...

على أية حال كان لا بد من المجازفة. لم يكن يرى حلاً آخر.

تقدم ودخل عبر الباب.

الفصل السادس



جلس ريتشارد بايكر في المكتب الخارجي للقنصلية البريطانية في انتظار أن يصبح القنصل قادراً على استقباله.

كان وصل إلى المرفأ ذلك الصباح على متن الباخرة «إنديان كوين» ومر بحقائبه عبر الجمارك. وكان معظمها يضم كتباً تتناثر وبينها بيجامته وقمصانه وكأنما وضعت في آخر لحظة.

كانت الباخرة «إنديان كوين» وصلت من غير تأخير. وهكذا كسب ريتشارد يومين اضافيين، إذ انه كان توقع أن يتأخر وصوله يومين. وكانت البواخر الصغيرة على شاكلة «الانديان كوين» تتأخر عادة. أمامه الآن يومان إضافيان قبل أن يتابع الى بغداد وبالتحديد الى «تل أسود» التي هي هدف رحلته الوحيد وموقع مدينة «مورق» القديمة.

كان البرنامج الذي وضعه لهذين اليومين جاهزاً. زيارة هضبة مشهورة بآثارها القديمة في موقع قرب شاطىء الكويت. كانت هذه فرصة منحتها له السماء ليكتشف تلك الهضبة.

توجه في سيارة اجرة الى فندق المطار واستفهم عن طرق الذهاب الى الكويت. علم أن طائرة سوف تنطلق متوجهة الى الكويت عند

الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي. كان كل شيء بمنتهى السهولة. بالطبع كان يتوجب القيام بالاجراءات الضرورية، مثل سمة الخروج، وأيضاً سمة الدخول الى الكويت. لانجاز هذا كان يتوجب عليه التوجه الى القنصلية البريطانية. كان ريتشارد التقى منذ عدة سنوات القنصل العام الحالي لمدينة البصرة السيد كلايتون في إيران. فكر ريتشارد أنه سيكون أمراً طيباً أن يلتقيه مجدداً.

كان للقنصليـة مداخل عدة. مدخل أساسي للسيارات. مدخل صغير آخر يمتد من الحديقة الى الطريق الموازية لشط العرب. أما مدخل المراجعات الخاصة فكان على الطريق الرئيسة. دخل ريتشارد وأبرز بطاقته الى الموظف المسؤول، فأفاده أن القنصل مشغول في الوقت الحاضر وسيستقبله بعد وقت قليل. كان عليه أن يتوجه الى غرفة انتظار صغيرة عند يسار المر الممتد بين المدخل والحديقة في الأعلى.

كان هناك مجموعة أشخاص ينتظرون أيضاً في الغرفة وبالكاد ألقى ريتشارد نظرة اليهم. لم يكن بأية حال مهتماً بأعضاء الجنس البشري. كانت قطعة من إناء أثري عتيق أكثر إثارة لديه من مجرد إنسان مولود في مكان ما في القرن العشرين.

راح يفكر هانئاً بتفاصيل تتعلق بحروف الـ «ماري»، وتنقلات قبائل «البنجامينيت» في عام ١٧٥٠ قبل الميلاد.

كان من الصعب بالتأكيد تفسير ما أيقظ فيه حسّ الحاضر الحيّ بأقرانه البشر. شعر أولاً بضيق، بتوتر مخيّم. توجّس ذلك وكأنما عبر أنفه، لم يكن متأكداً. ولم يكن بوسعه تشخيص ذلك في

تعابير واضحة. لكن الشعور الغريب هذا كان موجوداً، لا مجال للخطأ وقد عاد به الى الماضي الى أيام في الحرب العالمية الأخيرة. تذكر حادثة معينة حين هبط هو وأربعة رفاق بالمظلات فوق سهل. ثم انتظروا طوال ساعات الفجر الوقت المناسب للقيام بمهمتهم. كانوا محبطين إذ أدركوا بوضوح خطورة ما قد يتعرضون له من مصادفات. كانت فترة الانتظار تلك مرعبة، فترة يتقلّص فيها لحم الإنسان. شعر الآن باللّسعة القارصة نفسها، برائحة الهواء المبهمة تلك.

رائحة الموت...

انطبع هذا الشعور لدقائق في لاوعيه. كان نصف عقله لا يزال مأخوذاً بحقبة ما قبل الميلاد. غير أن نداء الحاضر كان أقوى بكثير.

كان أحد ما في الغرفة يعيش رعباً قاتلاً...

جال نظره حوله. كان هناك رجل عربي يرتدي سترة كاكية بالية وكانت أصابعه تنزلق بكسل على السبحة الكهرمانية التي امسكها ـ كان هناك أيضاً رجل انكليزي بدين بشاربين رماديين. كان تاجراً على ما يبدو وكان يسجل أرقاماً على دفتر صغير وبدا مأخوذاً وجدياً. رجل آخر هزيل ذو وجه متعب، أسمر البشرة، تهالك بارتياح على مقعده. بدا وجهه هادئاً وغير مهتم. رجل آخر بدا وكأنه موظف عراقي. كان هناك أيضاً عجوز إيراني يرتدي ثوباً أبيض. بدوا جميعهم غير مهتمين.

بعثت طقطقات السبحة إيقاعاً متشابهاً. وبدت في طريقة ما مألوفة. حوّل ريتشارد كل انتباهه الى الصوت. فقد كان على وشك

أن يغفو. كان الايقاع قصيراً ـ طويلاً ـ طويلاً ـ قصيراً ـ كانت هذه رموز نظام مورس ـ شارات نظام مورس بالتأكيد. كان يألف طريقة المورس لأن قسماً من وظيفته إبان الحرب كان يتعلق بسلاح الاشارة. وفي مقدوره قراءة الاشارات بسهولة تامة، أ ـ و ـ ي ـ ل ـ ف ـ ل ـ و ـ ر ـ ي ـ أ ـ ت ـ أ ـ ي ـ ت ـ و ـ ن ـ أ. يا للشيطان! أجل. هذه هي الرسالة. كان يتردد تباعاً فلوريات إيتونا. شيفرة كان يقرعها (أو بالأحرى يطقطقها) عربيّ في ثياب بالية. ماذا يعني هذا؟ أويل. إيتون. أويل.

كان إيتون لقبه هو في مدرسة إيتون ـ لّما أرسل الى هناك بنظّارتين عريضتين وغريبتين.

حدق الى الجانب الآخر في الغرفة في الرجل العربي، متبيناً كل تفاصيل في هيئته: الثوب المقلّم ـ السترة الكاكية القديمة ـ الشال الرث، الأحمر المشغول باليد، والمليء بالقطب المحلولة. كان يبدو كأي واحد من المئات الذين تشاهدهم عند رصيف المرفأ. تلاقت أعينهما من غير أدنى تعبير ولا علامة تدل على معرفة سابقة. غير أن خرزات السبحة تابعت الطقطقة.

فقير هنا. ساعدوه. مأزق.

فقير؟ فقير؟ أجل بالطبع! الفقير كارمايكل! انه طفل ولد وعاش في منطقة نائية من العالم: تركستان، أو أفغانستان؟

انتشل ريتشارد غليونه. أخذ منه نفساً عميقاً مجرباً إياه. حدق في تجويفه ثم طرقه على منفضة مجاورة: «تلقينا الرسالة».

بعد ذلك جرت الأحداث بسرعة فائقة. ولاحقاً وجد ريتشارد صعوبة في تبين ما جرى.

وقف الرجل العربي وقطع الغرفة نحو الباب. تعثّر وهو يمر أمام ريتشارد فمدّ يده وتعلّق به ليحافظ على توازنه. تحامل بعدها، اعتذر وتابع باتجاه الباب.

ما حدث كان مباغتاً وسريعاً جداً وخيل لريتشارد انه مشهد من فيلم سينمائي أكثر مما هو حقيقة واقعة. رمى التاجر البدين دفتر ملاحظاته وغرز يده في جيب معطفه بحثاً عن شيء ما. تأخر ثانية أو اثنتين بسبب بدانته وضيق معطفه وهذا كان كافياً كي يتدخل ريتشارد. انتشل الرجل مسدسه. انقض ريتشارد، وانتزعه من يده. انطلقت الرصاصة لتنتهي مدفونة في أرض الغرفة.

كان الرجل العربي قطع آنذاك باب الغرفة ثم تحوّل نحو مكتب القنصل. لكنه توقف لحظة ليلّتف راكضاً بخفة في الاتجاه المعاكس نحو المدخل وإلى ازدحام السوق مجدداً.

عجّل حارس القنصلية الى حيث وقف ريتشارد ممسكاً بذراع الرجل الضخم. في هذا الوقت كان الموظف العراقي يقفز مثاراً، بينما حدق الرجل الأسمر النحيل بانشداه، وحملق الايراني العجوز في الفضاء من غير انفعال.

قال ريتشارد:

ـ «بحق الشيطان ماذا تفعل ملوّحاً بمسدس بهذا الشكل؟».

حلّ الصمت لدقيقة ثم انبرى الرجل البدين بلكنة سوقية:

ـ «عذراً أيها العجوز. انه مجرد حادث. لقد كنت أخرق».

ـ «هراء. كنت ستطلق النار على ذلك الرجل العربي الذي فرّ للتو».

ـ «لا. لا أيها الرجل العجوز. لم أنو أن أطلق النار عليه. وددت فقط أن أفزعه. لقد تعرّفت عليه فقد غشّني مرة وباعني آنية أثرية مزيفة. كان هذا في سبيل المزاح فقط».

كان ريتشارد بايكر رجلاً منطوياً يكره الإعلام. أملى عليه حدسه تقبّل التفسير كما هو. في النهاية لم يكن في وسعه إثبات أي شيء. وهل ستكون مكافأته أغنية ورقصة سيقوم بهما من أجله الفقير كارمايكل. وربما كان الأمر يتعلق بمهمة سريّة أو تجسسية فلا رقصة ولا أغنية.

أرخى ريتشارد قبضته عن ذراع الرجل. ولاحظ أن هذا الأخير كان يتصبب عرقاً.

كان حارس القنصلية يتكلم في حماس قائلاً ان ادخال أسلحة الى القنصلية البريطانية هو تصرف سيىء جداً. لم يكن هذا مسموحاً. سوف يغضب القنصل كثيراً.

قال الرجل البدين: «أنا أعتذر. انه حادث بسيط ليس إلّا». ثم حشر بعض المال في يد الحارس الذي رفضه ساخطاً.

انبرى الرجل البدين يقول: «من الأفضل أن أرحل. لن أنتظر لأقابل القنصل». ثم ناول ريتشارد بطاقة صغيرة. «هذه بطاقتي أنا أقيم في فندق المطار إن استجد أي شيء، غير انه كان في الواقع مجرد حادث. مجرد مزحة إن فهمت ما أعني».

راقبه ريتشارد على مضض وهو يبتعد مختالاً ثم ينعطف نحوالشارع في الخارج.

تمنى أن يكون تصّرف بشكل جيد. كان من الصعب على الفرد

التصرف حين تكون الأمور غامضة الى هذا الحد.

انبرى الحارس قائلاً: «في مقدور السيد كلايتون استقبالك الآن».

تبع ريتشارد الحارس عبر الرواق. وبدت فتحة ضوء الشمس أكثر اتساعاً. كان مكتب القنصل الى اليمين عند نهاية الرواق.

كان السيد كلايتون جالساً وراء مكتبه. كان رجلاً هادئاً أشيب الشعر وبدا منشغل البال:

ـ «لا أعرف إن كنت تذكرني؟»، وأردف ريتشارد، «لقد التقينا في طهران منذ عامين».

ـ «بالطبع، كنت مع الدكتور باونسفوت جونز. أليس كذلك؟ هل ستلحق به أيضاً هذه السنة؟».

ـ «أجل أنا في طريقي اليه الآن، لكن لدي بضعة أيام قبل ذلك وأود أن أزور الكويت. هل في الأمر صعوبة ما؟».

ـ «آه لا. هناك طائرة ستنطلق غداً صباحاً. الرحلة تستغرق ساعة ونصف الساعة. سأبعث برقية الى آرشي غاونت ـ إنه مقيم هناك. سوف يستقبلك. ويمكنك أن تمكث هنا هذه الليلة».

اعترض ريتشارد في لطف:

ـ «في الواقع لا أريد ازعاجكما: أنت والسيدة كلايتون. في مقدوري التوجه الى فندق ما».

ـ «لن تجد غرفة شاغرة في فندق المطار. أعرف أن زوجتي ستفرح برؤيتك من جديد. دعني أر. لدينا الآن ضيفان هما السيد كروسبي من شركة النفط وشاب قريب للدكتور راسبون يعمل على

تخليص حقائب كتب من الجمارك. تعال نصعد ونر روزا».

نهض ورافق ريتشـارد ليخـرجـا معاً ويعبرا حديقة مشمسة. صعدا بضع درجات وأدركا مسكن القنصل.

دفع جيرالد كلايتون الباب السلكي الواقي عند قمة الدرجات وقاد ضيفه الى داخل رواق طويل معتم مكسو ببسط جذّابة وقطع مختارة من الأثاث على الجانبين. كان أمراً مبهجاً الدخول الى هذه العتمة الباردة بعد وهج الحر في الخارج.

هتف كلايتـون: «روزا، روزا» فأطلت السيـدة كلايتون التي عرفها ريتشارد امرأة مرحة ذات حيوية خارقة.

ـ «هـل تذكـرين ريتشـارد بايكـر يا عزيزتي؟ لقد زارنا بمعية الدكتور باونسفوت في طهران».

ـ «بكل تأكيد»، ردت السيدة كلايتون مصافحة، «لقد ذهبنا معاً الى الأسواق وابتعت سجادات رائعة».

كانت السيـدة كلايتـون تجد متعة كبيرة في اقناع أصدقائها ومعارفها بابتياع ما كانت تعتبره صفقات تجارية من السوق المحلي، ولو لم تكن هي من يشتري. فقد كان لديها المام عظيم بالبضاعة القيمة وكانت تحرز صفقات ممتازة.

رد ريتشارد: «كانت تلك أفضل المشتريات التي قمت بها، أنا شاكر جداً لنصائحك».

بادر السيد كلايتون قائلاً: «يريد السيد بايكر السفر الى الكويت غداً. لقد قلت له إنه في وسعنا استقباله هذه الليلة».

انبرى ريتشارد قائلاً: «إن لم يكن هناك أي ازعاج..».

قالت السيدة كلايتون: «بالطبع ليس هناك أي ازعاج. لن تستطيع الحصول على أفضل غرف الضيوف، لأن الكابتن كروسبي يحتلّها الآن. لكن في وسعنا أن نؤمن لك اقامة مريحة بمطلق الأحوال. الن تقوم بشراء صندوق كويتي مزخرف؟ لديهم أشياء جميلة في السوق الآن. جيرالد يمنعني من شراء واحد إضافي على الرغم من أنه سيكون مفيداً جداً لاستيعاب البطانيات الاضافية».

قال السيد كلايتون في هدوء: «إن لديك ثلاثة حتى الآن. الآن ينبغي أن أعود الى المكتب إن كنت تسمح يا سيد بايكر. يبدو أن هناك مشكلة ما في المكتب الخارجي. لقد أطلق أحدهم الرصاص من مسدس، كما فهمت».

انبرت السيدة كلايتون قائلة: «لا بد انه أحد الشيوخ المحليين. انهم عصبيون للغاية ويعشقون الأسلحة النارية».

قال ريتشارد: «على العكس، لقد كان رجلاً انكليزياً. كان ينوي كما ظهر لي اطلاق النار على رجل عربي». وأضاف في لطافة، «لقد لويت له ذراعه».

قال السيد كلايتون: «لقد شهدت إذن كل ما جرى. لم أعرف أبداً».

ثم انتشل بطاقة من جيبه وقرأ، «روبرت هول. أشغال أخيل في آنفيلد. يبدو أن هذا هو اسمه. لا أعرف لماذا رغب في رؤيتي. هل كان سكران؟».

قال ريتشارد ممتعضاً: «ادعى أن الأمر مجرد مزح، وأن الرصاصة انطلقت صدفة».

رفع كلايتون حاجبيه وقال:

ـ «التجار لا يحملون عادة مسدسات محشوّة في جيوبهم».

فكر ريتشارد بأن كلايتون لم يكن أبداً ساذجاً.

ـ «ربما كان يتوجب عليّ أن أمنعه من المغادرة».

ـ «لا يعرف الواحد عموماً ماذا ينبغي أن يفعل في ظروف مماثلة. ألم يصب الرجل الذي أطلقت عليه النار؟».

ـ «لا».

ـ «ربما من الأفضل إذاً أن نتناسى الأمر».

ـ «أتساءل ماذا كان وراء ذلك».

ـ «أجل، أجل... أنا أتساءل أيضاً».

بدا كلايتون شارد الذهن قليلاً.

ـ «حسناً ينبغي أن أنطلق عائداً» تمتم هذا وعجّل مغادراً.

قادت السيدة كلايتون ريتشارد الى قاعة الجلوس، وكانت غرفة داخلية زيّنت بوسائد وستائر خضراء اللون. وخيّرته بين شرب القهوة أو الجعة. اختار الجعة فأحضرتها له مثلجة لذيذة.

سألته عن هدف زيارته للكويت، فأخبرها.

سألته بعدها لماذا لم يتزوج بعد، وردّ ريتشارد انه ليس من النوع الصالح للحياة الزوجية. وهنا انبرت السيدة كلايتون في حدّة: «هذا هراء. إن علماء الآثار يصبحون عموماً أزواجاً ممتازين. هل ستشارك هذه السنة أيضاً فتيات في التنقيب عن الآثار؟».

«واحدة أو اثنتان»، أجاب ريتشارد، «وبالتأكيد السيدة باونسفوت جونز».

ثم سألت السيدة كلايتون آملة ان كانت الفتاتان القادمتان لطيفتين. وأجاب ريتشارد انه لا يعرف كونه لم يلتقهما من قبل. وأضاف ان ليس لديهما أدنى خبرة.

لسبب ما جعل كلامه الأخير هذا، السيدة كلايتون تضحك.

دخل بعدئذ رجل قصير قوي البنية وفظ السلوك. عُرّف عنه بأنه الكابتن كروسبي. «انه السيد بايكر»، وأردفت السيدة كلايتون، «كان عالم آثار واكتشف أشياء غريبة ومهمة جداً عمرها آلاف السنين». وقاطعها الكابتن كروسبي قائلاً انه لم يستطع أن يفهم البتة كيف أن في وسع علماء الآثار تحديد عمر معيّن لمكتشفاتهم. وأضاف: «كنت أفكر دائماً أنهم ولا بد دجّالون مقيتون»: وقهقه الكابتن: «ها ها». رمقه ريتشارد في طريقة متعبة. وأضاف الكابتن: «قل لي كيف السبيل الى أن يحدد عالم الآثار مدى قدم الأشياء؟». أجابه ريتشارد ان هذا يتوجب شرحاً طويلاً. واصطحبته السيدة كلايتون في سرعة كي يرى غرفته.

قالت السيدة كلايتون: «انه شخص لطيف، لكن الى حدود ما. أنت تفهمني. لا علاقة له أبداً بالثقافة».

وجد ريتشارد غرفته مريحة الى أقصى الحدود. وشعر ان تقديره للسيدة كلايتون كمضيفة قد تضاعف. متحسساً جوف جيب معطفه عثر على ورقة فأخرجها ووجدها وسخة ومطوية. نظر اليها في دهشة لأنه كان متأكداً انها لم تكن هناك في الصباح.

تذكر كيف أن الرجل العربي تعلّق به حين تعثّر. كان في مقدور رجل رشيق الأصابع أن يدس هذه الورقة في جيبه من غير أن ينتبه.

فضّ الورقة. كانت متّسخة وبدت وكأنها فضّت وطويت مرات عديدة قبل ذلك.

في الأسطر الستة المكتوبة بخط يد رديء ما فحواه أن الميجور جون ويلبر فورس أوصى بعامل يدعى أحمد محمد شارحاً انه عامل اختصاصي وقدير. يستطيع قيادة شاحنة وانجاز تصليحات بدائية. عامل أهل للثقة. كان كل ذلك في الواقع رسالة من النوع العادي ولا تختلف أبداً عن تلك التوصيات الحمقاء المستخدمة في الشرق. كان تاريخها يعود الى ١٨ شهراً وهذا لم يكن أيضاً غير اعتيادي إذ ان أصحاب هذه التفاهات يحتفظون بها بعناية فائقة.

تجهم ريتشارد وراح يراجع في فكره أحداث الصباح بترتيب دقيق وبالطريقة التي اعتادها.

انه واثق جيداً الآن من أن الفقير كارمايكل كان خائفاً على حياته. كان رجلاً مطارداً احتمى في القنصلية. لماذا؟ ألكي يجد الأمان؟ لكن عوضاً عن هذا تعرض على الفور للخطر. كان العدو أو عميلٌ له في انتظاره. ذاك التاجر السمين كان أعطي ولا بد أوامر مشددة، كي يخاطر ويقوم باطلاق النار على كارمايكل داخل القنصلية وفي حضور شهود عيان. لا بد وأن الأمر كان ملحاً للغاية. كارمايكل استغاث بصديق الدراسة القديم للمساعدة، واستطاع تمرير هذه الورقة الصغيرة اليه. لا بد إذاً أن الورقة أو الوثيقة فائقة الأهمية. ولو استطاع أعداء كارمايكل القبض عليه ووجدوا انها لم تعد بحوزته فلسوف يقومون من دون أدنى ريب

بتحليل كل ما جرى وسيبحثون عن أي شخص أو أشخاص كان يستطيع كارمايكل تمريرها اليهم.

ماذا كان في وسع ريتشارد بايكر أن يفعل بها؟

في مقدوره تمريرها الى كلايتون. كونه ممثل الامبراطورية البريطانية.

أو ربما يستطيع الاحتفاظ بها الى أن يعود كارمايكل لاسترجاعها؟

بعد تأمل قليل قرر تبني الاختيار الثاني. ولكن ينبغي أولاً اتخاذ بعض الاحتياطات.

اقتطع ورقة بيضاء صغيرة من رسالة قديمة، وقعد يحاول اكتشاف مرجع آخر لتعبير «سائق شاحنة» ولكن بخربطة الأحرف. هذه الرسالة احتوت شيفرة معينة تدل الى هذا. إضافة طبعاً الى امكانية وجود رسالة مكتوبة عليها بحبر خفيّ.

مسح رسالته المزيّفة بغبار مسحه عن حذائه. ثم فركها بيديه. طواها ثم طواها مجدداً الى أن أعطت انطباعاً يوحي بالقدم والاتساخ.

ثم جعّدها ودسها في جيبه. حدّق بعدها دقائق في الوثيقة الأصلية بينما كان يستنبط ويستبعد عدة احتمالات لاخفائها.

في النهاية ابتسم في نعومة وبدأ يطوي تكراراً الوثيقة الى أن أضحت مستطيلاً صغيراً. ثم انتشل من حقيبته اصبعاً من مادة بلاستيستين (مادة لدائنية تشبه الطين تستعمل لتعليم الصغار صنع الأشكال المختلفة)، لم يكن يسافر من دونها أبداً. لفّ أولاً

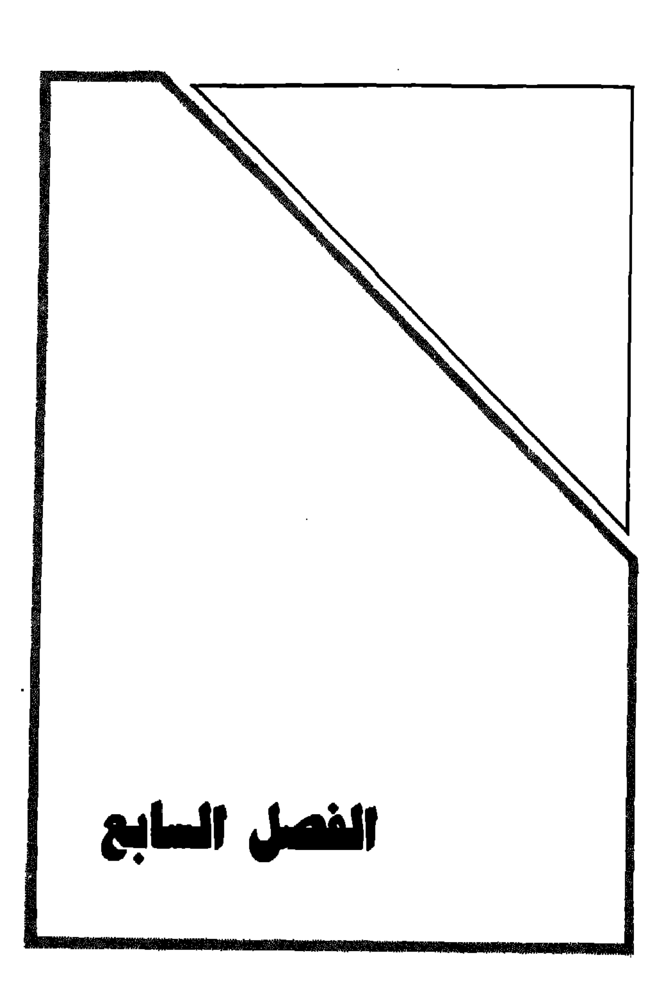
وثيقته بورق مشمّع ثم وضعها داخل اصبع البلاستيستين. حين انتهى جعل يرقق ويطرق الإصبع الى أن أصبح أملس الصفحة. على هذه الصفحة الملساء طبع رسماً من أسطوانة طابعة كان يحملها.

تفحص النتيجة في إعجاب متجهماً.

ظهر رسم محفور بروعة لالهة الشمس، شمس يحمل بيده سيف العدالة.

ـ «لنتمنَّ أن يكون هذا فألاً حسناً» ردد في أعماقه.

تلك العشية حين فتش في جيب المعطف الذي كان يرتديه ذاك الصباح لم يعثر على الورقة المجعدة. كانت اختفت.


الفصل السابع



ها هي الحياة، فكرت فيكتوريا، ها هي الحياة أخيراً، جالسة في مقعدها في قاعة انتظار «إيرواي ترمبنال»، وقد حانت اللحظة السحرية لتسمع «يرجى من جميع المسافرين الى القاهرة، بغداد وطهران التوجه نحو قاعة الذهاب».

أسماء سحرية، كلمات سحرية. لكن هذه الكلمات كانت خالية من أي تألق بالنسبة للسيدة هاملتون كليب. فهي حسبما قدّرت ڤيكتوريا، أمضت قسماً كبيراً من حياتها تقفز من البواخر الى الطائرات، ومن الطائرات الى القطارات ويتخلل هذا فسحات، كانت تقضيها في فنادق فخمة. ولكن الأمر بالنسبة لڤيكتوريا كان يشكل تحولاً مثيراً، فمن ترديد جمل مثل: «اكتبي يا آنسة جونز»، أو «هذه الرسالة مليئة بالأخطاء، يتوجب أن تطبعيها من جديد يا آنسة جونز»، «القدر يغلي. هلّا حضّرت الشاي»، «أعرف أنه يمكنك الحصول على إجازة أفضل».

جمل يومية اعتيادية ومملّة!

القاهرة، بغداد، طهران. كل رومنسية الشرق وأمجاده، (ووراء كل هذا إدوارد)...

عادت فيكتـوريا الى أرض الواقع لتسمـع مستخدِمتها، وكانت اكتشفت أنها من النوع الثرثار جداً، تطلق مجموعة من الملاحظات وتقول:

ـ «... تقريباً لم يكن أي شيء نظيفاً، افهمي ما أعني. أنا عادة أنتبه جداً جداً لطعامي. ليس في وسعك تصوّر القذارة في الشوارع وفي الأسواق، لن تصدّقي. وتلك الأثواب غير الصحيّة التي يرتديها النـاس. وبعض الحمّـامـات، لا يمكنـك في الطبع أن تقولي انها حمّامات أبداً».

استمعت فيكتوريا مرغمة الى تلك الملاحظات المكربة، غير أن انبهارها بسحر الشرق لم يبهت البتة. ولم تكن القذارة أو الجراثيم تعنيان لها شيئاً بأي شكل من الأشكال: وهي الشابة.

عند وصولها الى مطار «هيثرو» قامت فيكتوريا بمساعدة السيدة كليب في النزول من الباص. وكان عليها أن تهتم أيضاً بجوازي السفر والبطاقات والمال و...، الخ.

ـ «ياه»، بدأت تلك المرأة، «كم أنا سعيدة بوجودك معي يا آنسة جونز. لا أعرف ماذا كنت سأفعل لو سافرت بمفردي».

خطر لفيكتـوريا أن السفر في الطائرة يشبه الذهاب الى حفلة مدرسيـة. حيث يتوافر أساتذة يتمتعون بكامل نشاطهم، لطفاء، لكنهم جديون يقفون بالمرصاد أبداً لتأنيبك. ومضيفات الطيران في زي وقور كممرضات دار حضانة يتعاملن مع المسافرين كأطفال سذج، ويفسّرن في لطافة ماذا في مقدورك أن تفعل وحسب. وتوقعت فيكتوريا أن يبدأن ملاحظاتهن بعبارة: «والآن أيها الأطفال».

كان هنــاك موظفون شبان متعبون يمدّون أيديهم المنهكة من وراء مكــاتبهم للتحقق من جوازات السفــر. وكــانــوا يفتشون في حميمية عن المال والجواهر. وكانوا ينجحون في زرع الشعور بالذنب في نفوس من كانوا يستجوبونهم. فيكتوريا السهلة التأثر بالسليقة شعرت فجأة برغبة عارمة بالإدعاء أن حليتها الحقيرة هي في الواقع لماسة فاخرة يبلغ ثمنها عشرة آلاف جنيه، وكل هذا لترى ردة الفعل على وجه الموظف الشاب الضجر. لكن التفكير بإدوارد منعها من القيام بذلك.

بعد عبورهما كافة الحواجز. جلستا تنتظران مرة أخرى في غرفة واسعــة تطل مبــاشرة على مدرج المــطار. في الخــارج كان هديــر الطائــرات المنطلقة يمنح المكان الخلفية المناسبة. وكانت السيدة كليب مأخوذة في حبور بالتعليق عرضاً على تصرفات المسافرين الآخرين.

ـ «أوليس هذان الطفلان أجمل من أن تصفهما الكلمات؟ ان السفر برفقة طفلين هو تعذيب خالص. أظن أنهما بريطانيان. ان والدتهما ترتدي ثوباً جميلاً. غير أنها تبدو تعبة. هذا رجل جذاب ـ من أمــيركــا اللاتينية على الأرجح. يا للهول كيف يتحدث هذا الرجل بصوت مرتفع. أنا أدعو هذا قلة ذوق. انه رجل أعمال على الأرجح. ذلك الرجل الواقف هناك هو هولندي. كان يقف أمامنا عند التفتيش. تلك العائلة هناك أقدر انها تركية أو إيرانية. يبدو انه لا يوجد أميركيون معنا. أعتقد أنهم يسافرون عموماً مع شركة (بان أمــيركان). أظن أن أولئك الرجال الثلاثة هناك يعملون في مجال النفط، الا توافقين؟ أعبد مراقبة الناس والتساؤل بشأنهم. السيد

كليب يقول ان لدي توقاً شديداً الى الطبيعة البشرية. أنا أعتبره أمراً طبيعياً الاهتمام بالمخلوقات. الا تقولين ان ذلك المعطف من فرو المنك هناك كلف ما يزيد على الثلاثة آلاف دولار؟».

تنهدت السيدة كليب. بعد أن انتهت من تقويم المسافرين الآخرين، كانت قد فقدت صبرها.

ـ «أحب أن أعرف ما الذي ننتظره هكذا؟ تلك الطائرة شغّلت محركها أربع مرات حتى الآن. والكل موجود هنا. ما الذي يعوقهم؟ لا أظن أنهم مشددون الى هذا الحد في شأن برنامج الاقلاع».

ـ «هل تودين أن أحضر لك كوباً من القهوة يا سيدة كليب؟ أرى أن هناك مطعماً عند نهاية القاعة».

ـ «آه، لا شكراً آنسة جونز. لقد شربت قهوة في الغرفة، وأجد أن معدتي ليست على ما يرام الآن ومن الأفضل أن لا أتناول أي شيء. ماذا ننتظر، أحب أن أعرف؟».

جاء الجواب عن سؤالها تقريباً قبل انتهائها من لفظه. فقد انفتح الباب المؤدي الى المعبر المواجه للجمارك ولقسم الجوازات وانبثق رجل طويل الى الداخل. ثم تحلّق مسؤولون من شركة الطيران حوله وتقدم اليه أحد الموظفين وهو يحمل كيسين كبيرين من القماش مختومين.

وقفت السيدة كليب بغبطة، ولاحظت:

ـ «لا بد انه رجل مهم».

كان هناك إثارة وانتباه شديد في معالجة أمور هذا المسافر المتأخر. كان يرتدي معطفاً فضفاضاً خاصاً بالأسفار. لونه رمادي

غامق بقلنسوة واسعة على الظهر. كان يعتمر قبعة تشبه القبعات المكسيكية المسماة «سومبريرو»، إلا أن لونها كان رمادياً فاتحاً. كان شعره أشيب فضياً ينسدل خصلاً طويلة. وتحلّى بشاربين جميلين فضيين معقوفين عند الطرفين. كان جذاباً كممثل يلعب دور رجل عصابات وسيم. كانت فيكتوريا تكره الرجال المتكلّفين الذين كانوا يقفون دوماً وهم يتظاهرون بالتواضع ونظرت اليه مستهجنة.

كان كل مسؤولي شركة الطيران كما لاحظت متضايقة يهتمون به.

ـ «أجل يا سير روبرت، بالطبع يا سير روبرت الطائرة ستنطلق على الفور يا سير روبرت».

عبر السير روبرت الباب الموصل الى المدرج. فتأرجح الباب خلفه بعنف.

ـ «السير روبرت»، همهمت السيدة كليب، «من ذا يكون انا أتساءل؟».

هزّت فيكتوريا رأسها من غير جواب، إلا أنه خالجها شعور غريب بأن وجهه وشكله عموماً لم يكونا غريبين عنها.

اقترحت السيدة كليب: «قد يكون شخصية مهمة في الحكومة».

ردت فيكتوريا: «لا أظن هذا».

كان بعض أعضاء الحكومة الذين تسنى لها رؤيتهم قد تركوا فيها انطباعاً وكأنما هاجسهم الدائم هو فكرة الاعتذار لكونهم على قيد الحياة.

ـ «أرجو الانتباه»، بدأت مضيفة الطيران تقول في طريقة تشبه أسلوب ممرضة دار حضانة، «تقدموا الى مقاعدكم في الطائرة. من هنا وفي أسرع ما في وسعكم لو سمحتم».

أعطى ما تفوّهت به انطباعاً كما لو أن هناك أولاداً يضيّعون الوقت ويتسببون بتأخير أشخاص بالغين صبورين.

تقدم الجميع في رتل باتجاه المدرج.

كانت الطائرة الضخمة تنتظر، وكان محركها يهدر كزمجرة أسد عملاق وهانيء.

ساعدت فيكتوريا بمعيّة احدى المضيفات، السيدة كليب على الركون في مقعدها داخل الطائرة. وجلست قربها الى جهة الممر. وما كادت السيدة كليب تستقر تماماً في مقعدها وتشد فيكتوريا حزام النجاة، حتى لاحظت وجود الرجل المهم على المقعد أمامهما.

أقفلت الأبواب. وبدأت الطائرة بعد ثوان قليلة التقدم ببطء على أرض المدرج.

فكرت فيكتوريا في نشوة: «نحن حقيقة مغادرون. أوليس هذا مخيفاً؟ لنفترض ان لم تقلع عن الأرض اطلاقاً؟ حقيقة لا أتصور كيف يمكن أن تفعل!».

جالت الطائـرة على أرض المـدرج طويلاً جداً وكأنما لدهر ثم انعطفت ببطء وتوقفت. ثم انبعث ضجيج المحركات عالياً، شبيهاً بزئير حيوان مفترس. وجرى توزيع العلكة على الجميع.

كان الضـجيـج يرتفـع أكثـر فأكثر ويزداد ضراوة، ثم تقدمت

الطائرة مرة جديدة، بحذر أولاً ثم أسرع فأسرع. كانت تندفع بقوة فوق الأرض.

- «لن تطير أبداً»، فكّرت فيكتوريا، «سوف نقتل».

تضاعفت السرعة وتابعت التقدم في نعومة أفضل. ومن غير أدنى ارتجاج أو خبطات ارتفعت عن سطح الأرض وحلّقت. ارتفعت فوق موقف السيارات والطريق الرئيسي، وحين حلّقت أكثر ظهر قطار حقير كان ينفث دخانه القليل. ثم تحوّلت البيوت والسيارات الى لعب أطفال منثورة. على ارتفاع أكثر لم تعد الأرض فجأة تثير أدنى اهتمام. لم تعد حية أو مسكونة. كانت مجرد خريطة مسطحة بأزياح ودوائر ونقاط.

حل المسافرون أحزمة الأمان، أشعلوا السجائر وتصفحوا المجلات. كانت فيكتوريا في عالم جديد. عالم طوله عدة أقدام وعرضه بضعة أقدام ويسكنه حوالى العشرين أو الثلاثين شخصاً. لم يكن أي شيء آخر موجوداً.

تطلعت مرة جديدة عبر النافذة الصغيرة. امتد تحتها رصيف غيوم قطنية. كانت الطائرة تحت الشمس. وتحت تلك الغيوم في مكان ما، كان العالم الذي عرفته سابقاً.

استرجعت فيكتوريا حواسها. كانت السيدة كليب تثرثر. نزعت القطن من أذنيها وانحنت باتجاهها.

في المقعد أمامها، نهض السير روبرت وثبّت قبعته الرمادية الكبيرة على الرف فوقه وعاد ليستريح في مقعده.

فكرت فيكتوريا بتحامل غير منطقي: «بغل مغرور».

كانت السيدة كليب تجلس مستكينة في مقعدها وبين يديها مجلة تتصفحها. بين الوقت والآخر كانت تلكز فيكتوريا حينما تفشل في قلب الصفحات بيد واحدة.

أجالت فيكتوريا النظر حولها. وقررت أن السفر في الطائرة كان أمراً مملاً في الواقع. فتحت مجلة ووجدت نفسها أمام إعلان يقول: «هل تريدين تحسين كفاءتك كسكرتيرة؟ ارتعدت وأغلقت المجلة. ثم استرخت وراحت تفكر بإدوارد.

هبطت الطائرة في مطار «قصر بينيتو» وسط عاصفة أمطار. وشعرت فيكتوريا انها مريضة بعض الشيء، وكان عليها أن تستخدم كل طاقتها كي تقوم بواجبها تجاه مستخدمتها. ثم توجه الجميع تحت المطر الغزير الى صالة الانتظار. لاحظت فيكتوريا قدوم ضابط في زيّ عسكري ذي عروات حمراء للقاء السير روبرت العظيم. ثم عجّلا معاً في سيارة رسمية باتجاه مضافة خاصة بالشخصيات الهامة في منطقة تريبوليتانيا. أما باقي المسافرين، فقد تم تأمين غرف لهم في أحد الفنادق.

ساعدت فيكتوريا السيدة كليب في حمّامها وتركتها تستريح في سريرها وهي في رداء النوم، وإلى أن يحين أوان تناول طعام العشاء توجهت فيكتوريا الى غرفتها واستلقت مغلقة عينيها، متجنبة النظر إلى أرضية الغرفة الموحلة والرطبة.

استفاقت بعد ساعة شاعرة انها بحال أفضل وبمعنويات أعلى وتوجهت لمساعدة السيدة كليب. جاءت مضيفة طيران متعجرفة وأعلمتهما أن السيارات على أهبة لنقل المسافرين الى حيث سيتناولون طعام العشاء.

بعد العشاء انشغلت السيدة كليب في حديث مع أحد المسافرين الآخرين. وبدا أن فيكتوريا لفتت اعجاب الرجل اللاتيني المظهر فراح يخبرها باسترسال عن صناعة الأقلام الرصاصية.

بعد أن انتهى العشاء نقلوا مجدداً الى غرفهم وأعلموا بفظاظة أنه ينبغي أن يكونوا مستعدّين للانطلاق مرة أخرى في تمام الساعة الخامسة والنصف فجراً.

قالت فيكتوريا حزينة: «لم يتسنَّ لنا مشاهدة أي شيء في تريبوليتانيا، اليس كذلك؟، هل السفر بالطائرة دائماً هكذا؟».

ـ «آه بالطبع يمكن قول ذلك. ان الطريقة التي يفرضونها للنهوض في وقت مبكر هي أقرب الى السادية. عادة يبقوننا بعد هذا منتظرين في المطار لمدة ساعة أو ساعتين. أذكر في روما أنهم أيقظونا في الساعة الثالثة والنصف، ثم تناولنا الترويقة في المطعم عند الرابعة. وما حدث في الواقع هو اننا طرنا في الساعة الثامنة. غير أن أفضل ما يمكن أن يحدث هو أن يوصلوكِ مباشرة الى وجهتك من غير أي توقف على الطريق».

تنهدت فيكتوريا حيث كانت ترغب بشدة التجول في الأمكنة الجديدة. لقد أرادت أن ترى العالم.

أردفت السيدة كليب: «هل تعرفين ماذا اكتشفت يا عزيزتي. إن ذلك الرجل اللافت البريطاني، ذاك الذي شغل وأثار اهتمام الجميع. لقد عرفت من هو. إنه السير روبرت كروفتون لي الرحّالة العظيم. لا بد وانك سمعت به؟».

أجل. لقد تذكرت فيكتوريا الآن. لقد كانت شاهدت صوراً له في

الصحف منذ ستة أشهر. لقد كان مسؤولاً كبيراً من قبل وزارة الخارجية في الصين. وهو أحد القلائل الذين وصلوا الى التيبت وزاروا لاسا. قام برحلات عبر قطاعات مجهولة في كردستان وآسيا الصغرى. تباع كتبه بشكل واسع جداً وهي مكتوبة بذكاء وبأسلوب رائع. لو كان السير روبرت من الصنف الاستعراضي فإن لهذا بالطبع سبباً وجيهاً. لم يكن يدعي في كتبه أي أمر ما لم يثبته كلياً. كان المعطف بقلنسوته والقبعة السامبريرو ذات الشريط العريض زياً من ابتكاره هو وحده.

- «أوليس هذا بالأمر المثير؟»، سألت السيدة كليب في حماسة شبيهة بحماسة صائد أسود، بينما كانت فيكتوريا تسوّي أغطية الفراش فوق جسمها المستلقي.

وافقتها فيكتوريا على أنه رجل مثير للغاية، لكنها رددت في دخيلتها انها تفضل كتب السير روبرت على شخصيته. وخطر لها أنه، كما يقول الأولاد، «متباه»!.

انطلقوا في فجر اليوم التالي كما كان مقرراً. وكان الطقس قد تحسّن وأشرقت الشمس. غير أن فيكتوريا بقيت خائبة لأنها لم ترَ سوى القليل من تريبوليتانيا. إلا أنه كان يفترض أن تتوقف الطائرة في القاهرة عند الغداء، ثم تغادر الى بغداد في الصباح التالي. لذا قد تتمكن على الأقل من رؤية قسم قليل من مصر إبان ما بعد الظهيرة.

كانوا يطيرون فوق البحر، إلا أن الغيوم سرعان ما حجبت المياه الزرقاء تحتهم فتهالكت فيكتوريا في مقعدها متثائبة. في المقعد أمامها كان السير قد سبق واستغرق في النوم. كانت القلنسوة

ارتـدت الى الخلف وتـدلّت أمامـها مهتزّة بين وقت وآخر. لاحظت فيكتوريا بمكر وغبطة وجود حبة في رقبته. لِمَ كانت مغتبطة، كان من الصعب التفسير ـ ربما كان هذا يجعل الرجل العظيم يبدو أقرب الى البشر وقابلاً للعطب. كان في النهاية مثل باقي الرجال، عرضة لأن تشوّه جلدته بثور مزعجة. لكن لا بد من الاعتراف بأن السير روبرت حافظ على سلوكه المهيب ولم يهتم البتة ببقية المسافرين.

جال في خاطر فيكتوريا: «من ذا يظن نفسه. اني أتساءل؟». كان الجواب جلياً. كان السير روبرت كروفتون لي الشهير، وهي كانت فيكتوريا جونز مجرد سكرتيرة من دون أدنى أهمية على الاطلاق.

حين وصلوا الى القاهرة تناولت فيكتوريا والسيدة كليب طعام الغداء معاً. ثم أعلنت الأخيرة أنها ستنام حتى الساعة السادسة. واقترحت على فيكتوريا الذهاب لمشاهدة الأهرام.

ـ «لقد أمّنت لك سيارة تقلّك يا آنسة جونز، لأني أعرف أن مدخراتك لا تسمح بتبذير أي مال هنا».

شكـرتهـا فيكتـوريا، مع العلم أنها لم تكن تحمل اية اموال. شكرتها بإسراف.

ـ «لا، هذا لا شيء. لقد كنت لطيفة جداً جداً معي. حين نحمل دولارات أثناء السفر يصبح الأمر سهلاً للغاية. السيدة كيتشن، والدة ذينك الطفلين الجميلين تتلهف للذهاب أيضاً. لقد اقترحت عليها أن ترافقك، إن كان هذا لا يزعجك؟».

كان كل شيء مناسباً بالنسبة لفيكتوريا ما دامت ترى العالم.

ـ «هذا ممتاز. من الأفضل أن تنطلقي فوراً».

كانت تلك الأمسية عند الأهرامات بهيجة بالتأكيد. وكان يمكن أن تستمتع فيكتوريا بها أكثر لولا حضور طفلي السيدة كيتشن، مع أنها كانت تحب الأطفال.

ألقت فيكتوريا نفسها على السرير متثائبة. وتمنت من أعماقها لو تستطيع البقاء أسبوعاً في القاهرة والإبحار في نهر النيل. «وماذا بشأن المال يا فتاتي؟» سألت نفسها مستبعدة الفكرة. لقد كانت أعجوبة انها استطاعت الانتقال الى بغداد مجاناً.

وتساءل صوت في داخلها: وماذا ستفعلين حين تصلين إلى بغداد وليس في حوزتك سوى بضعة جنيهات؟

استبعدت فيكتوريا هذه المسألة. سوف يجد لها إدوارد عملاً بكل تأكيد. وإن لم يحصل هذا فسوف تتدبر لنفسها وظيفة ما. ما جدوى القلق؟

فيما هي سارحة في التفكير سمعت طرقة على الباب. هتفت: «أدخل»، لكنها لم تسمع أي جواب. نهضت من السرير وتوجهت الى الباب وفتحته.

لم يكن بابها الذي يطرق، بل الباب الملاصق لغرفتها في الرواق. كانت احدى المضيفات تطرق باب السير روبرت كروفتون لي. كان شعرها داكناً ومرتدية زيّها الرسمي. فتح السير روبرت الباب لحظة تطلعت الآنسة فيكتوريا.

- «ماذا هنالك الآن؟».

بدا منزعجاً ونعسان.

- «أعتذر لمضايقتك يا سير روبرت»، قالت المضيفة متوددة،

«نرجو منك الحضور الى مكتب شركة الطيران. انه على بعد ثلاثة أبواب من هنا. يريدون ابلاغك تفصيلاً ما يتعلق بالرحلة الى بغداد غداً».

ـ «آه حسنـاً».

تراجعت فيكتـوريـا الى داخـل الغرفة. كان النعاس قد فارق عينيها رمقت ساعة يدها. كان الوقت فقط الرابعة إلا الربع. كان باقٍ ساعـة ونصف الساعة حتى تستيقظ السيدة كليب وتطلبها. قررت أن تخرج وتتمشى في شارع هليوبوليس. على أية حال، المشي لا يستوجب صرف أي مال.

مرّغت أنفها بالبودرة وانتعلت حذاءها. شعرت انه ضيّق بعض الشيء. كانت الرحلة الى الاهرامات قد أنهكت قدميها.

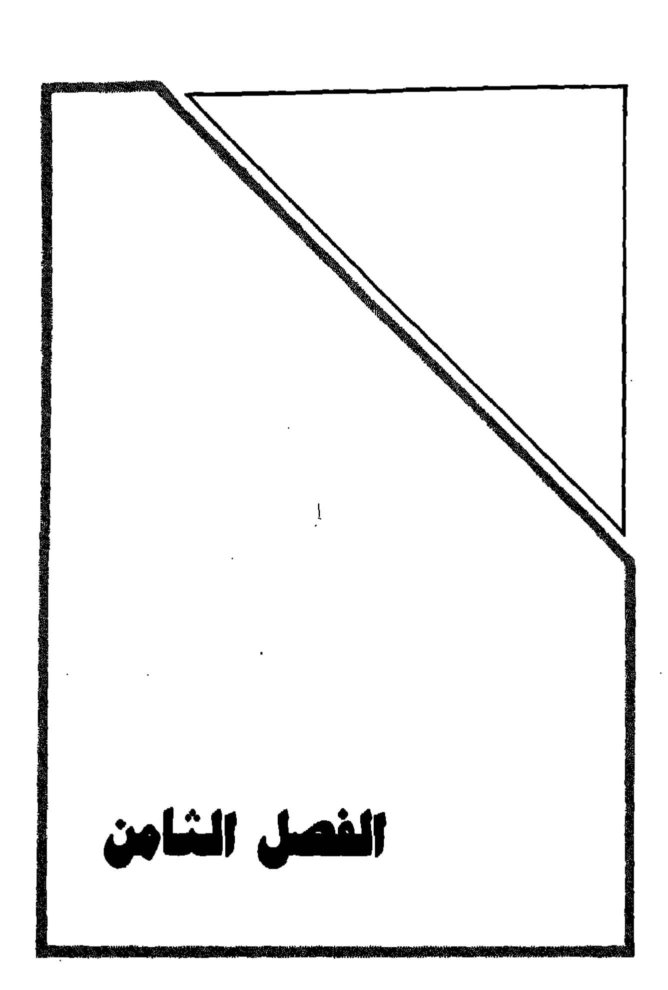
خرجت من غرفتهـا وعبـرت الرواق في اتجـاه صالة الفنـدق الرئيسة. بعدما تقدمت ثلاثة أبواب اجتازت مكتب شركة الطيران. كان هناك على الباب بطاقة تشير الى ذلك. ما إن اجتازته حتى فتح البـاب وانبـرى السـير روبـرت. كان يمشي في عجلة وسرعان ما تخطاها. تقدمها وكان معطفه يتأرجح، وقدرت فيكتوريا أن أمراً ما كان يشغل باله.

حين وصلت فيكتوريا عند الساعة السادسة الى غرفة السيدة كليب، كانت هذه الأخيرة سيئة المزاج الى حد ما.

ـ «أنا قلقة بشأن الوزن الزائد في حقائبي يا آنسة جونز. كنت اعتقـدت أني سوّيت الأمر، لكن يبدو ان الذي دفعته بدلاً لذلك ينتهي مفعـوله في القـاهرة. سوف نطير غداً عبر الخطوط الجويّة

العراقية، وبطاقة سفري هي مجرد بطاقة عادية، ولا ذكرللحقائب الاضافية فيها. ربما يجدر أن تذهبي وتتأكدي من الأمر. لأني قد أضطر الى صرف شيك آخر».

وافقت فيكتوريا على الاستعلام عن الأمر. لم تستطع في بادىء الأمر العثور على مكتب شركة الطيران، لكنها وجدته أخيراً في الرواق البعيد في الجانب الآخر من القاعة. كان مكتباً كبيراً. خطر لها أن المكتب الآخر القريب لغرفتها كان مكتباً صغيراً لا يُستخدم سوى في أوقات ما بعد الظهيرة، في فترة القيلولة. تبيّن أن مخاوف السيدة كليب حول متاعها الإضافي كانت في مكانها، وكان ذلك ممّا أزعجها كثيراً.



الفصل الثامن



كانت مكـاتب شركـة فتـح الله للأسـطوانـات تقع في الطبقة الخامسة من بناء تجاري في وسط لندن. كان الرجل الجالس وراء طاولة في ذلك المكتب يقرأ كتاباً عن الاقتصاد. رنّ الهاتف فتناول السمّاعة وقال بصوت هادىء جاف:

ـ «هنا ساندرز».

ـ «ساندرز النهري؟ أي نهر؟».

ـ «نهر دجلة؟ ابعث تقريري في شأن أ. ش. لقد فقدنا أثرها».

حلّ صمت لبرهة ثم تكلّم الصوت الهادىء مجدداً ولكن بنبرة حادة.

ـ «هل أسمعتك جيداً؟».

ـ «لقد فقدنا اثر آنّا شيل».

ـ «لا تذكر أسماء. لقد اقترفت خطأً كبيراً. كيف حصل هذا؟»

ـ «لقد دخلت مصحّة، كما كنت أخبرتك من قبل. كانت شقيقتها ستخضع لعملية جراحية».

ـ «حسنـاً».

ـ «لقد أجريت العملية الجراحية بشكل جيد. وتوقعنا أن تعود أ. ش. الى فندق سافوي. كانت احتفظت بجناحها هناك. لم ترجع. كنا نراقب المصحّة باستمرار وكنّا متأكدين جيداً انها لم تغادرها. قدّرنا أنها مابرحت هناك».

ـ «ولـم تكـن؟».

ـ «لقد اكتشفنا هذا لتوّنا. لقد غادرت المكان في سيّارة اسعاف في اليوم التالي بعد العملية الجراحية».

ـ «لقد هزئت منكم بكل بساطة».

ـ «يبدو الأمر كذلك. إني لأقسم أنها لم تعرف أبداً انها كانت مطاردة. كنا قمنا بكل الاحتياطات اللازمة. كنّا ثلاثة و...».

ـ «دعك من الاعتذارات. أين توجهت بها سيّارة الإسعاف؟».

ـ «الى مستشفى كليّة الجامعة».

ـ «ماذا أخبروك في المستشفى؟».

ـ «لقد قالوا ان السيارة أحضرت مريضاً كانت ترافقه ممرضة مستشفى. لا بد وأن ممرضة المستشفى كانت آنا شيل. ويجهلون اطلاقاً أين ذهبت بعدما ادخلت المريض».

ـ «وماذا عن المريض؟».

ـ «المريض لا يعرف شيئاً. كان مخدراً بالمورفين».

ـ «إذاً لقد غادرت آنا شيل المستشفى متنكرة في زيّ ممرضة، ويمكن أن تكون الآن في أي مكان؟».

ـ «أجل. انها عادت الى فندق السافوي...».

قاطع الآخر قائلاً:

ـ «لن تعود الى السافوي».

ـ «هل تريدنا أن نبحث في الفنادق الأخرى؟».

ـ «نعم. لكن أشك أن تحصلوا على أي نتيجة هذا هو ما تتوقع هي أن تفعلوا».

ـ «هل من اقتراحات أخرى؟».

ـ «فتشوا في المرافىء، في دوفر، فولكستون...، الخ. استعلموا من شركات الطيران، دققوا في الحجوزات الى بغداد خصوصاً في رحلة مساء الغد. لن يكون الحجز مسجلاً باسمها. راقبوا كل المسافرات اللواتي في عمرها تقريباً».

ـ«لا تزال حقائبها في السافوي، ربما قد تبعث في طلبها».

ـ «لن تفعل أي شيء من هذا القبيل، أنت قد تكون مغفّلاً ـ لكنها ليست كذلك! هل تعرف الأخت شيئاً عن هذا؟».

ـ «نحن على اتصال مع ممرضتها الخاصة في المنزل. يبدو أن شقيقتها تظن أن أ. ش هي الآن في باريس تقوم بوظيفتها لدى مورغانتال وتقيم في فندق ريتز. انها تعتقد أن أ. ش. ستسافر الى عند أهلها في الولايات المتحدة في الثالث والعشرين من الشهر».

ـ «بكلام آخر لم تخبرها أ. ش شيئاً. في النهاية لا بد وأن تسافر بالطائرة. انه أملها الوحيد. ينبغي أن تصل الى بغداد. والسفر جواً هو الطريقة الوحيدة التي تمكنها من الوصول الى هناك في الوقت المحدد، يا ساندرز..».

ـ «نعـم؟».

ـ «لا مجال للفشل. هذه هي فرصتك الأخيرة».



الفصل التاسع



ارتكز السيد شريفنهام الشاب الموظف في السفارة البريطانية على قدمه الأخرى، وتطلع الى فوق بينما انحدرت الطائرة فوق مطار بغداد. كانت تهب في ذلك الوقت عاصفة رملية عظيمة. وحجب ضباب بنّي كثيف أشجار البلح، والبيوت والناس. كانت العاصفة قد هبت فجأة.

علّق ليونيل شريفنهام بنبرة حزينة:

- «أراهن بعشرة مقابل واحد انهم لن يستطيعوا الهبوط هنا».

سأل صديقه هارولد: «ماذا سيفعلون؟».

- «أعتقد أنهم سيتوجهون الى البصرة. الطقس هناك جيد كما سمعت».

- «انك في انتظار شخصية مهمة جداً، أليس كذلك؟».

تأوّه السيد شريفنهام مرة جديدة.

- «انه حظّي السيّيء. لقد تأخر خروج السفير الجديد. والقنصل لانسداون موجود في لندن. ورايس المستشار الشرقي مريض بالإنفلونزا وممدد في الفراش. وبست موجود الآن في طهران

وها أنذا وحدي وعليّ القيام بكل هذا الكمّ من الأعمال الحقيرة. لا نهاية لرحلات هذا الرجل. لا أعرف ما السبب. انه أحد الرحّالة الذين يجوبون الآفاق، وعلى الدوام على ظهر جَمَل في مكان ما من العالم. لا أدري لمَ هو مهم الى هذه الدرجة، يبدو ظاهرياً أنه الكشّاف المتقدم، ويتوجب عليّ أن أنفّذ أحقر رغباته. ان كانوا سيهبطون به اليوم في البصرة فسوف يطير صوابه. لا أعرف كيف سأتصرف في هذا الشأن. أأتوجه بالقطار هذه الليلة؟ أم أستعين بطائرة عسكرية وأطير اليه غداً؟».

تنهد السيد شريفنهام مجدداً وتضاعف شعوره بالمهانة وأيضاً بالمسؤولية. فمنذ وصوله قبل ثلاثة أشهر الى بغداد والحظ السيىء يطارده. اي اعتراض آخر من جانبه سوف يفسد بالتأكيد طموحه للحصول على مهنة تعد بمستقبل جيد.

مرت الطائرة مرة جديدة فوقه على مسافة قريبة.

- «أظن انه لن ينجح في الهبوط»، قال شريفنهام ثم أضاف متحمساً، «رباه. أعتقد انه يهبط».

بعد بضع دقائق كانت الطائرة توقفت بكل رزانة في المكان المحدد، ووقف شريفنهام مستعداً للترحيب بالرجل الفائق الأهمية.

لمحت عيناه غير المحترفتين «فتاة فاتنة»، قبيل اندفاعه متقدماً ليرحّب بتلك السحنة القرصانية في المعطف الفضفاض.

جال في خاطره ممتعضاً: «هذا ما يمكن وصفه باللباس الاستعراضي». وقال بصوت مرتفع:

ـ «السير روبرت كرافتون إن لم أكن مخطئاً؟ أنا شريفنهام من السفارة».

لاحظ أن السير روبرت فظّ السلوك بعض الشيء، ولكن يمكن تفهّم هذا بعد ما أصابه من توتر نتيجة تحليق الطائرة الدائري فوق المدينة وهي تتردد في الهبوط.

ـ «انه يوم قبيح»، وتابع شريفنهام، «لقد حظينا بأيام كثيرة مثله هذه السنة. آه لقد أحضرتِ الحقائب. حسناً، لو تتبعني. سوف نضعها على سقف....».

بعدما غادرا المطار في سيارة قال شريفنهام: «اعتقدت لفترة قليلة انهم سيهبطون بك في مطار آخر. لم يبد أن الطيار كان قادراً على الهبوط بالطائرة. لقد هبت هذه العاصفة الرملية فجأة».

نفخ السير روبرت خدّيه بكبرياء وأشار قائلاً: «كان يمكن أن تحصل كارثة ـ كارثة حقيقية، لو حدثت أي خربطة في جدول مواعيدي أيها الشاب. أؤكد لك أن نتائج ذلك كانت شكوى خطيرة حتى على أعلى المستويات».

فكر شريفنهام هازئاً: «يا للإدعاء. هؤلاء الرجال المهمون يعتقدون ان دورة الكرة الأرضية تعتمد في الدرجة الأولى على مشاريعهم التافهة».

ثم قال بصوت مرتفع وبكل احترام:

ـ «أظن انك على حق يا سيدي».

ـ «هل لديك أية فكرة عن موعد وصول السفير الى بغداد؟».

ـ «لا شيء محدداً حتى الآن يا سيدي».

ـ «سيكون أمراً مؤسفاً ان لم يتسنَّ لي رؤيته. لم أره منذ ـ دعني أتذكر ـ أجل منذ العام ١٩٣٨ في الهند».

ظل شريفنهام صامتاً في احترام.

ـ «أجبني، هل رايس موجود هنا؟».

ـ «أجل يا سيدي انه المستشار الشرقي».

ـ «انه رجل كفؤ. عليم جداً. يسرّني أن ألتقيه مجدداً».

ـ سعل شريفتهام وقال: «سيِّدي، في الواقع أن السيد رايس مريض، ولقد نقلوه الى المستشفى للمعاينة. انه مصاب بالتهاب معوي حاد».

ـ «ماذا يعني هذا؟»، وأدار السير روبرت رأسه بحدّة، «التهاب معوي بشع. لقد حصل له هذا فجأة، أليس كذلك؟».

ـ «منذ يومين».

كان السير روبرت يرتجف. وفجأة تخلى عن غطرسته. وأصبح مجرد رجل عادي خائف بعض الشيء.

ـ «اني محتار»، ردد، «أجل أنا أتساءل».

نظر اليه شريفنهام مستفهماً في وقار.

قال السير روبرت: «أتساءل إن كان مصاباً بمرض شيلي...».

ارتبك شريفنهام وبقي صامتاً.

كانا يقتربان من جسر الفيصل، ثم تحولت السيارة الى اليسار نحو السفارة البريطانية.

فجأة انحنى السير روبرت الى الأمام وقال بحدة:

ـ «هلّا توقفت دقيقة، أجل الى اليمين حيث القدور الفخّارية».

انزلقت السيارة في اتجاه الميمنة الى حافة الطريق وتوقفت.

كان هناك متجر صغير عرضت فيه قدور طينية بيضاء، وجرار للمياه.

بينما توقفت السيارة ابتعد رجل أوروبي بدين، كان يقف محدثاً صاحب المتجر، ثم توجه نحو الجسر. وقد عرفه شريفنهام، كان كروسبي من جهاز المخابرات وكان التقاه مرة أو مرتين من قبل.

قفز السير روبرت من السيارة، وعجل في اتجاه الكشك الصغير. حمل احدى القدور وبدأ حواراً سريعاً بالعربية مع صاحب المتجر. كان الحوار يجري بسرعة يعجز شريفنهام عن متابعتها لأنه كان لا يزال بطيء الفهم للغة العربية، ويجد صعوبة إزاء المعجم المحدود من المصطلحات الذي كان قد حفظه حتى الآن.

كان صاحب المتجر يشير بيديه الى الاتجاهات، يقوم بحركات ويفسّر في الوقت نفسه. انتشل السير روبرت قدوراً مختلفة، وكان يبدو انه يستعلم بشأنها. وفي النهاية اختار جرّة ماء ضيقة الفتحة، ودفع للبائع بعض القطع النقدية وعاد الى السيّارة.

قال السير روبرت: «تقنية مثيرة للاهتمام. انهم يصنعون هذه الأشياء منذ آلاف السنين. ان شكلها يشبه واحدة رأيتها في احدى مناطق التلال في أرمينيا».

أدخل اصبعه في جوف الفتحة الضيّقة وجعل يدور به هناك تكراراً.

- «ان هذا الشيء بدائيّ للغاية»، ردد شريفنهام من دون اكتراث.

- «آه. لا أهمية فنية له. لكنه مهم كمادة تاريخية. هل ترى هذه المسكات المحفورة هنا؟ تستطيع أن تستخلص الكثير من المادة التاريخية من ملاحظة هذه الأشياء البسيطة في الاستخدام اليومي. إن لدي مجموعة منها».

انعطفت السيارة ودخلت عبر أبواب السفارة البريطانية.

طلب السير روبرت أن ينقل تواً الى غرفته. فرح شريفنهام عند سماعه هذا، وكذلك لانتهاء محاضرته عن الجرة الطينية. وكان السير روبرت تركها غير آبه في السيارة. حمل شريفنهام الجرّة بطيبة خاطر وطلع بها ثم وضعها بانتباه شديد على طاولة قرب سرير السير روبرت.

- «هذه جرّتك يا سيدي».

- «آه، أوه شكراً يا بني».

بدا السير روبرت شارد الذهن. غادره شريفنهام بعدما أبلغه أن طعام الغداء سيكون جاهزاً بعد وقت قليل وان المشروبات ستكون حسب اختياره.

حين غادر الشاب الغرفة، توجه سير روبرت نحو النافذة وفضّ قطعة الورق الصغيرة التي كانت مدسوسة في فتحة الجرّة، ثم مسّدها. كان هناك سطران من الكتابة فيها، قرأهما بتأنٍ ثم أحرقها بعود ثقاب.

وهتف منادياً الخادم.

- «نعم يا سيدي. هل أفرغ لك حقائبك؟».

ـ «ليس الآن. أريد أن يحضر السير شريفنهام الى هنا».

وصل شريفنهام وعلى وجهه علامة استفهام.

ـ «هل أستطيع أن أفعل أي شيء من أجلك، يا سيدي؟ هل من خطب ما؟».

ـ «سيد شريفنهام، لقد طرأ تغيير عنيف لمخططاتي. أستطيع أن أعتمد على قدرة كتمانك للسر بالطبع؟».

ـ «آه، بكل تأكيد يا سيّدي».

ـ «لقد مضى زمن طويل على زيارتي الأخيرة لبغداد. في الواقع أنا لم آت الى هنا منذ أيام الحرب. الفنادق تقع عموماً على الضفة الأخرى من النهر، اليس كذلك؟».

ـ «نعم يا سيدي. في شارع الرشيد».

ـ «جهاتها الخلفية تطلّ على نهر دجلة، اليس كذلك؟».

ـ «أجل. إن فندق قصر بابل هو أضخمها. إنه فندق رسميّ إذا صح التعبير».

ـ «ماذا تعرف عن فندق يدعى «تيو»؟».

ـ «آه، العديد من الناس يذهبون الى هناك. وجبات الطعام فيه جيدة ويديره شخص رائع يدعى ماركوس تيو. انه شخصية، بل مؤسسة في بغداد».

ـ «أريدك أن تحجز لي غرفة هناك يا سيد شريفنهام».

ـ «أتعني انك لن تقيم في السفارة؟»، قال وبدا متفهماً الأمر بعصبية، «لكن، لكن كل شيء كان معداً هنا يا سيدي».

ـ «ما جرى اعداده يمكن الغاؤه»، زعق السير روبرت.

- «آه، بالطبع يا سيدي، لم اكن أعني...».

وتوقف شريفنهام. شعر انه سوف يقع عليه اللوم ان هو تابع.

- «ينبغي أن أقوم ببعض المفاوضات الحسّاسة. ولقد علمت أنه ليس من الممكن اجراؤها في السفارة. أريدك أن تحجز لي غرفة الليلة في فندق تيو، وأرغب في مغادرة السفارة بطريقة غير لافتة للنظر. ما أعنيه هو انني لا أريد أن أنتقل الى فندق تيو بسيّارة السفارة. أريد أيضاً أن تحجز لي مقعداً في الطائرة المسافرة بعد غد الى القاهرة».

بدا شريفنهام الآن أكثر ذهولاً.

- «لكني حسبما فهمت كنت ستقضي خمسة ايام هنا..».

- «لم يعد الوضع هكذا. ضروري جداً أن أغادر الى القاهرة ما إن أنجز مهمتي هنا. سأتعرض للخطر إن بقيت هنا».

- «الخطر؟».

ارتسمت فجأة ابتسامة متجهمة على وجه السير روبرت. وشعر شريفنهام أن الصورة التي كان رسمها عن الرجل قد تحولت كلياً. لم يعد يتصرف كضابط تحر عسكري، بل انكشف مرة واحدة بكل تألقه.

- «لم يكن هاجس السلامة أبداً من بين مشاغلي. أوافقك». وأضاف، «لكن في هذه المهمة لم تعد المسألة تتعلق بسلامتي أنا فقط، بل انها تشمل سلامة الكثير من الأشخاص الآخرين. لهذا أطلب إليك أن تقوم لي بهذه الترتيبات. وإذا كان تأمين حجز مكان في الطائرة صعباً فإني أطلب الأولوية للضرورة. سوف لن أغادر غرفتي حتى أغادر السفارة هذه الليلة». ثم أردف قائلاً بينما فتح

شريفنهام فمه مندهشاً، «يجب أن يعلن رسمياً أني مريض مصاب بالملاريا. وهكذا لن أحتاج الى أي طعام».

ـ «لكن يمكننا بالتأكيد أن نبعث لك طعاماً الى هنا...».

ـ «أستطيع بكل سهولة الصوم لمدة أربع وعشرين ساعة. لقد بقيت في رحلات أخرى جائعاً لفترة أطول. أنت افعل فقط كما أقول لك».

في الأسفل رحب رفاق شريفنهام به، وكان يحاول الرد على تساؤلاتهم بصوت خافت: «انها مسألة تجسس ومن الدرجة الأولى. لست قادراً على فهم السير المبجل روبرت كروفتون ولا معطفه الفضفاض وقبعة اللصوص وكل ما تبقى. أحد الذين قرأوا واحداً من كتبه أخبرني انه رغم كونه إعلاناً حياً لنفسه، فهو قد قام حقاً بكل تلك المغامرات وفي كل تلك الأمكنة النائية ـ لكني محتار... أتمنى لو يبرأ توماس رايس من مرضه ويساعدني. هذا يذكّرني، ما هو مرض «الشيلي؟»».

ـ «مرض الشيلي»، ردد صديقه مرتعداً. «ان هذا يتعلق بنوع ما من السموم، أليس كذلك؟».

ـ «اللعنة؟ قال شريفنهام محدقاً، «ظننت أن هذا مجرد مرض سارٍ. شيء ما يشبه مرض الزحار».

ـ «آه، لا. انه مركّب كيميائي. تستخدمه الزوجات للتخلص من أزواجهن وبالعكس».

صمت شريفنهام مذهولاً كلياً. لقد بدأت تتوضح له الآن بعض الوقائع البشعة. كان كروفتون لي لَمح في الواقع بأن توماس رايس المستشار الشرقي لدى السفارة، لم يكن يعاني من التهاب معوي،

بل من حالة تسمم بالزرنيـخ. إضـافة الى هذا فقد أشار السير روبرت الى أن حياته هو أيضاً في خطر، وكان قراره عدم تناول أي طعام أو شراب حضّر في مطبخ السفارة مؤذياً جداً لشريفنهام الذي يعتز بروحه الوطنية البريطانية. لقد أخفق في تصور كل ما يحدث.



الفصل العاشر



لم يكن انطباع فيكتوريا الأول عن بغداد جيداً بالتأكيد وهي تتنفس في صعوبة في الغبار الأصفر الحار. طوال الطريق الممتد بين المطار وفندق تيو قضّ مضجعها ضجيج منهك ومتواصل. أبواق سيارات تزعق في عناد مسعور، صراخ، صفّارات، ثم اندلاع أشد عنفاً ومن دون مبرر لأبواق شاحنات ضخمة. إضافة الى هذا الضجيج المريع في الشارع، كان هناك أيضاً التدفق الحاد لثرثرة السيدة كليب اللامتناهية.

أدركت فيكتوريا فندق تيو وهي في حالة ذهول كلّي.

كانا وصلا الى هناك بعدما تحوّلا عند الشارة الضوئية في شارع الرشيد ودخلا معبراً قصيراً على مقربة من نهر دجلة. طلعا درجات قليلة وهناك عند مدخل الفندق استقبلهما شاب بدين جداً بابتسامة عريضة توحي بمدى العزة التي يكنها لهما وقدرت فيكتوريا انه ماركوس ـ وعلى الأصح السيد تيو صاحب فندق تيو.

قوطعت عبارات الترحيب بصرخات آمرة توجه الخدم الى سبل ترتيب انزال الحقائب.

«ها انت مجدداً يا سيدة كليب ـ لكن ذراعك ـ ما هذا الشيء

المضحك الذي لففته حولها؟ (أيها الأغبياء لا تحملوا هذا بواسطة الحبال! حمير! لا تجرجروا ذلك المعطف!) ـ لكن يا عزيزتي، يا له من يوم للوصول ـ لم يخطر لي أبداً أن الطائرة ستتمكن من الهبوط. كانت تدور وتدور وتدور. وقلت لنفسي، يا تيو لا تسافر أبداً في الطائرة، لم العجلة، ما الأهمية ـ ولقد اصطحبت معك هذه الفتاة الشابة ـ أمر جميل أن نرى غالباً سيدات صغيرات في بغداد ـ لِمَ لم يحضر السيد هاريسون للاقاتك ـ لقد توقعت أن يأتي البارحة، لكن، يا عزيزتي ينبغي أن تشربي شيئاً ما على الفور».

كانت فيكتوريا مترنحة بعض الشيء، وكان رأسها يدور قليلاً تحت تأثير كوب الشراب المضاعف الذي أصرّ ماركوس على تقديمه لها. كانت تقف داخل غرفة بيضاء تحتوي سريراً نحاسياً الى جانب طاولة فخمة جداً من الطراز الفرنسي الحديث، وخزانة من العهد الفيكتوري وكرسيين مخمليين أنيقين. كانت حقيبتها المتواضعة ممددة قرب قدميها بينما قام رجل عجوز جداً شاحب الوجه وراء شاربين أبيضين بتوزيع المناشف في حمّامها، ثم سألها إن كانت تريده أن يحضّر لها مياهاً ساخنة لتستحم.

ـ «كم من الوقت يستلزم هذا؟».

ـ «بين العشرين والثلاثين دقيقة. سأذهب وأقوم بالأمر الآن».

انسحب مبتسماً بعطف بينما جلست فيكتوريا على حافة السرير ومدت يدها متفحصة شعرها. كان محشواً بالغبار وكان وجهها ناشفاً وقاسياً. نظرت الى نفسها في المرآة. كان الغبار غيّر لون شعرها من أسود الى بنّي أحمر غريب. أزاحت الستارة الى الزاوية وخرجت الى الشرفة الواسعة المطلّة على النهر. لكن لم تستطع رؤية

شيء سوى ضباب أغبر وكثيف فوق دجلة. كانت على شفير انهيار عصبي، وحدثت نفسها قائلة: «يا له من مكان كريه».

بعدما استحمّت تناولت طعام الغداء ونامت طويلاً، وعندما استفاقت خرجت مجدداً الى الشرفة من غرفة النوم وحدقت في بهجة في امتداد نهر دجلة. كانت العاصفة الرملية قد اختفت واستبدل الضباب الأصفر بضوء واضح يشع فوق النهر، وتراءت لها أشجار البلح النحيلة وبيوت متفرقة.

تناهت الى فيكتوريا أصوات من الحديقة. فتقدمت الى حافة الشرفة وتطلعت الى تحت.

كانت السيدة هاميلتون كليب الثرثارة من دون كلل، قد تعرفت الى امرأة انكليزية. انها واحدة من أولئك النساء الانكليزيات اللواتي تجدهن في أي مدينة غريبة.

ـ «... لا أعرف أبداً كيف كان يمكن أن أتصرف من دونها». وتابعت السيدة كليب تقول، «انها فتاة رقيقة الى أقصى الحدود. ومن عائلة محترمة. إنها قريبة أسقف لانغو».

ـ «أسقف ماذا؟».

ـ «ماذا، أظن أسقف لانغو».

ـ «هذا هراء. لا وجود لهذا الشخص»، انبرت الأخرى.

ارتعدت فيكتوريا، إذ أيقنت ان هذه المرأة الانكليزية ليست من النوع الذي يخدع في سهولة، إن كان الأمر يتعلق بأسقف مزيّف.

ـ «آه ربما لم أنتبه جيداً للإسم». قالت السيدة كليب مرتابة.

- «لكن»، واردفت مضيفة، «انها على أية حال فتاة طيبة جداً وطموحة».

- «هـا»، قالت الأخرى بنبرة لئيمة غير موافقة.

قررت فيكتوريا أن تبتعد ما أمكنها البعد عن هذه المرأة. شيء ما في داخلها أنذرها بأن اختلاق القصص لارضاء هذا النوع من النساء ليس بالأمر الهيّن.

عادت فيكتوريا الى غرفتها، جلست على السرير وراحت تراجع متأملة كل احتمالات وضعها الحالي.

إنها تقيم في فندق تيو، والذي كانت واثقة الى حد ما انه لم يكن مرتفع الأجر أبداً. كانت تمتلك أربعة جنيهات و١٧ شلناً. كانت تناولت طعام غداء مهماً لم تكن دفعت ثمنه بعد، وكانت السيدة كليب على استعداد للقيام بهذا. وكانت السيدة كليب تكفّلت بكافة مصـاريف السفر الى بغداد. كانت الصفقة تمت بشكل كلّي. لقد وصلت فيكتوريا الى بغداد وحظيت السيدة كليب بكل العناية التي كان يمكن أن تؤمنها لها قريبة أسقف، ممرضة مستشفى سابقة وسكرتيرة ناجحة. انتهى كل شيء برضي واكتفاء كلٍ من الطرفين. سوف تغادر السيدة كليب في قطار المساء الى كركوك وهكذا يكون قد انقضى الأمـر. راقت لفيكتـوريـا فكرة أن تقوم السيدة كليب باعطائها بعض المال كهديّة وداع، لكنها عادت واستبعدت الفكرة معتبرة إياها غير معقولة. ربما لم تكن السيدة كليب تعلم أي شيء عن الضيق المادي الخانق الذي كانت فيكتوريا تعانيه.

ماذا ينبغي إذن لفيكتوريا أن تفعل؟ وجاء الجواب فورياً. إيجاد إدوارد بالطبع.

انتبهت متضايقة. انها كانت تجهل اسم إدوارد الأخير. وتذكرت فيكتوريا قصة تلك الجارية العربية التي جاءت الى انكلترا ولم تكن تعرف سوى اسم عشيقها «جيلبرت»، واسم انكلترا. إنها قصة رومنسية لكنها حقيقية إذ انه في انكلترا إبان الحروب الصليبية، لم يكن أحد يملك اسماً ثانياً أو أخيراً. ومن جهة ثانية فإن انكلترا أكبر بكثير من بغداد. مع ان عدد سكان انكلترا كانوا أقل عدداً يومذاك.

انتشلت فيكتوريا أفكارها من تأملاتها المستطردة وعادت الى أرض الواقع الصعب. يتوجّب عليها أن تعثر فوراً على إدوارد وضروري أن يجد لها هذا الأخير عملاً على الفور.

لم تكن تعرف كنية إدوارد، لكنه كان قدم الى بغداد كسكرتير للدكتور راسبون، والمقدر أن الدكتور راسبون رجل مهم.

بَوْدَرت فيكتوريا أنفها، ورتّبت شعرها ثم نزلت الأدراج لتقصّي المعلومات.

ماركوس الدائم البسمة، حيّاها بإشراق وهي تعبر ردهة فندقه الواسعة.

ـ «آه، الآنسة جونز. هلاّ اتيت معي لنتناول كأساً من الشراب، ألا ترغبين بذلك يا عزيزتي؟ أنا أحب كثيراً الفتيات الانكليزيات. كل سيدات بغداد الانكليزيات صديقات لي. الجميع سعيد جداً في فندقي. هيّا تعالي ندخل الملهى».

لم يكن لدى فيكتوريا أي ضغينة تجاه الضيافة المجانية، فاستسلمت بكل سرور.

جالسة على كرسي تحتسي الشراب، بدأت لتوها التحري عن معلومات.

- «هل تعرف أحداً يدعى الدكتور راسبون، لقد وصل الى بغداد مؤخراً؟».

- «أعرف الجميع في بغداد»، انبرى السيد تيو مرحاً، «والجميع يعرف ماركوس. ما أقوله لك صحيح، آه، لدي الكثير الكثير من الأصدقاء».

ردت فيكتوريا: «أنا متأكدة من هذا الأمر. هل تعرف الدكتور راسبون؟».

- «في الأسبوع الماضي نزل عندي الماريشال الطيّار قائد كل قوى الشرق الأوسط العسكرية. قال لي، يا ماركوس أيها الأزعر لم أرك منذ ١٩٤٦. أنت لم تهزل البتة. آه انه رجل نحيل جداً. أنا أحبه كثيراً».

- «ماذا بشأن الدكتور راسبون. هل هو رجل لطيف؟».

«أتعرفين أنا أحب صنف الناس الذين يستمتعون بحياتهم. لا أحب الوجوه العابسة. أحب أن يكون الناس مرحين، ممتلئين شباباً وجذابين - مثلك أنت. قال لي ذاك الماريشال: «يا ماركوس أنت تعشق النساء»، فأجبته، «لا. مشكلتي اني أحب كثيراً ماركوس...»» ثم انفجر مقهقهاً، توقف بعدها ليهتف: «جيزون» (وهو اسم السيد المسيح بالانكليزية).

ذهلت فيكتوريا، لكنها اكتشفت انه اسم الساقي الأول. وشعرت مرة جديدة باختلاف هذا المكان الذي يدعى الشرق.

أمر ماركوس: «أريد كأسين آخرين».

- «لا أظن اني...».

- «أجل، أجل ستشربين، انه مشروب خفيف، خفيف جداً».

قالت فيكتوريا بإلحاح: «ماذا بشأن الدكتور راسبون؟».

- «السيدة هاميلتون كليب تلك - يا له من اسم غريب - تلك التي حضرت معها أميركية - أليست كذلك؟ - أحب الأميركيين لكني أفضل عليهم البريطانيين. الأميركيون يبدون دائماً قلقين. لكنهم أحياناً ظريفون - السيد سامرز، أنت تعرفينه أليس كذلك؟ - إنه يشرب كثيراً حين يأتي الى بغداد. ينام ثلاثة أيام من غير انقطاع ولا يصحو أبداً. هذا كثير، هذا إسراف.. ليس هذا بالتصرف اللطيف».

- «أرجوك، ساعدني»، قاطعته فيكتوريا فجأة.

بدا ماركوس مندهشاً.

- «لكن بالطبع سأساعدك. أنا أساعد دائماً أصدقائي. قولي لي ماذا تريدين - وسيكون لك هذا على الفور. هل تريدين شريحة لحم محضّرة بطريقة خاصة، أم ديكاً حبشياً مطبوخاً جيداً مع الأرز والزبيب والأعشاب، أم فراخاً صغيرة».

- «لا أريد فراخاً»، ردت فيكتوريا، «على الأقل ليس الآن». ثم أضافت بحذر، «أريدك أن تجد لي الدكتور راسبون. لقد وصل منذ زمن قليل الى بغداد، برفقة سكرتير».

- «لا أعرف»، قال ماركوس، «انه لا يقيم في الـ«تيو».

كان الايحـاء واضحاً. إن أي واحد لا ينزل في فندق تيو غير موجود بالنسبة لماركوس.

ـ «لكن هناك فنادق أخرى»، تابعت فيكتوريا ملحّة، «قد يكون لديه منزله الخاص».

ـ «آه، أجل. هناك فنادق أخرى. قصر بابل، سنحريب، فندق زبيدة. انها فنادق جيدة. لكنها ليست مثل فندق تيو».

ـ «أنا واثقة من هذا»، أكّدت له فيكتوريا، «لكن ألا تعرف ان كان الدكتور راسبون مقيماً في أحدها؟ انه يدير مؤسسة ما. مؤسسة تهتم بالثقافة والكتب».

أصبح ماركوس فجأة جدياً عند ذكر الثقافة وبادر إلى القول: «هذا ما نحن في حاجة اليه. يجب أن يكثفوا النشاطات الثقافية، الفن والموسيقى. هذا جيد جداً، جيد فعلياً. أنا شخصياً أحب السوناتات المعزوفة على الكمان إن لم تكن طويلة».

بينما وافقته كلياً وخصوصاً في ما يتعلق بالقسم الأخير من خطابه، لاحظت فيكتوريا انها لم تكن تقترب ذرة واحدة من هدفها. كان الحديث مع ماركوس مسلياً للغاية، وكان شخصاً جذاباً بحماسته الطفولية وعشقه للحياة. غير أن الحوار معه ذكرها بمحاولات «أليس» لايجاد طريقها الى التلّة في «أرض العجائب». مع تطرقهما الى أي موضوع كانت تجد في النهاية أنهما يعودان الى نقطة الانطلاق الا وهي: «ماركوس!».

رفضت تناول كأس آخر ونهضت حزينة. شعرت برأسها يدور بعض الشيء. كانت تلك الكؤوس التي شربتها قويّة. غادرت الملهى

وخرجت الى الشرفة، وقفت هناك قرب المتكأ تتأمل النهر، حين حدّثها احدهم من خلفها.

ـ «اعذريني. لكن من المستحسن أن تذهبي وترتدي معطفاً. قد يبدو الطقس أشبه بالصيف، وذلك لأنك قادمة من انكلترا، إلا أنه يصبح بارداً جداً بعد غياب الشمس».

كانت السيدة الانكليزية التي كانت تتحدث في وقت سابق مع السيدة كليب. كان صوتها أجش وكأنما هو لواحدة اعتادت تدريب كلاب السباق ومناداتها. كانت ترتدي معطفاً من الفرو وتضع بطانية على ركبتيها. جلست وبين يديها كوب شراب.

ـ «آه. أشكرك». تمتمت فيكتوريا وكانت على وشك الفرار معجّلة حين انبرت المرأة وأفشلت مشروعها.

ـ «يجب أن أقدّم لك نفسي. أنا السيدة كاردو ترانش. (كان ما تريد التلميح اليه جلياً، إنها احدى سيدات عائلة كاردو ترانش الراقية)، أظن انك وصلت مع السيدة ـ ماذا كان اسمها ـ آه هاميلتون كليب».

ـ «أجل»، ردت فيكتوريا، «هذا صحيح».

ـ «لقد أخبرتني انك قريبة لأسقف لانغو».

قالت فيكتوريا ممازحة.

ـ «أهذا صحيح؟» تساءلت بنبرة مرحة.

ـ «لقد فهمت بشكل مغلوط، أليس كذلك؟».

ابتسمت فيكتوريا.

«الأمـيركيـون يتلفظون عادة ببعض أسمائنا بشكل خاطىء. يعتقد البعض أحياناً ان الاسم هو لانغو»، ارتجلت فيكتوريا التبرير بسرعة، «لكنه في الحقيقة لانغواو».

ـ «لانـغواو؟».

ـ «أجل إنها منطقة في أرخبيل المحيط الهادىء. ان عمي هو في الواقع أحد أساقفة المستعمرات».

ـ «آه. أسقف في المستعمرات!»، قالت السيدة كاردو ترانش وقد انخفضت نبرة صوتها ثلاث نغمات على الأقل.

وكما خمنت فيكتوريا كانت السيدة ترانش تجهل تماماً ما يتعلق بأساقفة المستعمرات.

وأضافت السيدة كاردو ترانش: «هذا يفسّر الأمر».

فكـرت فيكتوريا في كبرياء، انها استطاعت خلال وقت ضئيل ابتكار تفسير بمنتهى الذكاء.

وسألت السيدة كاردو ترانش بحشرية طبيعية واضحة: «ماذا جئت تفعلين هنا؟».

لم يكن من المعقول أن يكون جواب فيكتوريا سهلاً إلى حد الرد بـ: «لقد جئت أبحث عن شاب تحدثت اليه بضع دقائق في ساحة عامة في لندن»، لم تكن لتفعل هذا. بل أجابت وقد تذكرت الفقرة التي كانت قرأتها في الصحيفة، وما كانت قالته للسيدة كليب: «لقد جئت للالتحاق بعمي الدكتور باونسفوت جونز».

ـ «آه، لقد فهمت الآن»، وبدا واضحاً أن السيدة كاردو ترانش كانت مسرورة جداً كونها اكتشفت أخيراً حقيقة فيكتوريا. وأردفت،

«انه رجل رائع، مع انه شارد الذهن بعض الشيء. على أية حال أعتقد انها حالة نتوقعها ونفهمها بالتأكيد. لقد سمعت محاضراته السنة الفائتة في لندن. كانت خارقة، على الرغم من أني لم أفهم البتة ما كان يتحدث عنه. أجل لقد مرّ في بغداد منذ أسبوعين تقريباً. أعتقد انه جاء على ذكر بعض الفتيات اللواتي ينتظر مجيئهن في وقت ما عند نهاية هذا الفصل».

بعدما أعدّت فيكتوريا جملتها، عجّلت وطرحت سؤالها بشكل خاطف:

- «هل تعلمين إن كان الدكتور راسبون هنا؟».

- «لقد وصل مؤخراً. أظن انهم طلبوا إليه تقديم محاضرة في المعهد نهار الخميس المقبل. محاضرة عن «العلاقات والأخوّة في العالم»، أو ما يشابه. أشياء عديمة الجدوى حسب رأيي. كلما حاولت جمع الناس يتضاعف الشك لديهم ببعضهم بعضاً. كل هذه الأشعار والموسيقى، وترجمة أعمال شكسبير ووردسوورث الى العربية والصينية والهندوستانية لا علاقة لها بهؤلاء الناس. تصوري قصيدة تحكي عن زهرة الربيع، وغيرها، ماذا ينفع هذا أناساً لم يروا في حياتهم زهرة ربيع؟».

- «أين يقيم الآن، هل تعرفين؟».

- «انه في فندق قصر بابل على ما أظن. غير أن مركزه يقع في مكان ما قرب المتحف. متحف «غصن الزيتون»، انها تسمية مضحكة. والمركز مليء بالفتيات، كلهن يرتدين سراويل فضفاضة، رقابهن متسخة ويضعن نظارات طبيّة».

قالت فيكتوريا: «لدي معرفة ضئيلة بسكرتيره».

ـ «آه. اجل. دعيني أتذكر الاسم. اجل ادوارد «الفتى النحيل» انه شاب لطيف. خسارة أن يضيّع وقته في هذا المركز. لقد أبلى بلاء حسناً في الحرب، كما سمعت. في النهاية العمل هو العمل. انه شاب فاتن. أتصور أن تكون كل أولئك الفتيات الجادّات مغرمات به».

اجتاحت فيكتوريا موجة غيرة عارمة.

ـ «غصن الزيتون»، رددت وسألت، «أين قلت انه يقع؟».

ـ «هناك فوق، خلف المنعطف عند الجسر. في شارع يتشعّب من شارع الرشيد. المركز لا يبعد كثيراً عن سوق النحاس».

وتابعت السيدة كاردو ترانش: «وكيف حال السيدة باونسفوت جونز. هل ستحضر قريباً؟ سمعت انها كانت مريضة؟».

كونها حصلت على المعلومات التي تريد، قررت فيكتوريا عدم المخاطرة، وبالأحرى عدم ابتكار خرافات جديدة. التفتت الى ساعة يدها وانتفضت مذعورة.

ـ «آه. رباه. لقد وعدت السيدة كليب أن أوقظها عند الساعة السادسة والنصف، ومساعدتها للتحضير لرحلتها. يجب أن أنطلق على الفور».

كان العذر صادقاً الى حد ما هذه المرة. إذ ان فيكتوريا كانت ادعت أن موعدها في الساعة السادسة والنصف بينما الوقت الحقيقي للموعد هو السابعة. صعدت الأدراج مهرولة ومبتهجة. غداً سوف تلتقي إدوارد في غصن الزيتون. فتيات جادات برقبات متسخة، أليس كذلك! بدا أنهنّ بشعات... راود فيكتوريا متضايقة، ان الرجال أقل قسوة في حكمهم على ذوات الرقبات المتسخة من

السيدات الانكليزيات الكهلات والمهووسات بالنظافة. وخصوصاً حين تحدق صاحبات تلك الرقبات بعيون تشع افتتاناً وهياماً برجل ما.

مضت العشية بسرعة. تناولت فيكتوريا وجبة عشاء مبكرة مع السيدة كليب، هذه الأخيرة التي كانت تثرثر كالعادة وفي مطلق موضوع تحت الشمس. ألحّت على فيكتوريا الذهاب لزيارتها عند شقيقتها، وقامت الفتاة بتسجيل العنوان في انتباه. في النهاية لا أحد يعلم ما يمكن أن يحصل... رافقت السيدة كليب الى محطة بغداد الشمالية للقطارات، وغادرت بعد أن رتبت لها تماماً كل احتياجاتها وأوصلتها الى مقصورتها داخل القطار. وكانت السيدة كليب التقت في القطار صديقاً قديماً لها، وأخذ على عاتقه مسألة الاعتناء بها ومساعدتها على الذهاب الى الحمّام في صباح اليوم التالي.

بعث محرك القطار أصواتاً أشبه بصرخات حزينة كما لو أن روحاً تتألم. دست السيدة كليب مغلفاً في يد فيكتوريا قائلة: «انها مجرد هديّة تذكارية يا آنسة جونز، لقد كانت رفقتك ممتعة جداً وأرجو أن تقبليها مع شكري الجزيل».

قالت فيكتوريا: «لكن هذا لطيف جداً منك يا سيدة كليب. منتهى اللطف». رددت هذا بغبطة، بينما زعق بوق القطار مرة رابعة وأخيرة وتحرك ببطء ليغادر المحطة.

ركبت فيكتوريا في طريق العودة الى الفندق سيارة اجرة، وكانت تجهل كلياً أي طريق تسلك نحو أي مكان آخر، ولم تلمح مطلق شخص كان يمكن أن يساعدها.

حين وصلت الى فندق تيو، ركضت فوق الدرجات ودخلت غرفتها. فتحت المغلف متلهفة، في داخله وجدت زوج جوارب من النايلون.

لو كانت فيكتوريا تلقت هذه الجوارب النايلون في أي وقت آخر لكان أسعدها هذا كثيراً، ذلك لأن ميزانيتها لم تكن تؤمن لها هذا الترف أبداً. غير أنها في هذه اللحظة كانت في حاجة ماسة الى المال، وتمنت لو لم تكن السيدة كليب بهذه الدرجة من اللباقة. ليتها وضعت خمسة دنانير ولم تخجل من ذلك.

على أية حال، غداً ستلتقي ادوارد. خلعت فيكتوريا ملابسها، استلقت على الفراش وغفت في سرعة. حلمت انها تقف في مطار ما بانتظار ادوارد، غير أن واحدة بنظارات طبيّة منعته من الوصول اليها. كانت تلك الفتاة تعانقه متشبثة برقبته بينما كانت طائرته تتحرك لتطير...

الفصل الحادي عشر



استفاقت فيكتوريا وكانت شمس الصباح تشع مشرقة. ارتدت ملابسها وخرجت الى الشرفة الواسعة المتصلة بغرفة نومها. على مسافة قريبة جلس رجل على كرسيّ مديراً لها ظهره وكانت خصلات شعره البيضاء المجعدة منسدلة على رقبته السمراء القوية. حين ادار الرجل رأسه الى الجانب فوجئت فيكتوريا مكتشفة انه السير روبرت كروفتون لي. لماذا فوجئت الى هذا الحد، لم تستطع هي نفسها أن تفسر. ربما لأنها كانت افترضت بطبيعة الحال، ان شخصية مهمة كالسير روبرت كان يقيم في السفارة وليس في فندق. في مطلق الأحوال هوذا أمامها، يحدق في دجلة بتركيز شديد. لاحظت أيضاً وجود منظار الى جانب كرسيه، وافترضت انه يهوى مراقبة العصافير.

مرة أعجبت فيكتوريا بشاب يهوى مراقبة العصافير ورافقته خلال عدة عطلات أسبوعية. كانت مجبرة على الوقوف من دون ادنى حراك في الغابات الممطرة وفي الرياح الجليدية لمدة ساعات، وكل هذا لتنظر في النهاية عبر المنظار الى عصفور ما كئيب المظهر على غصن بعيد. وعلى الرغم من ابتهاج ذاك الشاب بالمنظر فإن أياً

من تلك العصافير لم يستطع لفت انتباهها أكثر من أي عصفور عادي.

تابعت فيكتوريا ونزلت الى الطابق الأرضي حيث التقت ماركوس تيو على الشرفة التي تفصل بين عمارتي الفندق.

قالت له: «أرى ان السير روبرت كرفتون لي نزيل عندك».

ـ «آه. أجل». رد ماركوس مبتسماً، «انه رجل لطيف، لطيف جداً».

ـ «هل تعرفه جيداً؟».

ـ «لا هذه أول مرة أراه. لقد أحضره الى هنا البارحة السيد شريفنهام أحد موظفي السفارة البريطانية. السيد شريفنهام رجل ممتاز أيضاً. انا أعرفه جيداً».

تابعت فيكتوريا لتتناول فطورها، وتساءلت ما إذا كان هناك أحد لا يعتبره ماركوس لطيفاً. كان يشبه مؤسسة خيرية.

بعد الافطار انطلقت فيكتوريا تبحث عن «غصن الزيتون».

كانت تتكلم بلكنة لندنية خالصة، ولم تكن لديها أدنى فكرة، عن صعوبة العثور على مكان معيّن في مدينة مثل بغداد، حتى بدأت مسعاها.

التقت ماركوس مرة أخرى وهي خارجة وسألته أن يدلّها الى طريق المتحف.

أجاب ماركوس مبتسماً: «انه متحف جميل. أجل. مليء بالتحف المهمة والقديمة جداً جداً. انا شخصياً لم أذهب الى هناك. لكن لدي أصدقاء. أصدقاء هم علماء آثار. ينزلون هنا دائماً حين يأتون

الى بغداد. السيد بايكر، السيد ريتشارد بايكر هل تعرفينه؟ والبروفسور كالزمان؟ والدكتور باونسفوت جونز ـ والسيد والسيدة ماكينتاير ـ كلهم ينزلون في الـ«تيو» انهم أصدقائي. ويخبرونني عن موجودات المتحف. أشياء في غاية الأهمية».

ـ «أين يقع. وكيف يمكنني الوصول الى هناك؟».

ـ «تمشين في اتجاه مستقيم عبر شارع الرشيد ـ الطريق طويل ـ بعد منعطف جسر فيصل وخلف شارع المصارف ـ هل تعرفين شارع المصارف؟».

ردت فيكتوريا: «لا أعرف شيئاً».

ـ «ثم هناك شارع آخر. ينحدر أيضاً من الجسر وفي اتجاه اليمين. اسألي هناك عن السيد بتون ايفانز، انه مستشار انكليزي هناك ـ انه رجل طيب جداً. وزوجته أيضاً طيبة جداً. لقد جاءت الى هنا كرقيب مواصلات ابان الحرب. آه انها لطيفة جداً جداً».

ـ «في الواقع انا لست ذاهبة الى المتحف»، وأضافت فيكتوريا، «انا أبحث عن مكان ـ مركز ـ أو ناد يدعى «غصن الزيتون»».

ـ «إن كنت تريدين زيتوناً»، انبرى ماركوس وتابع، «أستطيع أن أعطيك زيتوناً ممتازاً من النوعيّة الفاخرة. انهم يحفظونه لي خصيصاً، لفندق تيو. سترين، سأبعث لك أنموذجاً منه الى طاولة عشائك هذه الليلة».

رددت فيكتوريا وهي تهرب في اتجاه شارع الرشيد: «هذا لطيف جداً منك».

هتف ماركوس في إثرها: «إلى اليسار، لكن الطريق طويلة الى المتحف. من الأفضل أن تذهبي في سيّارة تاكسي».

ـ «أوهل يعرف سائق التاكسي أين يوجد مركز «غصن الزيتون؟»».

ـ «لا انهم لا يعـرفـون أين يقـع أي شيء. يجب أن توجهي السائق. الى اليمين، الى اليسار، توقف. تقدم الى أن تصـلي الى حيث تريدين الذهاب».

ـ «في هذه الحالة أفضل أن أمشي»، ردت فيكتوريا.

أدركت شارع الرشيد وانعطفت الى اليسار.

كانت بغداد مختلفة تماماً عما تخيّلت أن تكون. شارع مكتظ بالبشر، سيارات تجوْر بشراسة، أناس يزعقون، بضاعة أوروبية في واجهات المتاجر، بصاق ونخامة كالشلالات. لا وجوه شرقية سريّة الملامح. معظم الناس في أسمال أو في ملابس أوروبية بالية. أيضاً في ملابس عسكرية ولا سيما ملابس سلاح الجو قديمة وممزقة. الهيئات العابرة بأثواب سوداء وبرؤوس محجّبة كانت تقريباً غير مرئية وسط تلك الأزياء الأوروبية الهجين. شحاذون منتحبون كانوا ينقضّون عليها من كل الجهات. نسوة يحملن أطفالاً قذرين بين أذرعهن.

تابعت سيرها وقد شعرت فجأة بالغرابة والتيه والغربة. لم يكن هناك أيّ سحر في السفر، بل ارتباك وتشوّش.

وصلت أخيراً الى جسر فيصل، قطعته وتابعت. ثم جذبها رغماً عنها خليط الأشياء الغريبة في واجهات المتاجر. كان هناك أحذية أطفال مع ملابس صوفية، أنابيب معجون أسنان ومستحضرات تجميل، مشاعل كهربائية، أكواب صينية وصحون. كل هذه البضاعة في واجهة واحدة.

مع الوقت تملكهـا نوع من الافتتـان. افتتـان بتلك البضاعة المنوّعة المحتشدة من كل صوب من العالم لتؤمن حاجيات ورغبات مجموعة بشرية هجين.

عثرت على المتحف، لكنها لم تجد «غصن الزيتون». كان أمراً غير قابـل للتصـديق بالنسبة لواحدة اعتادت التجول بكل سهولة في لندن، أن لا تجد هنا مطلق شخص يمكن حتى أن تسأله. لم تكن تتكلم العربية. أصحاب المتاجر الذين تحدثوا اليها بالانكليزية وهي تعبـر مستعرضين بضاعتهم، كانوا يقفون مشدوهين حيث كانت تسألهم عن الاتجاه الموصل الى مركز «غصن الزيتون».

لو كان الواحد يستطيع فقط أن يسأل شرطياً. غير أنها نظرت اليهم وهم يلوّحون بأذرعهم وينفخون صفّاراتهم، وأيقنت انها لن تصل الى نتيجة.

دخلت مكتبة تحوي كتباً انكليزية في واجهتها. إلا أن ردة الفعل الوحيدة التي حصلت عليها حين ذكرت «غصن الزيتون» كان هزّة رأس وكتف مستهجنة. للأسف لم تكن لديهم أية فكرة عن كل هذا.

وبينمـا كانت تسـير بعدها عبر الشارع، سمعت طرقاً ورنيناً صاخبين تدفقا باتجاهها من زقاق معتم. تذكرت عندها أن السيدة كاردو ترانش كانت قالت لها إن «غصن الزيتون» يقع قرب سوق النحاس. لقد وجدت على الأقل سوق النحاس.

انـدفعت فيكتـوريا داخل السوق وطوال ثلاثة أرباع الساعة التـالية نسيت كلياً «غصن الزيتون». سحرها شارع النحّاسين. مصابيح الزجاج المنفوخ، النحاس الذائب، بهرها عالم الحرفيين

وهي الفتاة اللندنية التي لم تشاهد من قبل سوى بضاعة جاهزة ومعروضة للبيع، تجوّلت عشوائياً داخل السوق ثم عبرت سوق النحّاسين وأدركت سوقاً تكدست فيه البطانيات المقلّمة وأغطية الأسرّة المنجّدة. هنا بدت البضاعة الأوروبية غير أليفة بين القناطر والعتمة الرطبة. بل انها اتخذت طابعاً غريباً كشيء آت من وراء البحار. شيء عجيب ونادر. كانت البالات البخسة القطنية ذات الألوان المبهرجة تعكس في الأعين بهجة كالعيد.

بين الحين والآخر كانت تسمع هتافات: «بالك، بالك»، وتمر قربها حمير محمّلة أو بغال، أو عتالون تتأرجح فوق ظهورهم أحمال ثقيلة. كان أولاد صغار يندفعون اليها وقد تدلت أمامهم صوانٍ علقت برقابهم:

– «انظري يا سيدتي، انه بلاستيك جيد، بلاستيك انكليزي. أمشاط. أمشاط انكليزية؟».

كانوا يدفعون اليها الصواني، يحشرونها تحت أنفها يحثّونها بإلحاح على الشراء. كانت فيكتوريا تسير وكأنها في حلم سعيد. هذا ما يسمى فعلياً بمشاهدة العالم. في كل زاوية من أزقة ذلك العالم البارد من القناطر كان يمكن أن تطلع لك أشياء غير متوقعة: رفاق خيّاطين جلسوا يدرزون على ماكنات خياطة وانتشرت حولهم صور أزياء أوروبية رجّالية. ثم بعدها بسطات ساعات يد وجواهر رخيصة ومزيفة. بالات أقمشة مقصّبة ومطرزة. وفي الشارع التالي ملابس أوروبية مستعملة رخيصة ومكربة، بنطلونات شاحبة وسترات مهلهلة.

بين الفترة والأخرى كانت تعبر ساحات ساكنة مشرّعة الى السماء.

وصلت الى ممر واسع تباع فيه البنطلونات الرجّالية، حيث جلس تجار محترمون بعماماتهم داخل متاجرهم المنفصلة.

«بالك!».

كان حمار محمل يتجه نحوها، فانعطفت ودخلت زقاقاً ضيقاً مشرعاً لنور الشمس. تابعت تسير بين بيوت مرتفعة. وبينما هي تتجول وصلت صدفة الى المكان الذي كانت تبحث عنه. عبر فتحة نظرت الى باحة صغيرة مربعة وإلى الناحية البعيدة منها قرأت باباً صغيراً كتب فوقه بأحرف عريضة «غصن الزيتون». الى جانب الاسم ثبت شكل قد يشبه العصفور وفي منقاره غصن لا علاقة له بالأغصان.

عجّلت فيكتوريا مسرورة وعبرت الساحة ثم الباب المشرع. ووجدت نفسها داخل غرفة بالكاد مضاءة وبين طاولات مغطّاة بالكتب والمجلات، ورفوف مثقلة بالكتب المرصوفة بدا المكان أشبه بمكتبة لولا الكراسي القليلة المنتشرة هنا وهنالك.

أطلت من العتمة القليلة امرأة شابة وحدثت فيكتوريا بلكنة انكليزية وقورة:

ـ «بماذا يمكن أن أساعدك؟».

نظرت اليها فيكتوريا. كانت ترتدي بنطالاً مخملياً مضلعاً، وقميصاً قطنياً برتقالياً من دون أكمام. كان شعرها الأسود المزيّت مقصوصاً قصيراً كالأطفال وبطريقة مقيتة. كان وجهها تعيساً،

وعيناها واسعتين حزينتين فوق أنف كبير.

ـ «هل هذا، هل هنا، هل، هل الدكتور راسبون موجود هنا؟».

اغضبها أنها لا تزال الى الآن تجهل اسم عائلة إدوارد! حتى السيدة كاردو ترانش أسمته إدوارد «الفتى النحيل».

ـ «أجل. الدكتور راسبون. هنا مركز غصن الزيتون. هل ترغبين في الانضمام الينا؟ أجل؟ هذا جيد جداً».

ـ «في الواقع، ربما. أود ـ هل أستطيع مقابلة الدكتور راسبون إن سمحتِ؟».

ابتسمت المرأة الشابة ابتسامة متعبة.

ـ «لا حاجة لإزعاج الدكتور. لدي هنا استمارة. سوف أطلعك على كل ما فيها. ثم توقعين اسمك. يتوجب أن تدفعي دينارين».

قالت فيكتوريا وقد ذعرت عند ذكر الدينارين: «لست واثقة بعد إن كنت سأنضم اليكم. أود مقابلة الدكتور راسبون أو سكرتيره. سكرتيره قد يفي بالغرض».

ـ «سأشرح، سأشرح لك كل شيء. نحن كلنا أصدقاء هنا، أصدقاء من أجل المستقبل. نقرأ كتباً تثقيفية جيدة، ونقرأ القصائد لبعضنا بعضاً».

قالت فيكتوريا بصوت مرتفع وواضح: «أريد رؤية سكرتير السيد راسبون، لقد قال لي هو بنفسه أن أسأل عنه هنا».

تجهم وجه المرأة الشابة.

قالت: «ليس اليوم، سأوضح...».

ـ «لماذا ليس اليوم؟ أليس هنا؟ أليس الدكتور راسبون هنا؟».

ـ «أجل. الدكتـور راسبون مـوجود. انـه في الطبقة العليـا. نحن لا نزعجه عادة».

شعـرت فيكتـوريـا في سلوك المـرأة الشابة بما يشبه العداء الأنكلوسـاكسوني تجاه الغرباء. وللأسف بدل أن يكون «غصن الزيتـون» مثالاً في المودة والصداقة بين الشعوب، فقد كان يفعل العكس. هذا ما شعرت به هي على الأقل.

انبـرت فيكتـوريا قائلة: «لقد وصلت للتو من انكلترا»، وكانت تتكلم بلكنة تشبه الى حد بعيد لكنة السيدة كاردو ترانش المتعالية، «إني أحمل رسالة في غاية الأهمية الى الدكتور راسبون، وأريد أن اسلّمهـا له شخصياً. أرجو أن توصليني اليه في الحال!، اعتذر لإزعاجه، لكن ينبغي أن أراه».

وأضافت: «على الفور»، لتحسم الأمر.

غالباً ما كانت تتساقط العقبات أمام بريطاني متعجرف يرغب في تحقيق مراده. استدارت المرأة الشابة على الفور وقادتها الى الغرفة الخلفية ثم الى الطبقة العليا، الى باحة تطل على الساحة الأمامية. هناك توقفت أمام باب. وقرعت. ردّ صوت رجل: «أدخل».

فتحت المرأة الشابة وأشارت اليها بالدخول.

ـ «إن آنسة من انكلترا تطلب مقابلتك».

دخلت فيكتوريا.

انبثق رجل من وراء مكتب يعج بالأوراق وأقبل للترحيب بها.

كان رجـلاً مسناً ذا هيبة، عمره حوالى الستين. جبينه مرتفع أشبه بقبة تحت شعر أبيض. كانت الرقة، عمل الخير واللطافة أبرز السمات البارزة في شخصيته. أي مخرج مسرحيات كان أعطاه من دون تردد دور شخصية محبة للبشر.

حيّا فيكتوريا بابتسامة دافئة وبذراع ممدودة.

قال: «إذاً لقد وصلت للتو من انكلترا. أهذه أول زيارة لك إلى الشرق؟».

- «أجـل».

- «أتمنى لو أعرف كيف تشعرين الآن... يجب أن تخبريني يوماً ما. والآن قولي لي، هل سبق أن التقيتك أم لا؟ ان نظري ضعيف ولم تقولي لي اسمك بعد؟».

ردت فيكتوريا: «أنت لا تعرفني، لكني صديقة لإدوارد».

- «صديقة لإدوارد»، انبرى الكدتور راسبون في حماسة، «آه هذا رائع، هل يعرف إدوارد انك هنا؟».

أجابت فيكتوريا: «ليس بعد».

- «جيد، ستكون هذه مفاجأة سارة له حين يعود».

- «يعود؟»، سألت فيكتوريا بصوت مخنوق.

- «أجل، ادوارد موجود في البصرة الآن. لقد توجب أن أرسله لاستلام صناديق كتب وصلت الينا هناك. كان تأخر استلامها بسبب صعوبات مع الجمارك. مما استوجب تدخل شخص خبير في هذه الأمور. وإدوارد يجيد التصرف في هكذا أوضاع. يعرف جيداً متى يكون لطيفاً ومتى يتصرف بعنف، ولا يهدأ له بال حتى ينجز

الأمر. انه دقيق جداً وهذه خاصيّة ممتازة في رجل شاب. اني أتوقّع الكثير من إدوارد».

التمعت عينا فيكتوريا فرحاً.

ـ «لا أظن اني في حاجة لإنشاد مدائح في إدوارد أمامك انت، أيتها الشابة؟».

سألت فيكتوريا برقة: «متى ـ متى سيعود إدوارد من البصرة؟».

ـ «لا أستطيع أن أعرف الآن. لن يعود قبل انهاء عمله. لا تستطيعين تسريع عجلة الأمور كثيراً في هذه البلاد. أخبريني أين تسكنين وسأعلمه بكل تأكيد كيف يتصل بك حالما يعود».

قالت فيكتوريا يائسة وهي تعي تماماً مأزقها المادي: «كنت أتساءل إن، إن كنت أستطيع أن أقوم بأي عمل هنا؟».

قال الدكتور راسبون في حرارة: «أني ممتن جداً، اجل بكل تأكيد تستطيعين. نحن في حاجة لكل مساعدة متوافرة. وخصوصاً إن كانت من فتيات انكليزيات. ان عملنا يسير بشكل بديع ـ بمنتهى الروعة ـ لكن ينبغي علينا انجاز الكثير. الناس متحمسون جداً. لدي الى الآن ثلاثون متطوعاً. ثلاثون. جميعهم متحمسون جداً. إن كنت حقيقة جادة بشأن العمل ستقدمين لنا بذلك عوناً كبيراً».

قالت: «في الواقع رغبت بوظيفة مأجورة».

ـ «آه»، وبدت المفاجأة على وجه الدكتور، «هذا في الواقع صعب. إن عدد موظفينا المأجورين محدود جداً. والآن وبوجود المتطوعين، أظن ان هذا غير ممكن أبداً».

ـ «أنا في حاجة ماسة الى عمل»، فسّرت فيكتوريا وأضافت من دون خجل، «أنا ضاربة ممتازة على الآلة الكاتبة».

ـ «أنا متأكد انك كفوءة يا سيدتي الصغيرة، انك تشعّين كفاءة. لكن حتى ولو حصلت على وظيفة في مكان آخر، آمل أن تساعدينا في أوقات فراغك. معظم المتطوعين لدينا يعملون في أمكنة أخرى في وظائف ثابتة. أنا واثق انك ستجدين في مساعدتنا متعة كبيرة. يجب أن يوضع حد لكل الوحشية في العالم، للحروب، لسوء الفهم والشك. نريد مكاناً مشتركاً للقاء، هذا ما نحن في حاجة اليه، مكان للمسرح، للفن، وللشعر، لنتاجات الروح، لا مكان للغيرة الحقيرة والضغائن.

ـ «بالتأكيد»، قالت فيكتوريا من غير اقتناع، فيما تذكرت صديقات لها عملن في حقلي التمثيل والفن وكان هاجس حياتهن الأولى الغيرة وبأسوأ انواعها، والحقد الشديد المخيف.

ـ «لقد قمنا بترجمة «حلم ليلة صيف» الى أربعين لغة»، وأضاف الدكتور راسبون، «أربعون مجموعة من الشبان تفاعل كل منها وعلى طريقته مع تحفة أدبية واحدة. الشباب، هذا هو سّرنا. لا يهمني سوى الشبّان. المهم هو أن يتلاقى هؤلاء. خذي مثالاً هذه الفتاة التي في الأسفل، كاترين. تلك التي اصطحبتك الى هنا. إنها سوريّة من الشام. ان لديكما تقريباً العمر نفسه. كان من غير الممكن أن تلتقيا، لا شيء يجمعكما. لكن هنا في «غصن الزيتون»، يتسنى لك ولها وللكثيرين الآخرين من جنسيات مختلفة الالتقاء. هناك روس يهود، عراقيون، فتيات تركيات، أرمن، مصريون، إيرانيون، كل هؤلاء يلتقون بمحبة ويقرأون الكتب عينها

ويتناقشون في الموسيقى والفنون (وسوف ننظم محاضرات قريباً). الجميع يكتشف ويتحمس لاكتشاف وجهات نظر مختلفة - في النهاية هذا هو المعنى الحقيقي للعالم».

خطر لفيكتوريا أن الدكتور راسبون متفائل أكثر من اللزوم في تقويمه أن هذه المجموعة المختلفة والمتناقضة ستتبادل الود والمحبة في النهاية. هي وكاثرين على سبيل المثال لم تتفقا على الاطلاق. وخامرها ان هذا النفور بينهما سوف يتضاعف إذا التقتا مرات أخرى.

قال الدكتور راسبون: «إدوارد شاب رائع. لديه مقدرة على التفاهم مع أي كان. أظن على أية حال انه ينجح أكثر مع الفتيات. يجد التلامذة الشبان صعوبة أكثر في التأقلم هنا. يرتابون في البداية ويصبحون أحياناً عدائيين. لكن الفتيات يعشقن إدوارد، يفعلن أي شيء من أجله. هو وكاثرين بشكل خاص متفقان على أحسن ما يرام».

- «فعلاً»، قالت فيكتوريا في برودة وقد ازدادت كراهيتها لكاثرين أكثر وأكثر.

وقال الدكتور راسبون مبتسماً: «مرّي وساعدينا إن كنت تستطيعين».

كان اللقاء خائباً. صافحها في حرارة. وغادرت فيكتوريا الغرفة ونزلت الدرجات. كانت كاثرين واقفة قرب الباب تتحدث الى فتاة كانت دخلت للتو وفي يدها حقيبة صغيرة. كانت فتاة سمراء جميلة؛ وراود فيكتوريا انها كانت رأتها في مكان ما من قبل. لكن تلك الفتاة نظرت اليها بغير مبالاة. كانت الفتاتان تتحادثان مأخوذتين بلغة ما

لم تفقههـا فيكتوريا. توقفتا حيث أطلت عليهما وبقيتا صامتتين ومحدقتين فيها. اجتازتهما في اتجاه الباب مجبرة نفسها على أن تقول في تهذيب: «وداعاً»، لكاثرين وهي على وشك الخروج.

استـطاعت فيكتـوريـا ايجـاد طريق الخروج من ذاك الزقاق المكشوف الى شارع الرشيد، وتابعت تسير متمهلة نحو الفندق غير منتبهـة لأي شيء حولها. حاولت أن تركّز أفكارها على التفكير في الدكتور راسبون و«غصن الزيتون» كي تنسى قليلاً مأزقها (مفلسة في بغداد). كان إدوارد ذكر في لندن أن ثمة أمراً مريباً في شأن هذا المـركز. ما هو هذا الأمر المريب؟ أهو الدكتور راسبون؟ أم مركز «غصن الزيتون» بالذات؟

لم تكن تستوعب حتى قبول فكرة الشك بالدكتور راسبون. فقد رأت فيه واحداً من أولئك المتفائلين الضالّين الذين يصّرون على رؤية العالم بطريقتهم الخاصة المثالية، غير آبهين اطلاقاً للواقع.

ماذا عن إدوارد بالتحـديـد حين قال «مريب»؟ كان هو نفسه مشتت الأفكار، وربما لم يكن يعلم أي شيء.

هل من المعقول أن يكون الدكتور راسبون كاذباً ومزيفاً؟

لم يكن في وسع فيكتوريا تصديق ذلك وهي لما تزل تحت تأثير شخصيته وسلوكه الأنيقين والمتميزين. لقد تغيّر تصرفه معها بعض الشيء بالتأكيد حين طلبت إليه وظيفة مأجورة. كان من الواضح انه يفضل أن يعمل الناس لديه مجاناً.

وفكرت فيكتوريا ان هذا لم يكن بالأمر الغريب. إذ ان السيد غرينهولز مخدومها السابق مثلاً كان يتصرف مثله تماماً حيال هذا الموضوع.

الفصل الثاني عشر



أدركت فيكتوريا أخيراً فندق تيو وقد تورّمت قدماها. رحّب بها ماركوس في حماسة شديدة وكان يتحدث الى رجل متوسط العمر رث المظهر، وهما على الشرفة الخضراء المطلة على النهر.

ـ «تعالي وشاركينا في كأس من المشروب يا آنسة جونز. أي مشروب تفضلين؟ أعرّفك الى السيد داكين. انها الآنسة جونز من انكلترا. والآن يا عزيزتي ماذا تطلبين؟».

اختارت فيكتوريا مشروباً وطلبت أيضاً فستقاً. وقد تذكرت أن الفستق مغذٍ جداً.

ـ «رباه. أنت تحبين الفستق!» وأمر ماركوس على الفور بالعربية بإحضار مبتغاها. قال السيد داكين بصوت تعس انه يريد كوباً من الليموناضة.

ـ «آه»، صرخ ماركوس، «ان هذا سخيف. آه ها هي السيدة كاردو ترانش. هل تعرفين السيد داكين؟ ماذا تشربين؟».

اختارت السيدة كاردو ترانش مشروباً واحنت راسها بغير مبالاة للسيد داكين. ثم توجهت قائلة لفيكتوريا: «تبدين مستنفرة».

ـ «كنت أتجول لأتعرف الى المكان».

حين أحضروا المشروبات التهمت فيكتوريا كمية كبيرة من الفستق وأيضاً بعض رقائق البطاطا المقلية.

حضر الآن رجل قصير القامة قوي البنية ورحّب به ماركوس المضياف بطريقته المعتادة. عرفه الى فيكتوريا بأنه الكابتن كروسبي وحملق هو فيها بعينيه الجاحظتين. واستنتجت فيكتوريا انه كان حساساً تجاه الجمال الأنثوي.

ـ «هل وصلت اليوم؟».

ـ «البارحة».

ـ «لكني لم أرك هنا أبداً».

قال ماركوس مسروراً: «انها لطيفة وجميلة، أليست كذلك؟ آه، نعم، أمر رائع أن تكون الآنسة فيكتوريا عندنا. سوف أنظِّم لها حفلاً ـ حفلة لطيفة جداً».

ـ «أجل. أجل. سيكون هناك كافيار وسمك ـ أسماك من دجلة، وكل هذا مع الصلصة والفطر. ثم ديك حبش محشو على طريقة بلادي، مع الرز والزبيب والتوابل. آه هذا عظيم، لكن يجب أن تأكلوا كمية كبيرة، وليس مجرد ملعقة صغيرة، أو ان كنتم تفضّلون سأحضر شرائح لحم. شرائح كبيرة وطريّة. سوف أهتم بالأمر شخصياً. سنقيم عشاءً مديداً يستمر ساعات. أنا شخصياً لا أتناول الطعام. أنا أشرب فقط».

ـ «سيكون هذا بديعاً»، قالت فيكتوريا بصوت خافت. فيكتوريا الجائعة، أشعرتها مواصفات اللحم التي عددها بدوار خفيف. تساءلت إن كان ماركوس يرغب جدياً في إقامة الحفلة، وإن كان هذا صحيحاً فهل سيكون الموعد قريباً.

توجهت السيدة كاردو ترانش الى كروسبي قائلة: «كنت أتصور انك ذهبت الى البصرة».

قال كروسبي: «لقد عدت البارحة».

نظر الى الأعلى نحو الشرفة.

سأل: «من هو قاطع الطرق هذا؟ ذاك الذي في المعطف العجيب والقبعة الكبيرة؟».

رد ماركوس: «هذا يا عزيزي هو السير روبرت كروفتون لي. السيد شريفنهام أحضره من السفارة الليلة الماضية. انه رجل لطيف جداً. انه رحّالة متميز. انه يركب الجمال عبر الصحاري ويتسلق الجبال. ان حياة كهذه تكون شاقة وخطرة جداً. انو ليست بالتأكيد النوع الذي يناسبني».

قال كروسبي: «آه. انه هو. لقد قرأت كتبه».

قالت فيكتوريا: «لقد أتينا في الطائرة نفسها».

لاحظت أن الرجلين نظرا اليها باهتمام.

تابعت فيكتوريا في استخفاف: «انه متعجرف للغاية ومزهوّ بنفسه».

بدأت السيدة كاردو ترانش قائلة: «لقد عرفت خالته سيملا. كل العائلة على هذا الطراز. أذكياء بالوراثة، لكن لا قدرة لهم على عدم التبجح بهذا».

قالت فيكتوريا مستنكرة: «انه ما زال يجلس هناك من دون حركة طوال الصباح».

قال ماركوس مفسراً: «انه يعاني من معدته. لا يستطيع تناول أي طعام اليوم. هذا محزن».

قالت السيدة كاردو ترانش: «لا أفهم كيف انك بهذه البدانة وانت لا تتناول أبداً أي طعام».

أجاب ماركوس: «انه المشروب. أنا أكثر المشروب. ستحضر هذه الليلة شقيقتي وزوجها. سوف أحتسي وأحتسي المشروب حتى الصباح». تنهد مجدداً ثم أصدر كالعادة هديره المفاجيء وهتف: «جيسوس، جيسوس أحضر لنا المزيد من المشروب».

أسرعت فيكتوريا تقول: «أنا لا أريد». ورفض السيد داكين أيضاً منهياً كوب الليموناضة وابتعد متمهلاً. فيما صعد كروسبي الى غرفته.

نقرت السيدة كاردو ترانش كوب السيد داكين بظفرها وقالت: «ليموناضة كالعادة؟ هذه علامة سيئة».

سألت فيكتوريا عن السبب الذي جعل هذا علامة سيئة.

- «يحتسي الرجل مثل هذا المشروب حين يكون وحيداً فقط...».

- «أجل يا عزيزتي»، قال ماركوس، «هذا صحيح».

سألت فيكتوريا: «هل هذا يعني انه يحتسي المشروب حقيقة».

ردت السيدة كاردو ترانش: «هذا هو سبب فشله الدائم. انه لا ينجح أبداً. كل ما يفعله هو المحافظة على عمله ولا شيء آخر».

قال ماركوس: «لكنه رجل لطيف جداً».

أجابت السيدة كاردو ترانش: «ياه. انه كسول للغاية وعديم

الطموح ـ لا قوة فيه ـ لا ذرة حياة. مجرد انكليزي أتى الى الشرق وسقط في غيبوبة».

شكرت فيكتوريا ماركوس على المشروب ورفضت تناول آخر. صعدت الى غرفتها، خلعت حذاءها واستلقت على السرير لتفكّر ملياً. لم تعد تملك قرشاً واحداً، فكل ما في حوزتها ينبغي أن تدفعه بدلاً لغرفتها لدى ماركوس. وكان لا يمكن أن تحيا على المشروب والفستق والزيتون ورقائق البطاطا لأجل طويل. انها مجرد أيام وسيطالبها ماركوس بفاتورتها ولن يصبر طويلاً إن تأخرت. ينبغي إذاً أن تجد مكاناً ارخص للسكن. لكن كيف ستعرف الى أين تتوجه؟ يجب أن تعثر بسرعة على عمل. لكن أين يمكن أن تسأل عن عمل. كانت في بلد لا تعرف عنه شيئاً ولا عن أحد من أهله، ومفلسة، وشعرت وكأنها مشلولة. كان الأمر أشبه بالكابوس. متى سيعود إدوارد من البصرة؟. وفكرت (مذعورة) أن يكون إدوارد قد نسيها كلياً. لماذا أتت بحق السماء الى بغداد بهذه الطريقة البلهاء. من وما هو إدوارد في النهاية؟ مجرد شاب جذاب ولبق. وماذا، ماذا. ماذا. ما هو اسم عائلته؟ لو كانت تعرف هذا لكانت بعثت اليه برقية ـ لا فائدة. لم تكن تعرف حتى أين يقيم. لم تكن تعلم شيئاً ـ هذه كانت المشكلة، هذا ما كان يشلّ قدرتها وأسلوبها.

ولم يكن يوجد أي واحد تستطيع أن تقصده للاستشارة. ليس ماركوس بالتأكيد، فقد كان لطيفاً لكنه غير مستعد أبداً للاستماع الى أحد. ولا السيدة كاردو ترانش (التي كانت تشك فيها منذ البداية). ولا السيدة هاميلتون كليب التي اختفت في كركوك. ولا الدكتور راسبون.

يجب أن تحصل على بعض المال ـ أو على عمل ـ أي نوع من العمل. حاضنة أطفال. الخدمة في مطعم... وإذا لم يحصل هذا فسوف يرسلونها الى القنصلية ومن هناك سيرجعونها الى انكلترا ولن ترى إدوارد أبداً من جديد...

عند هذه المرحلة، أنهكها الهمّ وغفت.

استفاقت بعد ساعات وقررت بما أنه محكوم عليها بالهلاك على أية حال فليكن ذنبها مهماً على الأقل. نزلت الى المطعم وطلبت كل قائمة الطعام ـ قائمة سخية جداً. حين انتهت من تناول الطعام شعرت وكأنها متورمة من كثرة ما أكلت، لكن معنوياتها ارتفعت على أية حال.

فكرت فيكتوريا: «لن ينفعني القلق بعد الآن، سأترك كل شيء الى الغد. قد يجدّ شيء ما، أو قد أفكر في وسيلة ما، وربما قد يعود ادوارد».

قبل أن تعود الى النوم تنزهت قليلاً على التراس قرب النهر. كان ساكنو بغداد يعتبرون الطقس الحالي شتاء قطبياً، ولم يكن أحد يخرج. كان هناك فقط أحد الخدم وقد انحنى على الشرفة يراقب المياه، غير أنه هرول مغادراً على الفور حين ظهرت فيكتوريا.

بالنسبة لفيكتوريا القادمة من انكلترا كانت هذه مجرد ليلة صيف عادية. فتنها منظر دجلة تحت ضوء القمر، وبدت الضفة البعيدة غامضة وشرقية وقد سوّرها شجر البلح.

تمتمت فيكتوريا لنفسها: «في مطلق الأحوال، لقد وصلت الى هنا. وسأتدبر أمري بوسيلة ما. لا بد وأن يطرأ شيء ما».

رددت هذا وارتدت عائدة الى غرفتها لتنام. وانسل النادل مجدداً في هدوء الى الخارج الى ضفة النهر.

بعد وقت قليل خرج من وراء الظلال شخص وانضم اليه. تحدث السيد داكين بصوت خفيض:

ـ «هل كل شيء على ما يرام؟».

ـ «أجل سيدي. لا شي مريباً الى الآن».

حين اطمأن السيد داكين تراجع الى الظلال سار في تمهل عبر الترّاس الى أن وقف بمحاذاة ضفة المياه.

قال كروسبي: «لقد أضحت الأمسيات باردة هذه الأيام». وكان خرج من وراء حاجز قريب لينضم اليه، «كنت أظن ان هذا لن يزعجك وقد عدت للتو من طهران».

وقفا هناك دقيقة يدخنان. ما كان في مقدور أحد أن يسمعهما إن هما لم يرفعا صوتيهما.

قال كروسبي في هدوء:

ـ «من تكون الفتاة؟».

ـ «يبدو انها كما يقال قريبة عالم الآثار باونسفوت جونز».

ـ «هذا جيد، لكن قدومها في الطائرة نفسها مع كرفتون لي...».

قال داكين: «من الأفضل أن لا نطمئن الى أي شيء».

دخّنا صامتين لبعض الوقت.

قال كروسبي: «هل تظن حقاً انه من المستحسن نقل الشيء من السفارة الى هنا؟».

- «أجل. أعتقد هذا».

- «وعلى الرغم من أن كل شيء معد سابقاً ومسجل وبأدق التفاصيل؟».

- «لقد كان معداً ومسجلاً الى أصغر التفاصيل في البصرة. وقد سارت الأمور بشكل سيىء».

- «آه. أعرف في المناسبة، لقد قتلوا بالسمّ صلاح حسن».

- «أجل - هذا بديهي. هل من تحرشات بالقنصلية هناك؟».

- «أظن انه كان هناك شيء من هذا النوع. حدث شجار بسيط. رفع أحدهم مسدساً»، توقف ثم أضاف، «لقد أمسك به ريشارد بايكر وانتزع منه المسدس».

قال داكين مفكراً: «ريتشارد بايكر».

- «أنت تعرفه؟ انه...».

- «أجـل أعرفـه».

قال داكين بعد صمت:

- «الارتجال. هذا ما نعتمد عليه في الدرجة الأولى. لو قمنا كما تقول بتسجيل كل شيء - واكتشفت خططنا. فسيكون من أسهل ما يكون أن يقوم الجانب الآخر بتسجيل تسجيلنا. لا أعتقد البتة أن يستطيع كارمايكل الاقتراب من السفارة - ولو أدرك حتى السفارة...» وهز رأسه بقلق.

- «هنا لا يعرف أحد سوى أنت وأنا وكروفتون لي حقيقة ما يجري».

- «سوف يعرفون من السفارة ان كروفتون لي انتقل الى هنا».

ـ «آه بالطبع. لا يمكن تحاشي هذا. لكن ألا تفهم يا كروسبي، سوف نرتجل مجدداً في مواجهة أي مخطط سيواجهون به ارتجالنا. سوف ينقضون علينا من الخارج. لا مجال لأن يكون المهاجم مقيماً في فندق تيو وفي انتظارنا منذ ستة أشهر. لم تنشد الأنظار الى الـ«تيو» إلا مؤخراً. لم يخطر مرة ولم يقم أحد باقتراح فندق تيو كمكان للاجتماع من قبل.

نظر الى ساعة يده: «سأصعد الآن وأرى كروفتون لي».

لم يضطر داكين الى قرع باب السير روبرت. لقد انفتح في هدوء أمامه ليدخل.

كان الرحّالة قد أشعل فقط مصباح قراءة ضئيل ووضع كرسيه قربه. وهو يجلس من جديد وضع في نعومة على الطاولة مسدساً أوتوماتيكياً صغيراً والى مسافة قريبة من يده.

قال: «ماذا تقول يا داكين. هل تعتقد انه سيأتي؟».

ـ «أظن هذا. نعم يا سير روبرت». ثم أضاف، «أنت لم تلتق به من قبل، أليس كذلك؟».

هز الآخر رأسه موافقاً:

ـ «لا لكنني أتوق في لهفة الى هذا اللقاء الليلة. لا بد وأن هذا الشاب يا داكين بمنتهى الشجاعة».

ـ «آه، أجل»، قال داكين بصوته العريض، «انه شجاع وبدا الى حد ما متفاجئاً. كان يردد شيئاً يعتبره واقعاً ولا حاجة حتى لقوله».

ـ «لا أقصد فقط الشجاعة»، قال الآخر، «شجاعة رائعة في الحرب ـ عظيم. أعني...».

ـ «الـمخيّلة؟» قال داكين مقترحاً.

ـ «أجل. أن تكون لديه الشجاعة لتصديق شيء ليس محتملاً على الاطلاق. وأن يجازف بحياته ليكتشف إن كانت تلك القصة السخيفة غير سخيفة أو غير خيالية البتة. إن هذا الأمر يحتاج الى قناعة ليست موجودة عموماً عند شاب معاصر. اتمنى أن يحضر».

قال داكين: «أظن انه سيأتي».

رمقه سير روبرت في حدّة.

ـ «هل قمت بإعداد كل شيء؟».

ـ «كروسبي موجود على الشرفة. وسأراقب أنا الأدراج. حين يصل اليك كارمايكل أطرق على الحائط وسأدخل في الحال».

هز كروفتون لي رأسه موافقاً.

انسل داكين في نعومة خارج الغرفة. توجه الى اليسار ثم الى الشرفة ومشى في اتجاه الزاوية البعيدة. هناك كان تدلى حبل مرقط من فوق الحافة نزولاً الى الأرض في ظل شجرة أوكاليبتوس ودغل أشجار قرنية.

عاد السيد داكين الى غرفته الملاصقة لغرفة السير روبرت. كان لغرفته باب آخر يوصل الى الممر خلف الغرف. وكان يفتح أيضاً على بعد أمتار قليلة من قمة الأدراج. كان الباب مشقوقاً قليلاً ووقف داكين وراءه مراقباً بكل حواسه.

بعد مضي ما يقارب الأربع ساعات ترقرق قارب بدائي مستسلماً لتيّار دجلة ثم رسا الى جانب الضفة الموحلة قرب فندق تيو. وبعد ثوان قليلة تسلقت هيئة نحيلة الحبل وانطلقت الى الداخل.



الفصل الثالث عشر



كانت فيكتوريا قد نوت الاخلاد الى النوم متناسية ومؤجلة كل مشاكلها إلى الصباح الآتي. لكن كونها نامت معظم ما بعد الظهيرة لم يكن بمقدورها اغماض جفن.

في النهاية أشعلت الضوء وأنهت قراءة قصة كانت بدأت قراءتها سابقاً في احدى المجلات في الطائرة. خلعت جوربيها وجرّبت ذينك الجديدين اللذين من النايلون. ثم قامت بكتابة إعلانات مختلفة تطلب فيها عملاً ما (في مقدورها أن تسأل في الغد عن المكان المناسب لنشرها). ثم حاولت أكثر من مرة نص رسالة الى السيدة هاميلتون كليب، مبتكرة ظروفاً ومصادفات عجيبة انتهت بها مشردة ومتروكة في هذا البلد الغريب. ثم نصت برقية الى قريب لها، ولم يكن لها غيره في الواقع. كانت تستنجد به علماً انه عجوز جداً وبخيل وبغيض ولم يساعد أحداً طوال حياته. ثم قامت بتبديل تسريحة شعرها. وحين تثاءبت فجأة رأت انها نعسى جداً وعلى أهبة للنوم والراحة.

في تلك اللحظة بالذات ومن غير إنذار انفتح باب غرفتها بقوة، انسل رجل الى الداخل، أدار المفتاح في القفل خلفه وقال لها في الحاح:

ـ «بحق الله خبئيني في مكان ما ـ في سرعة ...».

لم تكن ردات فعل فيكتوريا أبداً بطيئة. فقد لاحظت في سرعة رفّة جفن تنفسه المتسارع وصوته المقطوع، وأيضاً الطريقة التي كان يتمسك فيها بشال أحمر قديم ومطرز. كان يضغطه فوق صدره بيدين يائستين متشبثتين. وهبت معجلة لتتصرف وتشترك في المغامرة.

لم تكن في الغرفة احتمالات مخابىء كثيرة. كان هناك خزانة، طاولة، صندوق بجوارير، وطاولة صغيرة. كان السرير عريضاً في قياس سرير مزدوج تقريباً. عادت الى ذاكرتها على الفور لعبة الغمّيضة التي كانت تلعبها طفلة وكانت ردة فعلها فورية.

قالت له: «أسرع». انتشلت الوسائد ثم رفعت الشرشف والبطانية. تمدد الرجل إزاء قمة السرير وغطّته بالشرشف والبطانية ثم وضعت الوسائد فوقهما وجلست هي نفسها الى حافة السرير.

في اللحظة عينها تقريباً سمعت طرقاً خفيفاً وملحاً على بابها.

هتفت فيكتوريا: «من هناك؟» بصوت ضعيف ومتيقظ.

ـ «رجاء»، قال صوت رجل من الخارج «افتحي ان سمحت، إنها الشرطة».

تقدمت فيكتوريا نحو الباب وهي تلف حولها الروب دو شامبر. وهي تفعل هذا رأت شال الرجل الأحمر مرمياً على الأرض تناولته ودسّته في أحد الجوارير. أدارت المفتاح وفتحت الباب قليلاً وحدقت كأنها مبغوتة.

وقف في الخارج شاب أسود الشعر في زي بنفسجي مقلّم وخلفه رجل من الشرطة في زي ضابط.

ـ «ما المسألة؟» سألت فيكتوريا بصوت مذعور.

ابتسم الشاب ابتسامة عريضة وتكلم بإنكليزية جيدة.

ـ «انا آسف أيتها الآنسة لازعاجك في هذه الساعة، لكننا نبحث عن مجرم فار. لقد دخل الى هذا الفندق ويجب أن نفتش كل الغرف. انه رجل خطير جداً».

تراجعت فيكتوريا مشّرعة الباب وصرخت: «رباه!»، أدخلا أرجوكما وفتشا. كم هذا مخيف. فتشا في الحمّام رجاء. آه. وفي الخزانة. أيضاً تحت السرير إن سمحت. يعقل انه كان يختبىء هنا طوال ما بعد الظهيرة».

كان التفتيش سريعاً جداً.

ـ «لا، انه ليس هنا».

ـ «هل أنت متأكد أنه ليس تحت السرير؟ بالطبع لا. آه كم أنا حمقاء. ليس معقولاً أن يكون هنا أبداً. لقد أقفلت الغرفة حين نمت».

ـ «شكراً آنستي. وعمت مساء».

إنحنى الرجل الشاب شاكراً وانسحب مع مساعده الشرطي.

تبعتهما ڤيكتوريا الى الباب وقالت: «من الأفضل أن أقفل الباب مجدداً أليس كذلك؟ هكذا أكون آمنة».

ـ «أجل، هذا هو المفضل بالتأكيد. شكراً».

أقفلت فيكتوريا الباب مجدداً ووقفت قربه بضع دقائق. سمعت الشرطيين يقرعان بالطريقة نفسها الباب المواجه في الممر، وسمعت الباب ينفتح. سمعتهما يتبادلان الحديث مع السيدة كاردوترانش بصوتها الأجش، ثم أقفل الباب، سمعته يفتح بعد دقائق وابتعدت خطواتهما في الممر. ثم قرعا من جديد على باب في نهاية الممر.

استدارت فيكتوريا واجتازت الغرفة نحو السرير. خطر لها انها ربما تصرفت بشكل أحمق. انها استسلمت لخيالها الرومنسي، ولصوت من لغتها وساعدت من هو محتمل أن يكون مجرماً خطيراً للغاية. اختيار مناصرة المطارَد ومعاداة المطارِد لا يكون دائماً سليم العواقب. حسناً، فكرت فيكتوريا لقد تورطت في الأمر على أية حال!

وقفت قرب السرير وقالت باقتضاب:

ـ «انـهـض».

لم يتحرك. فقالت فيكتوريا في حدة لكن من غير أن ترفع صوتها:

ـ «لقد غادرا. يمكنك النهوض الآن».

وأيضاً لم تكن أدنى حركة تحت كومة الوسائد. فاقدة الصبر انتزعت فيكتوريا كل الأغطية.

كان الشاب ممدداً كما تركته بالضبط. لكن لون وجهه كان الآن قاتماً وعيناه مغلقتين.

مسترجعة أنفاسها لاحظت فيكتوريا شيئاً آخر. كانت هناك بقعة دم قانية تنزّ من الشرشف.

قالت فيكتوريا وكأنما تناشد أحدهم: «آه. لا. آه. لا. لا».

فتح الشاب المجروح عينيه وكأنما رداً على التماسها، حدّق فيها وكأنه ينظر من مكان بعيد جداً الى شيء لم يكن متأكداً من رؤيته.

انفصلت شفتاه ـ وكان الصوت ضعيفاً وبالكاد سمعته فيكتوريا.

انـحـنـت.

ـ «مـاذا؟».

سمعت هذه المرة. في صعوبة، في صعوبة شديدة سمعت الشاب يتلفـظ كلمتـين. لم تعرف فيكتوريا ما إن كانت سمعتهما بشكل صحيح. بدتا لها سخيفتين ومن دون معنى. ما قاله كان: «لو سيفر ـ بصرة...».

ثم هبط جفناه ورفاً فوق عينيه القلقتين الواسعتين. لفظ كلمة واحدة أخرى ـ إسماً. ثم انتفض رأسه الى الوراء قليلاً وفقد الحراك.

وقفت فيكتوريا صامتة من دون حراك. كان قلبها يخفق في شدة وملء مهجتها أحاسيس الشفقة والغضب. لم تكن تعرف الآن كيف ستتصرف. ينبغي أن تنادي أحدهم. أن تحضر أحداً ما. ها هي وحيـدة مع رجل ميت. عاجلاً أم آجلاً سوف تطلب إليها الشرطة تفسيراً ما.

بينمـا كان عقلهـا يفكر في سرعة محللاً الوضع جعلها صوت ضعيف تدير رأسها. كان سقط مفتاح باب غرفتها، وبينما نظرت اليـه سمعت صوت انفتـاح قفل الباب. فُتحَ الباب ودخل السيد داكين مقفلاً في عناية الباب وراءه.

تقدم اليها وهو يقول في هدوء:

ـ «انجاز رائع يا عزيزتي. انك تفكرين في سرعة، كيف حاله؟».

قالت فيكتوريا بصوت منقبض:

ـ «أظن انه... أنه مات».

رأت وجه الآخر يتبدل، ارتدى لحظة انفعال غضباً شديداً. ثم استعاد سريعاً الهيئة التي كانت رأته فيها اليوم السابق، سوى انها لاحظت انه ليس الرجل المترهل والمرتبك الذي عرفته. كان رجلاً آخر تماماً.

انحنى، وفك في نعومة السترة الرثة.

قال داكين وقد وقف: «لقد طعنوه في دقة في القلب. كان شاباً شجاعاً وذكياً أيضاً».

استعادت فيكتوريا صوتها: «لقد حضرت الشرطة، قالوا انه مجرم. هل كان مجرماً؟».

ـ «لا، لم يكن مجرماً».

ـ «هل كانا، هل كانا من الشرطة؟».

قال داكين: «لا أعرف. قد يكونان. لا فرق على أية حال».

ثم سألها: «هل قال شيئاً ـ قبل أن يموت؟».

ـ «أجـل».

ـ «مـاذا قـال؟».

ـ «قال لوسيفر ـ ثم بعدها البصرة. ثم بعد توقف تفوّه باسم. بدا وكأنه اسم فرنسي ـ لكني أعتقد أني لم أسمعه جيداً».

ـ «كيف بدا لك الاسم؟».

ـ «أظن انه كان لو فارج».

ـ «لو فارج»، ردد داكين مفكراً.

قالت فيكتوريا: «ماذا يعني كل هذا»، وأضافت فزعة، «وكيف سأتصرف؟».

أجابها داكين: «يجب أن نخرجك من هذه الورطة في أسرع وقت ممكن. أما الذي يحدث فسأشرحه لك في وقت لاحق. يجب أن نعثر أولاً على ماركوس. فهذا الفندق هو فندقه وهو صائب الرأي، على الرغم من أنه لا يوحي بذلك. سوف أعثر عليه. لا أظن انه نام. انها فقط الواحدة والنصف. نادراً ما ينام قبل الساعة الثانية. قومي فقط بترتيب مظهرك قبل أن أحضره. ان ماركوس شديد التأثر عند رؤية امرأة جميلة في محنة».

غادر الغرفة. مشت في اتجاه المرآة كما لو أنها في حلم، مشّطت شعرها الى الخلف. جمّلت وجهها بمسحوق بل في الواقع فعلت ما كان يشبه العكس إذ جعلته شاحباً إنما بواسطة المسحوق. ثم ارتمت منهكة على الكنبة وهي تسمع اقتراب وقع خطوات. دخل داكين من غير أن يقرع ودخل وراءه جسم ماركوس تيو الضخم.

هذه المرة تصرف ماركوس بجديّة. لم تكن أي ابتسامة على وجهه.

انبرى داكين قائلاً: «والآن يا ماركوس ينبغي أن تفعل ما في وسعك حيال هذا. لقد كان ما جرى صدمة كبيرة لهذه الفتاة المسكينة. لقد اقتحم هذا الشاب الغرفة منهاراً. إن قلبها طيب جداً، لقد خبأته عن عيون الشرطة. والآن انه ميت. لم يكن يجدر

بها ربما أن تفعل هذا. لكن قلوب الفتيات رقيقة للغاية».

انبرى ماركوس مجيباً: «طبعاً هي لا تحب الشرطة. لا أحد يحب الشرطة. أنا لا أحب الشرطة. لكن يتوجب عليّ أن أكون طيباً معهم من أجل فندقي. هل تريدني أن أرشيهم بالمال؟».

ـ «نريد فقط أن نبعد الجثة من هنا وفي هدوء».

ـ «هذا جيد جداً يا عزيزي. وأنا أيضاً لا أريد جثة في فندقي. لكن الأمر في الحقيقة ليس في هذه السهولة؟».

قال داكين: «أعتقد أنه يمكن القيام بذلك. لديك طبيب في عائلتك، أليس كذلك؟».

ـ «أجل. بول زوج أختي. انه طبيب. انه شاب لطيف جداً. لكن لا أريد توريطه في مشاكل».

قال داكين في سرعة: «لن يتورط بأي شيء. اسمع يا ماركوس. أولاً ننقل الجثة من غرفة الآنسة جونز الى غرفتي. وهكذا نكون أنقذناها من الورطة. ثم استخدم هاتفك. بعد عشر دقائق يندفع شاب مترنح من الشارع ويدخل فندقك. يكون سكران غير قادر على الوقوف. ثم يسأل عني بصوت مرتفع. يجتاح بعدها غرفتي وينهار واقعاً على الأرض. أخرج أنا بعدها وأطلب طبيباً. عندها تأتي بصهرك. وهذا يبعث في طلب سيارة اسعاف ويذهب برفقة الذي من المفترض أن يكون صديقي السكران. قبل أن يصلا الى المستشفى يموت صديقي. لقد كان طعن بخنجر. وهكذا تكون أنت خارج المسألة كلياً. لقد طعن على الطريق قبل دخوله الفندق.

وهكذا يبعد صهرك الجثة، ويغادر الشاب الذي مثّل دور السكران الفندق في هدوء في الصباح.

ـ «هذا هو المقصود».

ـ «ولا أحد يعثر على جثة في فندقي؟ ولا تقلق الآنسة جونز ولا يزعجها أحد؟ أعتقد يا عزيزي ان هذه فكرة خارقة».

ـ «جيد. أريدك أن تعمل على أن لا يكون هناك أحد في الجوار. سوف أقوم بنقل الجثة الى غرفتي. خدمك يجولون بين الغرف طوال نصف الليل تقريباً، عد الى غرفتك وافتعل شجاراً. اجعلهم يفتشون لك عن أي شيء».

هز ماركوس رأسه موافقاً وغادر الغرفة.

قال داكين لفيكتوريا: «أنت فتاة قوية. هل تستطيعين مساعدتي في حمله عبر الرواق الى غرفتي».

وافقت فيكتوريا بانحناءة من رأسها. وحملا الجثة وعبرا بها الرواق المقفر (كان يمكن سماع صوت ماركوس في البعيد غاضباً ومزمجراً)، ثم مدداها على سرير داكين.

قال داكين: «هل لديك مقص؟ قصي الجزء المبقع بالدم على شرشفك. لا أظن أن الدم وصل الى الفراش. لقد امتصت سترته معظمه. سوف أزورك بعد ساعة تقريباً. لحظة انتظري. اشربي قليلاً من قارورة المياه هذه».

أطاعته فيكتوريا وشربت.

قال داكين: «انك فتاة عاقلة. والآن عودي الى غرفتك. أطفئي النور. وكما قلت لك سأعود اليك بعد ساعة تقريباً».

ـ «وستخبرني ماذا يعني كل هذا؟».

حدق فيها طويلاً بشكل غريب لكنه لم يجبها على سؤالها.



الفصل الرابع عشر



تمددت فيكتوريا على الفراش في العتمة متنصتة. سمعت لغطاً صاخباً لرجل سكران.. ثم سمعته يقول: «خطر لي أن أزورك أنا العجوز».

كان شجاراً مع شخص ما في الخارج، ثم سمعت رنين أجراس. وبعد فترة فوضى عارمة حلت فترة سكون موازية، ما عدا صوت موسيقى عربية تناهى اليها من آلة أسطوانات في غرفة أحد ما. بعد مضي وقت أحسته ساعات طويلة سمعت انفتاح باب غرفتها. قعدت على فراشها وأضاءت مصباح السرير الصغير.

قال داكين: «لقد تمت الأمور على ما يرام».

أحضر كرسياً الى جانب السرير وجلس. قعد محدقاً فيها بطريقة تشبه تلك التي يستخدمها الطبيب إبان تشخيصه حالة مريضه.

قالت فيكتوريا: «أخبرني ما كل هذا الذي يجري؟».

اجاب داكين: «أفضّل لو تخبرينني أنت أولاً ماذا تفعلين هنا؟ ولماذا جئت الى بغداد؟».

لم تعرف فيكتوريا إن كان ما أثّر فيها هو أحداث تلك الليلة أم

شخصية داكين بالذات (وتأكدت لاحقاً انها شخصيته) وجعلها تعرض عن تلفيق سلسلة من الأكاذيب المبتكرة مبررة وجودها في بغداد. أخبرته في كل صراحة وفي بساطة كل شيء. لقاؤها مع إدوارد، وتصميمها على القدوم الى بغداد، ثم ضربة الحظ الخارقة التي جمعتها بالسيدة كليب وفي النهاية وضعها المالي المعدم.

قال داكين حين انتهت: «فهمت».

حلّ صمت لأكثر من دقيقة قبل أن يتكلم مجدداً.

- «ربما أود أن أبقيك خارج كل هذه المسألة، لست متأكداً. لكن المشكلة انه لم يعد في الامكان أن تبقي على الحياد! لقد تورطت إن قبلت أنا أو لا. وبما أنك تورطت يمكنك أن تعملي معي».

أصلحت فيكتوريا قعدتها على الفراش وتورد خداها حماسة، «هل لديك وظيفة لي؟».

- «ربما، ولكن ليست كالوظائف التي تفكرين فيها. هذه وظيفة مهمة وجدّية يا فيكتوريا. انها وظيفة خطرة».

قالت فيكتوريا مسرورة: «آه، لا مشكلة لدي». وأضافت في قلق، «لست مخادعة، أليس كذلك؟ على الرغم من أني اعترف اني الفّق الكثير من الأكاذيب. لكني في الواقع لا أحب أن أقوم بأي شيء مخادع».

ابتسم داكين قليلاً.

- «قد يبدو الأمر شاذاً، لكن قدرتك على ابتكار كذبة سريعة ومقنعة هي احدى مواصفات هذه الوظيفة. ولا أقول ان هذا غير

شريف. بل بالعكس. انك منخرطة في قضيّة حقّة وصحيحة. سوف أضعك في الأجواء ـ فقط في صورة عامة، لتعرفي على الأقل وتفهمي ماذا تفعلين وما هي بالتحديد المخاطر التي أنت فيها. أظن انك فتاة حساسة ولم تفكري كثيراً في شأن السياسة العالمية. على أية حال فالمسألة هي كما لاحظ هاملت بذكاء كبير، «لا وجود لما هو خير أو شر، غير أن التفكير يجعلهما كذلك».

قالت فيكتوريا: «أعرف أن الجميع يقول انه ستقوم حرب جديدة عاجلاً أم آجلاً».

ـ «بالضبط»، انبرى داكين قائلاً، «لماذا يردد الجميع هذا يا فيكتوريا؟».

قالت فيكتوريا مرتبكة: «لماذا. لأن روسيا ـ الشيوعيون ـ أميركا ـ» وتوقفت.

ـ «أترين»، قال داكين، «هذه ليست وجهات نظرنا فقط أو مجرد كلمات. لقد التقطها الناس من الصحف من الكلام اليومي وغيره. هناك وجهتا نظر مختلفتان مسيطرتان في أنحاء مختلفة من العالم. هذا هو الواقع. والوجهتان هاتان ممثلتان بشكل عشوائي في ضمائر الناس. «روسيا الشيوعية» و«أميركا». مقصودنا الأساسي هو احلال السلام، هذا هو أمل المستقبل الوحيد. لكن كل مرة تحين فرصة للوصول الى اتفاق ما بين هاتين الوجهتين، يحصل فجأة حادث ويسبب مجدداً فقدان الثقة لدى احدى القوّتين او تقع في خوف هستيري. وهذه الحوادث ليست البتة مجرد حوادث يا فيكتوريا، إنها مؤامرات تحاك بمكر شديد كي تسبب بالتمام هذا التأثير أو ردة الفعل».

ـ «لكن لماذا تظن ان هذا يحصل ومن يقوم بذلك؟».

ـ «أظن ان السبب الرئيسي وراء ذلك هو المال. المال المدفوع من مصادر شريرة. المال يا فيكتوريا هو مفتاح كل ما يحدث في العالم. المال هو الدم الذي يغذي أية حركة أو قضية عظيمة. من دونه لا يستطيع أحد الحراك. لقد دفعت مبالغ ضخمة جداً من المال. ومع أنه تمّ تمويه مصدر المال ووجهته بمنتهى المهارة والذكاء، إلا أن هناك بالتأكيد شيئاً مريباً في الأمر. ينظم الشيوعيون اضرابات كثيرة غير شرعية، ويشكلون تهديدات مختلفة لحكومات أوروبية تحاول الوقوف على أقدامها. إلا أن الأموال اللازمة لهذه التدابير لا تأتي من مصادر شيوعية. وإن تتبعنا أثرها وجدنا أنها تأتي من جهات غريبة جداً ومن مصادر لا يشتبه فيها على الاطلاق. وفي موازاة ذلك تجتاح أميركا وبلدان أخرى موجة متصاعدة من الخوف من الشيوعية، تكاد تصل الى درجة الهلع الهستيري. وهنا أيضاً نجد أن الأموال لا تأتي من الجهات المناسبة. ليس المال مالاً رأسمالياً على الرغم من أنه يمر طبعاً عبر جهات رأسمالية.

من جهة ثالثة يبدو كأن مبالغ كبيرة من المال تتوارى كلياً. ارتفع في أرجاء العالم الطلب على الماس والأحجار الكريمة الأخرى. وهذه المجوهرات تختفي فجأة بعد أن يكون تناقلها أكثر من عشرة أطراف.

ما فسّرته ليس بالتأكيد سوى صورة بدائية للوضع. ذروة القول هو ان طرفاً ثالثاً ما زال هدفه غير واضح، يعمل على إثارة الخلافات وهو متورط في هكذا عمليات تمويه وانتقال المجوهرات لمصلحته الخاصة. لدينا دلائل تشير الى أن هذه المجموعة لها عملاء في جميع

البلدان. بعضهم مقيم فيها منذ سنوات عدة. بعض هؤلاء العملاء يحتل مناصب رفيعة ومحترمة جداً. في حين أن البعض الآخر يلعب أدواراً متواضعة. لكنهم جميعاً يعملون من اجل هدف واحد مجهول. في الجوهر. ان الأمر يشبه نشاطات الطابور الخامس في بداية الحرب العالمية الثانية. إنما هذه المرة على صعيد عالمي».

سألت فيكتوريا: «لكن من هم هؤلاء الأشخاص؟».

- «نعتقد انهم ليسوا من جنسية معينة. وأخشى أن يكون ما يسعون اليه هو تحسين العالم. يتوهّمون انه يمكن بالقوة فرض العدالة المطلقة على البشر. وهذا أحد أخطر الأوهام. إن الذين لا يبتغون سوى المال لا يسببون عادة ضرراً كبيراً. إذ ان الجشع يهزم نفسه في النهاية. لكن الايمان بوجود طبقة متفوقة من البشر، بوجود رجال خارقين يحكمون بقية العالم المنحط. هذا يا فيكتوريا هو أسوأ المعتقدات. عندما يقول المرء انه ليس كباقي الناس يكون قد فقد اثنتين من أنبل الميزات التي نحاول التمتع بها، وهما: التواضع والأخوّة».

تنحنح ثم تابع: «حسناً لنترك المواعظ. دعيني أشرح لك ماذا نعرف بالتحديد. لديهم مراكز عدة للعمليات. هناك واحد في الأرجنتين. واحد في كندا. وهناك مركز من دون أدنى شك في أميركا وربما أكثر من مركز. وأعتقد انه لا بد وأن يكون هناك واحد في الاتحاد السوفياتي. لكن هذا غير مؤكد. والآن نصل الى الظاهرة المهمة جداً.

اختفى على مدى السنتين الماضيتين ثمانية وعشرون عالماً شاباً من مختلف الجنسيات. ولقد حدث الشيء نفسه لمجموعة من

المهنـدسين والطيّارين وخبراء الكهرباء، ولعدد كبير من أصحاب الطاقات الأخرى. هناك صفات مشتركة بين كل هؤلاء المتواريين: انهم جميعهم من الشبان الطموحين والذين ليست بينهم صلات قربى. الى جانب الذين نعرفهم لا بد وأن هناك آخرين كثرين. ولقد بدأنا نخمّن ما هم بصدد انجازه».

استمعت فيكتوريا وقد رفعت حاجبيها.

ـ «قد تقولين انه من غير المعقول في هذه الأيام أن يجري أي شيء في بلد ما ولا يكون معروفاً في بقية العالم. أنا لا أعني بالطبع اكتشاف النشاطات الداخلية الصغيرة. ما أقصد هو قيام مشروع أو انجاز من النوع الضخم لشيء لم يصنع من قبل. ولكن على الرغم من ذلك هناك أماكن نائية جداً في العالم، بعيدة عن الطرقات التجارية، مقطوعة خلف الجبال والصحاري، وسط أناس يتجنبون الأغراب، ولا يزورهم إلا نادراً أحد الرحّالة المحترفين. يمكن أن تجري أمور كثيرة هناك من غير أن يعلم بها العالم الخارجي، وربما فقط عبر إشاعة هزيلة أو مضحكة.

لا أستطيع أن أحدد البقعة بالتحديد. يمكن الوصول الى المكان عبر الصين ولا أحد يعلم ماذا يجري داخل الصين. يمكن إدراكه أيضاً بعبور جبال الهملايا لكن العبور من هناك شاق وطويل جداً وأيضاً اكثر اماناً.

لقد وصلت الى هناك معدات وآليات وايضاً عمال من كل انحاء الكرة الأرضية بعدما تحوّل كل هذا في مرحلة ما عن الأمكنة الأساسية التي كان أرسل اليه تمويهاً.

لكن رجلاً واحداً قرر أن ينطلق ملاحقاً أثراً ما وجده. كان رجلاً

غير عادي. رجل لديه أصدقاء ومصادر معلومات في الشرق برمته. كان وُلد في كشغر وهو يتقن مجموعة كبيرة من اللغات واللهجات المحلية. لقد شك في أمر وانطلق في أثره. ما سمعه كان غير قابل للتصديق الى درجة انه حين عاد الى العالم المتحضر من جديد وقدم تقريراً عن الأمر لم يصدقه أحد. اعترف انه أصيب بالحمى وانه عولج كرجل مصاب بالبطاح.

رجلان فقط صدّقا روايته. كان أحدهما أنا. أنا لا اتردد أبداً في تصديق الأشياء المستحيلة ـ فهي غالباً ما تكون صحيحة. والرجل الآخر...».

ثم تردد.

قالت فيكتوريا: «أجـل».

ـ «الرجل الآخر كان السير روبرت كروفتون لي. انه رحّالة عظيم. ورجـل سافر هو نفسه الى تلك المناطق النائية وكان يعرف بعض الأشياء عن احتمالاتها.

ذروة ما حدث كان ان كارمايكل، وهو رجل المخابرات الخاص بي، قرر التوجه الى هناك والتحقق بنفسه. كانت رحلة يائسة ومليئة بالمخاطر، لكنه امتلك قدرات لم تكن لمطلق رجل آخر. كان هذا منذ تسعة اشهر. لم نسمع شيئاً عن أخباره إلا قبل بضعة أسابيع. وصلتنا الأخبار. كان لا يزال حياً ولقد حصل على المعلومات التي انطلق في أثرها. لقد حصل على الاثبات المبرم.

لكن الجـانب الآخر كان يطارده للقضاء عليه. كان منعه من العـودة، مع وثـائقـه امراً في غاية الأهمية بالنسبة اليهم. ولدينا

براهـين ناجعـة عن آليـة انتشـار وتسّرب الأوامر والمعلومات الى عمـلائهم هنـاك. حتى تسربت معلومـات من قسمي أنا بالذات. وبعض هذه التسّربات، مصدرها أشخاص في أعلى مستويات المسؤولية.

لقـد راقبـوا في مطاردته كل منافذ الحدود. وسقط العديد من الضحايا البريئة خطأً على اعتبار انه هو ـ الأرواح البشرية هي آخر همّ في بالهم. لكنه استطاع بطريقة أو بأخرى الافلات والنجاة ـ ما عدا هذه الليلة».

ـ «إذاً كان ذاك الذي ـ كان هو؟».

ـ «أجل يا عزيزتي. شاب شجاع لا يقهر».

ـ «ماذا عن الدلائل؟ هل حصلوا على الاثبات؟».

ارتسمت ابتسامة بطيئة على وجه داكين المتعب.

ـ «لا أعتقد انهم استطاعوا ذلك. حسب معرفتي بكارمايكل انا متأكد انهم فشلوا بذلك. لكنه مات من غير أن يستطيع أن يخبرنا أين هي هذه الاثباتات وكيف ستتمكن من الحصول عليها. أظن انه حاول أن يعطينا مفتاحاً للّغز عندما كان على وشك أن يموت. وردد ببـطء: «لو سيفر ـ بصرة ـ لو فارج». لقد كان في البصرة. حاول أن يتصل بالقنصلية ولكنه نجا بواسطة الحظ من محاولة لقتله. يحتمل انه ترك الاثباتات في مكان ما في البصرة. ما أريد أن تفعليه هو الذهاب الى هناك ومحاولة تقصي الأمر».

ـ «أنـا؟».

ـ «أجل. أنت ليست لديك خبرة. لا تعرفين عمّا تبحثين. لكنك

سمعت كلمـات كارمـايكل الأخيرة وقد توحي اليك بشيء ما حين تصلين الى هناك. من يدري ـ قد يحالفك حظ المبتدىء؟».

ـ «أود من كل قلبي الذهاب الى البصرة»، قالت فيكتوريا في توق.

ابتسم داكين.

ـ «هذا يناسبك لأن رجلك هناك. أليس كذلك؟ هذا جيد. انه تمويه ممتاز أيضاً. لا شيء أفضل من قصة غرام حقيقية للتمويه. اذهبي الى البصرة وافتحي عينيك وأذنيك جيداً وانتبهي لكل شيء حولك. لا أستطيع أن أعطيك أية تعليمات أو أن ألقنك الطريقة التي ستستخدمينها في مسعاك. من الأفضل أن لا أفعل. تبدين شابة ذكيـة ويمكنـك الاعتمـاد على طاقتك. ماذا تعني كلمتا لو سيفر ولو فارج ، لست أعرف. ان سلّمنا انك سمعت جيداً. قد أوافقك في تخمينك أن لو فارج هو اسم. ابحثي عن هذا الاسم».

قالت فيكتوريا بنبرة عملية: «كيف سأذهب الى البصرة؟ ومن أين أحصل على المال؟».

انتشل داكين محفظته وناولها رزمة من الأوراق النقدية.

ـ «هذا هو المال الذي تحتاجينه. أما عن طريقة الوصول الى البصرة فستعرفينها إن أنت افتعلت حواراً غداً صباحاً مع السيدة كاردو ترانش العجوز. قولي لها انك متشوّقة لزيارة الى البصرة قبل شروعـك في العمـل الذي كنت ادعيت القـدوم الى هنا من أجله. اسأليها عن عنوان فندق ما. ستقول لك على الفور أن تقيمي أولاً في القنصلية وستبعث هي برقية الى السيدة كلايتون. قد تلتقين إدوارد هناك. إن عائلة كلايتون يستقبلون عادة معظم العابرين في البصرة. لا أستطيع أن أعطيك معلومات أكثر، ما عدا واحدة. إن..

آه.. إن تعرضت لأي حادث. إن استجوبوك وسألوك عما تعرفين ومن كان وراء الذي تقومين به، لا تحاولي أن تكوني بطلة. اعترفي على الفور».

قالت فيكتوريا ممتنّة: «أشكرك، أنا جبانة جداً أمام الألم، إن أراد أحدهم تعذيبي سأخاف وسأنهار سريعاً».

قال داكين: «لن يزعجوا أنفسهم بتعذيبك. التعذيب أصبح أسلوباً بالياً. حقنة صغيرة وستجيبين على كل الأسئلة بردود صحيحة من غير أن تدركي ذلك. هذا هو عصر العلم. لهذا لا أريدك أن تتوهمي وتدفعي غالياً ثمن سريّة غير موجودة. لن تخبريهم على أية حال أشياء لم يعرفوها من قبل. سوف يراقبونني جيداً بعد هذه الليلة ـ سوف يحيطون بي، وبالسير روبرت كروفتون لي».

ـ «ماذا عن إدوارد؟ هل أخبره؟».

ـ «هذا أتركه لك. عموماً ينبغي أن تتكتمي على كل ما ستفعلين أمام أي كان هذا من الناحية العملية!». ارتفع حاجباه كقنطرتين، «سوف تقحمينه في الخطر أيضاً! هذا أحد وجوه المسألة. إلا أنه كما علمت يمتلك سجلاً مشرفاً في سلاح الطيران. لا أظن انه سيخاف من المخاطر. رأسان يكونان غالباً أفضل من رأس واحد. إذا هو يظن ان هناك شيئاً مريباً في شأن مركز «غصن الزيتون» حيث يعمل؟ هذا أمر مثير للاهتمام. مهم جداً».

ـ «لماذا؟».

ـ «لأننا نعتقد نحن ذلك أيضاً»، أجاب داكين.

ثم أضاف: «سأعطيك نصيحتين أخيرتين. أولاً وسامحيني لقولي، لا تكثري من الأكاذيب. قد يصعب عليك تذكرها كلها

والاستعانة بها. أعرف أنك مجلّية في هذا المجال، لكن حاولي أن تبقيها بسيطة، هذه نصيحتي لك».

قالت فيكتوريا مهانة بعض الشيء: «سأتذكر هذا. وما هي النصيحة الأخرى؟».

ـ «أبقي أذنيك منصتتين جيداً لأدنى ذكر لامرأة تدعى آنا شيل».

ـ «من تكون؟».

ـ «لا نعرف الكثير عنها. يهمّنا أن نعرف المزيد».



الفصل الخامس عشر



- ١ -

بادرت السيدة كاردو ترانش تقول لفيكتوريا: «بالطبع ينبغي أن تقيمي في القنصلية. هراء. لا يمكنك الاقامة في فندق المطار. سوف يسعد هذا عائلة كلايتون جداً. أعرفهم منذ سنوات طويلة. سوف أبعث اليهم ببرقية وتستطيعين الانطلاق في قطار هذا المساء. انهم يعرفون الدكتور باونسفوت جونز معرفة جيدة».

تورد خدا فيكتوريا وقد شعرت بالإحراج. شخصية أسقف لانغو أو أسقف لانغواو المبتكرة شيء، وشخصية الدكتور باونسفوت جونز الحقيقية والحيّة شيء آخر.

فكرت فيكتوريا شاعرة بالذنب: «أعتقد. انه يمكن أن أدخل السجن بسبب هذا. ادعاءات كاذبة أو شيء من هذا القبيل». لكنها استعادت معنوياتها إذ تذكرت ان هذا يحصل فقط إن حاول المرء استخدام ذلك للاحتيال وكسب المال. لم تكن متأكدة أيضاً فقد كانت تجهل القوانين كلياً. لكن هذا المنطق بدا لها مقنعاً.

كان السفر في القطار بمثابة تجربة جديدة لها. لكنه حسب ما

فهمت قطار بطيء. وكان لا بد أن تقاوم عاداتها الغربية المريحة.

كان في انتظارها سيارة من القنصلية، نقلتها اليها. تقدمت السيارة عبر أبواب ضخمة وحديقة بديعة، وتوقفت أمام درجات توصل الى الشرفة المحيطة بمنزل عائلة كلايتون. أطلت السيدة كلايتون، الحيوية، الدائمة الابتسامة من باب متأرجح وتقدمت لاستقبالها.

قالت: «نحن سعداء جداً لرؤيتك. ان البصرة جميلة جداً في هذا الوقت من السنة ولا يمكن أن تغادري العراق من غير أن تشاهديها. لحسن الحظ ليس لدينا الكثير من الضيوف حالياً. أحياناً لا يعود في وسعنا التحرك هنا لكثرة الضيوف. ينزل عندنا الآن فقط سكرتير الدكتور راسبون وهو شاب فاتن. لقد فاتك التعرف الى السيد ريتشارد بايكر. لقد غادر قبل أن تصل برقية السيدة كاردو ترانش».

لم تكن لدى فيكتوريا أي فكرة عن ريتشارد بايكر. لكنها اعتبرت أن مغادرته قبل حضورها هو من حسن حظّها.

- «لقد غادر الى الكويت منذ يومين. هذا مكان ينبغي أن تريه قبل أن يتشوّه. أظن ان هذا سيحصل عاجلاً او آجلاً. كل الأمكنة تتشوه. ماذا تفضلين أولاً، حمّاماً أم بعض القهوة؟».

أجابت فيكتوريا بامتنان: «أفضل أن آخذ حماماً، أرجوك».

- «كيف حال السيدة كاردو ترانش، هذه هي غرفتك والحمام هنا الى هذه الجهة. هل هي صديقة قديمة لك؟».

- «آه. لا»، قالت فيكتوريا في صدق، «لقد التقيتها مؤخراً».

ـ «وأظن انها اكتشفت كل شيء عن حياتك في ربع الساعة الأولى من لقائكما. انها ثرثارة من الطراز الفاخر، وأظن إنك لاحظت هذا. انها مهووسة بمعرفة كل شيء عن أي كان. لكن رفقتها ممتعة، وهي لاعبة بريدج ممتازة. هل انت متأكدة انك لا ترغبين ببعض القهوة أو اي شيء غيرها؟».

ـ «حقيقة، لا».

ـ «حسناً. سأراك لاحقاً. هل لديك كل ما تحتاجين اليه؟».

انسلت السيدة كلايتون مغادرة في سرعة كنحلة فرحة. استحمت فيكتوريا ورتبت شعرها وتبرجت في عناية فائقة شأنها شأن اية فتاة ستجتمع بعد قليل مع شاب تحبه.

أملت فيكتوريا أن يلتقيا لوحدهما لو تيسر ذلك. لم يخطر لها ابداً انه قد يتفوّه بملاحظة ما محرجة ـ لحسن الحظ لم يكن يعرف سوى اسمها الثاني جونز وان يكتشف أن لها اسماً إضافياً هو باونسفوت أمر قد لا يسبب له أي مفاجأة. المفاجأة ستكون في كونها موجودة في العراق. ولتفسير ذلك أملت فيكتوريا في أن تتمكن من الانفراد به ولو لثانية أو اثنتين.

بعدما انتهت من تخيّل ما سيحدث، ارتدت فستانها الصيفي (إذ ان المناخ في البصرة كان يشبه مناخ لندن في شهر حزيران). خرجت بسرعة من الباب الخارجي الواقي واتخذت لها موضعاً على الشرفة حيث كان في وسعها اعتراض سبيل إدوارد وهو عائد من مشاغله. وقدّرت انه كان يتصارع مع موظفي الجمارك ساعياً الى تخليص البضاعة.

كان أول من وصل رجل نحيل ذو وجه قلق، بدأ يتسلق الدرجات، فابتعدت فيكتوريا الى زاوية الشرفة. وما إن فعلت هذا حتى رأت فعلاً إدوارد يدخل من أحد أبواب الحديقة المطل على ضفة النهر.

أمينة لعرف «جولييت» اتكأت فيكتوريا على متكأ الشرفة وأطلقت هسيساً طويلاً.

ـ «ادوارد» (الذي كان يبدو، كما وجدت فيكتوريا، أجمل من أي وقت آخر)، ادار وجهه في حدة متطلعاً حوله.

هتفت فيكتوريا بصوت خفيض: «هست! هنا فوق».

رفع إدوارد رأسه وارتسمت على وجهه تعابير المفاجأة فصرخ في قوة: «ربّاه، هذه أعجوبة!».

ـ «هسّ. لا ترفع صوتك. انتظرني، أنا نازلة».

قطعت فيكتوريا الشرفة ونزلت الدرجات وتوجهت نحو زاوية المنزل حيث بقي إدوارد منتظراً في طواعية ولم تغب عن وجهه علامات الدهشة.

انبرى إدوارد قائلاً: «غير معقول أن أكون سكران في وقت مبكر من النهار. هل هذا أنت؟».

ردت فيكتوريا فرحة وفي حماسة: «أجل، هذا أنا».

ـ «لكن ماذا تفعلين هنا؟ كيف وصلت الى هنا؟ ظننت اني لن أراك أبداً من جديد».

ـ «هذا ما اعتقدته أنا أيضاً».

ـ «هذا أشبه بالأعجوبة. كيف وصلت الى هنا؟».

ـ «لقد طرت».

ـ «بالتأكيد طرت. لا يعقل أن تكوني وصلت في هذه السرعة في أية وسيلة أخرى. لكن، أقصد أي ضربة حظ رائعة أوصلتك الى البصرة؟».

قالت فيكتوريا: «القطار».

ـ «أنت تقصدين هذا أيتها الشيطانة الصغيرة. يا الهي. أنا سعيد جداً برؤيتك. لكن كيف أتيت الى هنا؟ قولي الحقيقة».

ـ «لقد رافقت امرأة مكسورة الذراع. انها السيدة كليب وهي أميركية. لقد عرضوا عليّ هذا العمل بعدما التقيتك بيوم واحد. كنت تحدثت عن بغداد وكنت أنا ضقت ذرعاً بلندن، وهكذا فكرت، حسناً لمَ لا أخرج وأرى العالم؟».

ـ «أنت حقيقةً مؤنسة يا فيكتوريا، أين هي السيدة كليب تلك الآن؟ هل هي هنا؟».

ـ «لا. لقد غادرت الى عند ابنة لها قرب كركوك. كان عملي يقتصر على مرافقتها خلال الرحلة».

ـ «إذاً ماذا تفعلين الآن؟».

ـ «إني أتابع التمتع بمشاهدة العالم». وتابعت، «لكن هذا استلزم أن أوزع هنا وهناك بعض الذرائع. لهذا أردت أن ألقاك قبل أن نتلاقى بين الناس. أعني لا أريد أن تتفوه بأية ملاحظات مربكة، كمثل انني كنت سكرتيرة مطرودة من العمل حين شاهدتني آخر مرة».

ـ «إن كان الأمر متعلقاً بي، فأنت أي شيء تريدين. وأنا مستعد للاختصار».

قالت فيكتوريا: «ما يجب أن تنتبه اليه هو انني الآنسة

باونسفوت جونز. عمي عالم آثار معروف يقوم بالتنقيب في مكان ما هنا. وسوف ألتحق به بعد وقت قريب».

- «ولا شيء من هذا صحيح؟».

- «بالطبع لا. لكنها قصة جيدة في النهاية».

- «آه. أجل ممتازة. لكن تصوّري انك التقيت بالدكتور باونسفوت جونز وجهاً لوجه؟».

- «باونسفوت. لا أظن ان هذا معقول حسب تصوري. فعندما يشرع عالم آثار ما في التنقيب، فإنه ينجرّ في هذا في جنون، ولا قوة في العالم توقفه عن ذلك».

- «هذا يشبه تصرف كلاب الصيد. معك الكثير من الحق في ما تقولين. هل لديه في الواقع ابنة أخ؟».

أجابت فيكتوريا: «كيف لي أن أعرف؟».

- «آه إذن أنت لا تنتحلين شخصية فتاة معينة. هذا يسهّل الأمر».

- «أجل. في النهاية، يمكن أن يكون للواحد أكثر من بنت أخ واحدة».

قال لها إدوارد بإعجاب: «انك تفكرين في كل شيء. أنت حقيقة فتاة مدهشة يا ڤيكتوريا. لم ألتقِ قط واحدة مثلك. ظننت اني لن التقيك قبل سنوات عديدة، وحين سألتقيك، سوف تكونين قد نسيتني كلياً. وها أنت».

نظرات إدوارد الخجلة والمليئة بالاعجاب اعطتها اكتفاء ذاتياً عارماً. ولو كانت هرة لخرخرت لفرط غبطتها.

قال إدوارد: «لكنك ستحتاجين الى عمل أليس كذلك؟ أعني. لا أظن أن ثروة هبطت فجأة عليك من السماء».

قالت فيكتوريا في بطء: «لا. بالعكس سأحتاج الى وظيفة. في الواقع توجهت الى مركز «غصن الزيتون»، وقابلت السيد راسبون وطلبت اليه وظيفة. لكنه لم يكن متجاوباً، على الأقل بالنسبة لوظيفة مأجورة. هذا ما حدث».

قال إدوارد: «هذا الشحّاذ العجوز متعنّت في شراسة إن تعلق الأمر بماله. يعتقد أن الجميع يأتون ويعملون لمجرد المتعة بالأمر».

ـ «هل تظن انه مخادع يا إدوارد؟».

ـ «لا. لا أعرف بالتأكيد ما أظن بشأنه. انه لا يكسب أية أموال من وراء نشاطه هذا. كل ما أستطيع أن أقوله هو ان حماسته هذه لا بد وأنها حقيقية. ولكن. كما رأيت. لا أعتقد في الواقع ان هذا الرجل ساذج».

قالت فيكتوريا: «من الأفضل أن ندخل. يمكننا التحدث لاحقاً».

بادرت السيدة كلايتون إلى القول: «لم أكن أعرف انك وإدوارد تعرفان بعضكما من قبل».

اجابت فيكتوريا ضاحكة: «نحن صديقان منذ وقت طويل. ما حدث هو اننا انقطعنا عن التلاقي لفترة. ولم أكن أعرف أبداً انه في هذه البلاد».

السيد كلايتون الذي كان رجلاً سكوتاً دائم التفكير. رآته فيكتوريا طالعاً الدرجات. وسأل: «كيف جرت الأمور هذا الصباح يا إدوارد؟ هل تحسّن الوضع؟».

ـ «المسألة على طريق الحل. صناديق الكتب موجودة كلها هناك. لكن المعاملات اللازمة لاخراجها تبدو وكأنها من دون نهاية».

ابتسم كلايتون.

ـ «انك لم تعتد بعد على نمط الشرق البطيء».

ـ «الموظف الرسمي المسؤول عن الأمر لا تجده أبداً. كلهم لطفاء ومستعدون للمساعدة. لكنك في النهاية لا تنجز أي شيء».

ضحك الجميع، وقالت السيدة كلايتون مواسية: «سوف تنجح في النهاية. لقد تصرف الدكتور راسبون بحكمة بارساله أحداً ما للاهتمام شخصياً بهذا. وإلا لكانت الصناديق بقيت هنا لمدة أشهر».

ـ «منذ مشكلة فلسطين صاروا يخافون جداً من القنابل وأيضاً من الأدب. انهم يشكّون في أي شيء».

قالت السيدة كلايتون مقهقهة: «لا أظن ان الدكتور راسبون يشحن قنابل على أنها كتب».

خطر لفيكتوريا انها لمحت ومضة مفاجئة في عيني إدوارد. وكأنما فتحت ملاحظة السيدة كلايتون باباً للشك كان غير مفترض.

قال السيد كلايتون: «الدكتور راسبون رجل مثقف ومعروف جداً يا عزيزتي. انه عضو في جمعيات مهمة، ومحترم في كل أنحاء أوروبا».

أشارت السيدة كلايتون من غير مبالاة: «تصبح الأمور أكثر سهولة إذا أراد تهريب القنابل».

رأت فيكتوريا ان السيد كلايتون لم ترق له البتة الفكرة الممازحة وعبس متطلعاً إلى زوجته.

خرجت فيكتـوريا مع إدوارد عند الظهيرة بعد أن تناولا طعام الغداء، وتجوّلا في المنطقة لتشاهد فيكتوريا الأمكنة. فرحت جداً بمنظر النهر، وشط العرب وأشجار البلح المحيطة به. أعجبتها كثيراً المراكب العربية ذات المقدمات العالية الشبيهة بمراكب البندقية. والتي كانت مربوطة في القناة داخل المدينة. ثم تجوّلا في السوق حيث شاهـدا صنـاديق كويتية مزخرفة بالنحاس وبضائع كثيرة أخرى لافتة للنظر.

حين قررا العـودة الى القنصلية ليتوجه ادوارد من هناك مرة جديدة الى الجمارك، تطلعت اليه فيكتوريا وقالت فجأة:

ـ «إدوارد ما هو اسمك؟».

حدّق فيها إدوارد: «ماذا تعني بحق الله؟».

ـ «اسم عائلتك. ألم تلاحظ انني أجهل هذا؟».

ـ «ألا تعرفين؟ لا. أظن انك لم تعرفيه. انه غورينغ».

«إدوارد غوريـنـغ. لا يمكنـك أن تتصور كم كنت محرجة وكم شعرت بالغباء حين توجهت الى «غصن الزيتون» لأسأل وكان كل ما أعرفه عنك هو «إدوارد»».

ـ «هل كانت هناك فتاة سمراء؟ طويلة الشعر؟».

ـ «أجـل».

ـ «إنها كاترين. إنها لطيفة جداً. لو ذكرت لها الإسم فقط لكانت عرفتني على الفور».

قالت فيكتوريا في تحفظ، «أظن انها كانت ستعرف».

ـ «انها فتاة بمنتهى اللطافة. ألا تقولين هذا؟».

ـ «آه، ربـما...».

ـ «ليست جميلة المظهر ـ في الواقع لا شيء جذاباً فيها. إنما هي ودودة بشكل غير معقول».

ـ «أوهذا صحيح؟». كانت نبرة فيكتوريا باردة بل متجمدة من جراء الغيظ. لكن لم يظهر أن إدوارد انتبه لذلك.

ـ «في الحقيقة لا أعلم ماذا كنت فعلت من دونها. لقد شرحت لي كل الوضع، وكانت خير مرشد في أوقات صعبة. انا واثق انكما ستصبحان صديقتين».

ـ «لا أعتقد انه ستتاح لنا الفرصة لذلك».

ـ «آه. بالطبع ستستطيعين. سوف أحصل لك على وظيفة في المركز».

ـ «كيف ستتدبر ذلك؟».

ـ «لا أعرف لكني سأتصرف بطريقة ما. أمدح قدراتك الرائعة بالضرب على الآلة الكاتبة وغيرها أمام العجوز راسبون».

قالت فيكتوريا: «سوف يكتشف عاجلاً انني لست كذلك».

ـ «في مطلق الأحـوال سوف أضمّك الى المركز بطريقة ما. لن أدعك تقفزين هنا وهناك على هواك. قد تطلعين عليّ غداً بمشروع سفر الى بورما أو مجاهل أفريقيا. لا يا صغيرتي فيكتوريا سأبقيك أمام ناظريّ. لن أخاطر كي لا تفلتي مني هذه المرة، لا أثق بك مقدار ذرة. أنت تعشقين التجول ورؤية العالم».

فكـرت فيكتوريا: «يا لك من أحمق حبيب. الا تعرف انه ليس حتى بمقدور الأحصنة الجامحة ابعادي عن بغداد!».

وهتفت: «حسناً. ستكون وظيفة ممتعة في «غصن الزيتون»».

ـ «لا أستطيع أن أصفها بالمتعة. ان العمل هناك مكرب. بل في منتهى السخف».

ـ «هل ما زلت تشك بأن هناك شيئاً مريباً في شأن المركز؟».

ـ «آه. كانت تلك مجرد فكرة طائشة».

قالت فيكتوريا مفكّرة: «لا. لا أظن انه مجرد افتراض طائش. أعتقد ان هذا صحيح».

التفت اليها إدوارد في حدّة.

ـ «ما الذي يجعلك تعتقدين هذا؟».

ـ «شيء ما سمعته. من صديق لي؟».

ـ «من كان هذا؟».

ـ «مـجرد صديق».

غمـغـم إدوارد قائـلًا: «ان فتيـات مثلك لديهن الكثـير من الأصدقاء. أنت شيطانة يا فيكتوريا. إني أحبك في جنون وأنت لا تهتمين لهذا إطلاقاً».

قالت فيكتوريا: «آه، بالعكس أنا مهتمة، لكن قليلاً فقط».

مخفية سرورها العام، سألته: «يا إدوارد، هل تعرف أحداً يدعى لو فارج له علاقة بمركز «غصن الزيتون»، أو بأي شيء آخر؟».

ـ «لو فارج؟»، وتطلع إدوارد مذهولاً، «لا أعتقد هذا، من يكون؟».

وتابعت فيكتوريا تتحرى.

ـ «أو واحدة ما تدعى آنا شيل؟».

هذه المرة كانت ردة فعل إدوارد مختلفة تماماً. استدار اليها على نحو مفاجىء، أمسكها بذراعها وقال: «ماذا تعرفين عن آنا شيل؟».

ـ «أوه، إدوارد أفلتني. أنا لا أعرف أي شيء عنها. أردت فقط أن أعرف إن كنت تعرفها».

ـ «أين سمعت عنها؟ أمن السيدة كليب؟».

ـ «لا، ليس من السيدة كليب. على الأقل لا أظن هذا، لكنها في الواقع تحدثت في سرعة ومن دون توقف عن الجميع وعن كل شيء. وربما لست قادرة على تذكر إن كانت ذكرت اسمها».

ـ «وما الذي جعلك تفكرين ان لآنا شيل أي علاقة بمركز غصن الزيتون؟».

ـ «هل هذا صحيح؟».

قال إدوارد في تمهل: «لا أعرف... ان هذا شديد.. شديد الغموض».

كانا واقفين خارج باب حديقة القنصلية، تطلّع إدوارد الى ساعة معصمه، وقال: «يجب أن أتوجه للقيام بعملي. أتمنى لو كنت أعرف بعض العربية. لكن يجب أن نلتقي يا فيكتوريا. أريد أن توضحي لي الكثير من الأمور».

قالت فيكتوريا: «هناك أمور كثيرة أودّ اطلاعك عليها».

أي بطلة حنونة من عصر آخر أكثر رومنسية كانت سعت لإبعاد رجلها عن الخطر. ولكن ليس فيكتوريا. فالرجال حسب قناعتها

ولدوا للمخاطرة كالشرارات التي تطير الى السماء فقط. وإدوارد لن يشكرها إن هي أبعدته عن الأمر. وتذكرت وكانت واثقة أن السيد داكين لم يكن ينوي البتة عدم توريطه في القضية.

- ٢ -

عند الغروب تنزّه إدوارد وفيكتوريا معاً في حديقة القنصلية. بناء على تحذيرات السيدة كلايتون، المصّرة على رداءة الطقس، ارتدت فيكتوريا معطفاً قطنياً فوق ثوبها الصيفي.

كان غياب الشمس بديعاً لكن أياً من الشابين لم يلاحظ هذا. كانا يناقشان أموراً أهم بكثير.

قالت فيكتوريا: «لقد بدأ كل هذا في بساطة. مع اقتحام رجل ما لغرفتي في فندق تيو وقد كان مطعوناً بخنجر».

لم تكن هذه بداية بسيطة في المفهوم العام. حدّق فيها إدوارد وقال: «ماذا؟».

أجابت فيكتوريا: «أجل مطعوناً أعتقد أن هذا ما حدث له. كان يمكن بالطبع أن يكون مصاباً برصاصة. لكني لا أظن ذلك لأنني كنت سمعت اطلاق النار على أية حال». وأضافت، «كان ميتاً».

- «كيف استطاع دخول غرفتك لو كان ميتاً؟».

- «آه يا إدوارد لا تكن غبياً».

وأخبرته فيكتوريا في صراحة وبشكل مريب كل القصة. ولسبب ما غامض لم تستطع اطلاعه على الأحداث بتلاحقها الحدوثي

الصحيح وبأسلوب مأساوي. لقد روت بطريقة متقطعة ومجتزأة وبدت وكأنها تلفق الأمور بشكل غير صحيح.

حين انتهت. نظر اليها إدوارد مشككاً وقال: «هل تشعرين انك مريضة يا فيكتوريا. هل أصابك مكروه؟ أعني هل أصبت بضربة شمس ـ أم انك تحلمين، أم أي شيء آخر؟».

ـ «بالطبع لا».

ـ «لأنه يبدو وكأنه من المستحيل أن يحدث كل هذا».

ـ «في الواقع، لقد حدث». قالت فيكتوريا مأخوذة.

ـ «وماذا في شأن ذلك القسم الميلودرامي المتعلق بالقوة العالمية والانشاءات الغامضة والسرّية في قلب منطقة التيبت أو بالوشستان. أعني في بساطة انه لا يمكن أبداً أن يكون هذا صحيحاً. أمور كهذه لا تحدث ابداً».

ـ «هكذا يقول الناس دائماً قبل حدوث الأشياء».

ـ «بحق الله ـ قولي الحقيقة هل ابتكرت كل هذا؟».

صرخت فكيتوريا فاقدة الصبر: «لا!».

ـ «ولقد أتيت الى هنا تفتشين عن شخص يدعى لوفارج وعن واحدة تدعى آنا شيل..».

ـ «التي سمعت عنها أنت نفسك» وأضافت، «لقد سمعت عنها أليس كذلك؟».

ـ «لقد سمعت الاسم ـ أجل».

ـ «كيف؟ أين؟ في مركز «غصن الزيتون؟»».

صمت إدوارد بضع دقائق ثم قال:

ـ «لست أدري إن كان هذا يعني شيئاً. كان مجرد شيء غريب».

تابعت: «أخبرنـــي».

ـ «اسمعي يا فيكتـوريـا. أنا مختلف عنك. لست حاد الذكاء مثلك. إنمـا يخـالجني احســاس غريب بأن شيئاً ما غير طبيعي يحـدث. لا أعـرف لماذا اشعـر بهـذا. أحيـانـاً تلاحظين اشياء وتستنتجـين منها أشياء أخرى أنا لا أمتلك الذكاء الكافي لذلك. تريبني الأشياء لاشعورياً وفي غموض. أحدس أن في الأمر خطأ ما، ولا أفقه لماذا».

قالت فيكتوريا: «يخالجني هذا مراراً. مثلما شعرت حين رأيت السير روبرت على الشرفة في فندق تيو».

ـ «من هو السير روبرت؟».

ـ «انه السير روبرت كروفتون لي. لقد قدم في الطائرة معي. انه متكبـر ومتباه. شخص مهم جداً. اتفهم. وحين رأيته قاعداً على الشرفة في فندق تيو تحت الشمس، خالجني شعور غريب ان شيئاً ما ليس على ما يرام، ارتبت في أمره من غير أن أعرف هويته.

لقد طلب اليه راسبون القاء محاضرة في «غصن الزيتون»، هكذا فهمت لكنه لم يستطع المجيء. لقد غادر الى مصر أو دمشق أو مكان ما صباح البارحة. أظن هذا».

ـ «حسناً. اكمل في ما يتعلق بآنا شيل».

ـ «آه. آنا شيل. لم يكن بالأمر المهم في الواقع. اظن اني سمعت الاسم من احدى الفتيات».

سألت فيكتوريا على الفور: «كاترين؟».

ـ «أعتقد انها كانت كاترين. أجل أذكر هذا الآن».

ـ «بالطبع كانت كاترين. لهذا لا تريد أن تخبرني الأمر».

ـ «هذا هراء. كل هذا لا معنى له».

ـ «إذاً ماذا حدث؟».

ـ «لقد قالت كاترين لإحدى الفتيات الأخريات. «حين ستأتي آنا شيل سوف نبدأ. عندها سنتلقى الأوامر منها ـ ومنها فقط»».

ـ «هذا مهم للغاية يا إدوارد».

قال إدوارد محذراً: «لكن تذكري، لست واثقاً ان كان هذا هو الاسم».

ـ «الم يخطر لك ان هذا الشيء شاذ بعض الشيء».

ـ «لا. بالطبع لم افكر. فكرت انها مجرد امرأة ستأتي لإدارة الأمور هنا. ملكة نحل أو ما شابه. هل أنت متأكدة انك لا تتوهمين كل هذا؟».

وعلى الفور جبن أمام نظرة صديقته الشابة المؤنبة وردد في سرعة: «حسناً، حسناً، يجب أن تعترفي فقط ان القصة بمجملها تبدو شاذة. أشبه بقصة بوليسية. يقتحم رجل غرفتك ويتمتم كلمة لا تعني شيئاً ـ ثم يموت. هذا لا يبدو حقيقياً!».

قالت فيكتوريا وهي ترتعد قليلاً: «أنت لم تر الدماء».

قال إدوارد بصوت عطوف: «لا بد أن هذا سبب لك صدمة مخيفة».

ردت فيكتوريا: «هذا ما أصابني بالفعل. وفوق كل هذا تأتي أنت وتسألني إن كنت ألفق الأمر».

ـ «أنا آسف. لكنك حقيقة بارعة في ابتكار الأشياء. مثلاً قصة أسقف لانغو وكل تلك الادعاءات».

ـ «آه. كان ذلك مجرد عبث طفولي. لكن هذا مهم وخطير يا إدوارد. خطير جداً».

ـ «ذاك الرجل، داكين. هل يدعى بهذا الإسم؟ هل كان مقنعاً حين أخبرك هذه الأشياء؟».

ـ «أجل كان مقنعاً للغاية، لكن، لحظة، يا إدوارد كيف تعرف...».

استوقفها هتاف من الشرفة:

ـ «ادخلا كلاكما. المشروب في انتظاركما».

هتفت فيكتوريا: «سنأتي فوراً».

قالت السيدة كلايتون لزوجها وهي تراقبهما يطلعان الدرجات:

ـ «ثمة أمر ما في الجو هناك! إنهما زوجان جميلان. متوافقان جيداً. هل تريد أن أقول لك بماذا أفكر يا جيرالد؟».

ـ «بالتأكيد يا عزيزتي. تعرفين اني أهتم دائماً بأفكارك».

ـ «هذه الفتاة جاءت الى هنا لتلتحق بورشة عمها، لسبب وحيد وبسيط هو هذا الشاب».

ـ «لا أعتقد هذا أبداً يا روزا. لقد تفاجآ فعلاً عندما تلاقيا».

ـ «رباه»، ردت السيدة كلايتون، «هذا لا يعني شيئاً. يمكنني أن اقول انه هو من فوجىء بالأمر».

هزّ السيد كلايتون رأسه وابتسم لها.

قالت السيدة كلايتون: «ليست هي من صنف المهتمات بالآثار. انهن عموماً جديّات ويضعن نظّارات. وأيديهن اجمالاً متعبة».

- «يا عزيزتي لا يمكنك التعميم بهذه الطريقة».

- «يكن عادة مثقفات والخ. هذه الفتاة أنيسة وظريفة وفطرية في سلوكها. مختلفة كلياً. وهو شاب لطيف. ارتباطه مع مشروع «غصن الزيتون» هو أمر مؤسف. لكني أظن ان الوظائف قليلة هذه الأيام. يجب أن يجدوا وظائف جيدة لهؤلاء الشبّان».

- «ليس الأمر هيناً يا عزيزتي. انهم يحاولون. لكن كما ترين، الشبـان ليسوا مدرّبين كفاية، ليس لديهم خبرة، وعموماً لا قدرة عندهم على التركيز».

توجهت فيكتوريا تلك الليلة الى فراشها وملؤها اضطراب شديد.

لقد حصلت على المعلومات التي كانت تريدها. وجدت إدوارد!. لكنها ارتعدت من جراء ردة فعل لم تتمكن من تجنبها. ومهما فعلت كان ذاك الشعور الشاذ الذي تملكها قائماً.

لقد جعلها تشكيك إدوارد في الأمور تعيد النظر. راودها ان كل ما جرى غير حقيقي بل مسرحيّ الى حد ما. انها هي فيكتوريا جونز. مجرد ضاربة حقيرة على الآلة الكاتبة من لندن. وصلت الى بغداد وشاهدت تقريباً مقتل رجل بعينيها المجردتين. وأصبحت عميلة سريّة أو شيئاً ما يضارع هذا مأساوية. والتقت أخيراً بالشاب الذي تحبه في حديقة استوائية تحت أشجار بلح متأرجحة. وفي مكان دلت كل الافتراضات على انه المكان الحقيقي لموقع جنة عدن.

ثم تذكرت أغنية طفولية ورددتها:

«كم من الأميال تبعد بلاد بابل
انها تبعد ثلاث مسافات زائد عشر
هل استطيع الوصول الى هناك عند العشية؟
اجل، والعودة ايضاً».

غير انها لم ترجع بعد. كانت ما تزال في بلاد بابل.

ربما لن تعود أبداً. هي وإدوارد معاً في بلاد بابل.

سؤال ما ودّت أن تطرحه على ادوارد ـ هناك في الحديقة ـ حديقة عدن ـ هي وإدوارد ـ تسأل إدوارد ـ لكن السيدة كلايتون هتفت ـ ونسيت السؤال كلياً ـ لكن ينبغي أن تتذكر ـ لأنه كان مهماً ـ كان كل هذا من دون معنى ـ شجرات البلح ـ الحديقة ـ إدوارد ـ خادمة عربية ـ آنا شيل ـ روبرت كروفتون لي ـ كان هناك خطأ ما في كل هذا ـ ولو استطاعت فقط أن تتذكر ـ امرأة متوجهة نحوها في ردهة فندق ـ امرأة في ثياب أنيقة ـ كانت هي بالذات ـ لكن حين اقتربت رأت انه كان لها وجه كاترين ـ إدوارد وكاترين ـ هراء! «تعال معي قالت لإدوارد سوف نعثر على السيد لو فارج» ـ وفجأة ظهر امامها، كان قصيراً أسود.

كان إدوارد غادر الآن وهي وحيدة. كان ينبغي أن تعود من بابل قبل انطفاء الشموع.

ونحن هنا حتى الظلام.

من قال هذا؟ عنف، رعب، شيطانيان ـ دماء على سترة كاكية ـ كانت راكضة ـ راكضة في رواق فندق ـ وكانوا يطاردونها.

استفاقت فيكتوريا لاهثة.

- ٣ -

- «هل تريدين قهوة؟»، قالت السيدة كلايتون، «كيف تفضّلين البيض؟ مخلوطاً؟»..

- «أحب هذا».

- «تبدين شاحبة. هل أنت مريضة؟».

- «لا، لم أنم جيداً الليلة الفائتة. لا أعرف ما السبب. انه سرير مريح جداً».

- «هلّا أدرت المذياع من فضلك يا جيرالد. انه وقت الأخبار».

دخل ادوارد لحظة انبعاث صوت المذياع:

«في مجلس العموم قدم رئيس مجلس الوزراء الليلة الفائتة تفاصيل عن تحديد الاستيراد بالدولار الأميركي.

جاء في تقرير من القاهرة انه عثر على جثة السير روبرت كروفتون لي في مياه النيل. (أفلتت فيكتوريا كوب القهوة من يدها في عنف وأطلقت السيدة كلايتون صرخة). كان السير روبرت غادر فندقه بعيد وصوله في الطائرة من بغداد، ولم يرجع اليه تلك الليلة. كان اختفى لمدة أربع وعشرين ساعة قبل أن يتم العثور على جثته. قتل السير روبرت من جراء طعنة تلقاها في قلبه مباشرة وليس غرقاً. كان السير روبرت رحالة معروفاً. واشتهر برحلاته عبر الصين وبالوشستان وكان نشر مجموعة من الكتب».

صرخت السيدة كلايتون باندهال: «مقتولاً! أظن ان القاهرة أسوأ مكان ممكن الآن. هل كنت تعرف أي شيء عن هذا يا جيري؟».

قال السيد كلايتون: «لقد علمت انه كان مفقوداً. اتضح انه تلقى رسالة، سلّمت اليه باليد، وغادر الفندق على عجل وسيراً على القدمين من غير أن يفصح عن المكان المتوجه اليه».

ـ «هل رأيت»، قالت فيكتوريا لإدوارد بعد الفطور عندما أصبحا وحدهما. «لقد كان كل شيء صحيحاً. أولاً ذاك الرجل المدعو كارمايكل، والآن السير روبرت كروفتون لي. أشعر بالندم الآن لأني وصفته بالمتباهي. يبدو هذا غير لطيف. انهم يعملون على تصفية كل الذين يعرفون أو تراودهم الشكوك في شأن تلك المسألة؟ هل تعتقد يا إدوارد اني سأكون التالية؟».

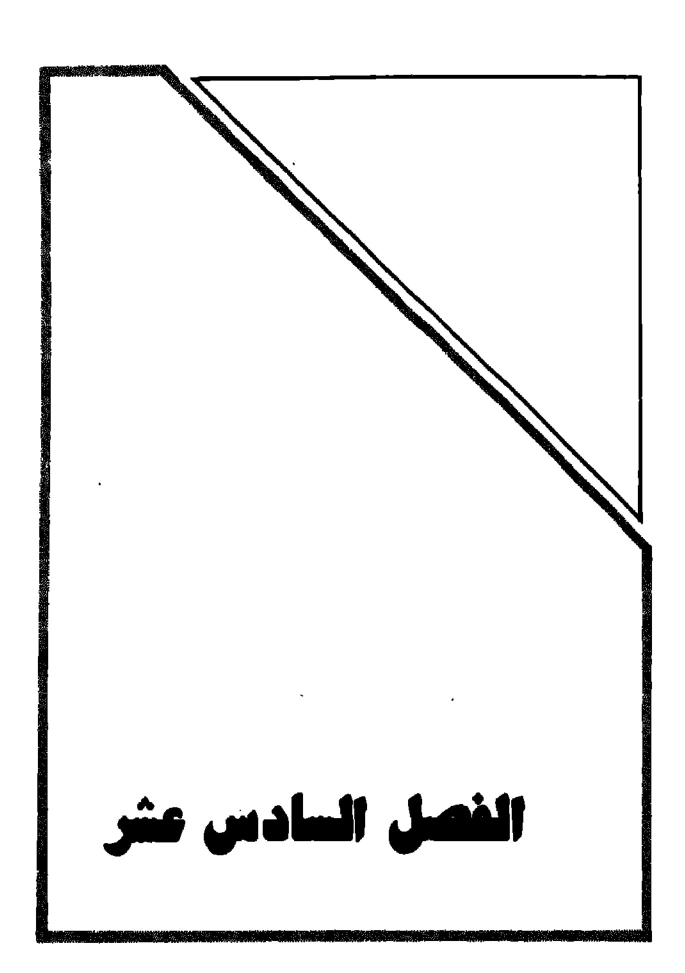
ـ «بحق الله ليس هذا بموضوع سخرية يا فيكتوريا! ان احساسك المسرحي طاغ الى درجة غير محتملة. لا أظن. لماذا يريد احدهم قتلك، فأنت في الحقيقة لا تعرفين أي شيء ـ ولكن أرجوك ـ كوني حذرة جداً».

ـ «سنكون كلانا حذرين. لقد ورطتك في المسألة».

ـ «آه. ليس بذي أهمية. انه يريحني من الرتابة».

ـ «أجل. ولكن انتبه لنفسك» وارتعدت فجأة، مغمغمة: «انه أمر مخيف ـ لقد كان يشعّ حياة ـ أعني كروفتون لي ـ والآن هو ميت. هذا مفزع. حقيقة مفزع».





الفصل السادس عشر



سأل السيد داكين: «هل وجدت رجلك؟».

أحنت فيكتوريا رأسها موافقة.

ـ «هل وجدت أي شيء آخر؟».

هزت فيكتوريا هذه المرة رأسها نفياً وفي تعاسة.

قال السيد داكين: «حسناً، لا تحزني، تذكري أن في هذه اللعبة غالباً ما تكون النتائج قليلة ومتباعدة. قد تكونين اكتشفت شيئاً ما هناك. لا أحد يعرف. لكني لم أكن بأية حال معتمداً على ذلك».

سألت فيكتوريا: «هل أستطيع أن أتابع المحاولة؟».

ـ «هل تريدين هذا؟».

ـ «أجل. أود ذلك. يظن ادوارد انه يستطيع أن يؤمن لي وظيفة في «غصن الزيتون». ان أبقيت عينيّ وأذنيّ مفتوحة فقد أكتشف شيئاً ما، أوليس هذا ممكناً؟ انهم يعرفون شيئاً ما عن آنا شيل هناك».

ـ «آه. هذا مهم للغاية يا فيكتوريا. كيف علمت بهذا؟».

اخبرته فيكتوريا مجدداً ما قصّه عليها إدوارد ـ عن ملاحظة

كاتـرين التي تقـول انــه «حين ستحضر آنا شيل سوف يتلقّون الأوامر منها».

«هذا مهم جداً»، ردد السيد داكين.

سألت فيكتوريا: «من تكون آنا شيل، أعني لا بد وانك تعرف أشياء عنها. ليس مجرد اسم، أليس كذلك؟».

- «انهـا اكثـر من اسم. انها السكرتيرة الخاصة لأحد رجال المصارف الأميركية. انه رئيس شركة المصارف الدولية. لقد غادرت نيويورك وجاءت الى لندن منذ عشرة أيام تقريباً. واختفت من يومها».

- «اختفت؟ لم تمت، أليس كذلك؟».

- «إن كان هذا حدث بالفعل، فالجثة لم تكتشف بعد».

- «لكن يمكن أن تكون ميتة».

- «آه أجل. هذا ممكن».

- «هل كانت قادمة الى بغداد؟».

- «ليس لدي أدنى فكـرة. يتضـــح من ملاحظات تلك الشابة كاترين انها كانت قادمة. أو هي وصلت إليها. إذ ليس لدينا الى الآن أية معلومات تؤكد موتها».

- «قد أستطيع معرفة معلومات أكثر في «غصن الزيتون»».

- «قـد تستطيعين. لكن يجب أن أحذّرك مجدداً يا فيكتوريا. احتـرسي جداً. المنـظمة التي تعملين ضدها لا ترحم. لا اريد أن يعثروا على جثتك عائمة على سطح نهر دجلة».

ارتجفت فيكتوريا قليلاً ثم تمتمت:

ـ «كما حدث للسير روبرت كروفتون لي. حين كان ذاك الصباح هنا في الفندق لاحظت شيئاً غريباً في سلوكه ـ أمر فاجأني ـ أتمنى لو أستطيع أن أتذكر ما هو...».

ـ «غريب! في أي معنى؟».

ـ «قد أقول.. مختلف». وجواباً على نظرته المتسائلة هزت رأسها في حيرة. «قد أتذكر هذا. في مطلق الأحوال لا أظن ان هذا ذو أهمية».

ـ «قد يكون أي شيء مفيداً».

ـ «إن حصل لي إدوارد على وظيفة، فينبغي أن أحصل على غرفة مثل بقية الفتيات، في نزل أو بيت للنزلاء، وأن لا أبقى هنا».

ـ «هذا يخفف من دون أدنى شك الظنون. فنادق بغداد باهظة جداً. يبدو ان رجلك يفكر بشكل سليم جداً».

ـ «هل ترغب في رؤيته؟».

هز داكين رأسه.

ـ «لا. قولي له أن يبتعد عني. أنت لسوء الحظ، وبسبب الظروف ليلة مقتل كارمايكل أصبحت في موضع شك. لكن لا علاقة لادوارد في ذلك الحدث أو بي وبأية طريقة ـ وهذا أمر هام جداً».

قالت فيكتوريا: «أردت أن أسألك منذ وقت. من الذي قتل فعلياً كارمايكل؟ هل كان أحد ما تبعه الى هنا؟».

قال داكين متباطئاً: «لا. كان هذا مستحيلاً.

لقد قدم في قارب. أحد تلك القوارب البدائية. ولم يكن متبوعاً.

نعرف ذلك لأني كنت كلفت أحدهم بمراقبة النهر».

ـ «إذاً كان أحداً ما ـ في الفندق؟».

«أجل يا فيكتوريا، وأكثر من هذا فهو موجود في قسم معين من الفندق. لأني قمت بنفسي بمراقبة الأدراج ولم يصعد أحد تلك الليلة».

حدّق فيها محتار الوجه وقال بصوت خفيض: «وهذا يتركنا مع عدد محدود من الأسماء، أنت وأنا والسيدة كاردو ترانش، وماركوس وشقيقاته. هناك خادمتان عجوزان تقيمان هنا منذ سنوات. رجل يدعى هاريسون من كركوك لا نعرف أي شيء ضدّه. هناك ممرضة تعمل في مستشفى يهودي. يمكن أن يكون القاتل أي واحد منهم. إلا اننا ولسبب واحد منطقي لا نشك بأي منهم».

ـ «وما هو؟».

ـ «كان كارمايكل متيقظاً جداً. كان يعرف انه أدرك ذروة مهمته. كان يمتلك حدساً خارقاً إزاء الخطر. كيف خذله حدسه؟».

ردت فيكتوريا: «رجلا الشرطة اللذان قدما...».

ـ «آه لقد حضرا بعد ذلك. لقد صعدا من الشارع. لقد أعطيا إشارة، لكن ليس هما من قام بطعنه. لقد فعل ذلك شخص عرفه كارمايكل جيداً. وثق فيه... أو ربما اعتبره غير مهم، لو كنت فقط أعرف...».

ذروة الإنجاز يرافقها دائماً الهبوط التافه.

أن تصل الى بغداد، أن تجد إدوارد، أن تكتشف أسرار «غصن الزيتون». كل هذه شكّلت ظهوراً مسرحياً بهيجاً. الآن وقد حققت

أهـدافهـا، أخذت فيكتوريا في لحظات نادرة من مراجعة النفس، تتـســاءل: «بحق الله ما الذي افعله؟». كان حدث وانتهى كان انفعــالهــا بإدوارد قد حدث وانتهى. كانت تعشق إدوارد، وهــو يعشقهــا. كانا يعملان معاً تحت سقف واحد معظم الأيام. ولكن حين كانت تفكر في كل هذا بمنطق كانت تقول مجدداً: «بحق الله ما هذا الذي يفعلانه؟».

ذلك أن إدوارد استـطاع بوسيلة ما، بالتصميم أو بالاقنـاع، تأمـين وظيفة ضعيفة الأجر في مركز «غصن الزيتون» لفيكتوريا. وكانت تقضي معظم الوقت في غرفة صغيرة كئيبة تحت ضوء هزيل لمصبـاح كهـربـائي. كانت تطبع على آلة كاتبة حقيرة إشعارات، ورسائل وبرامج نشاطات مركز «غصن الزيتون». كان لدى إدوارد حدس بأن شيئاً ما غير واضح يجري هناك. وكان السيد داكين يوافقه الرأي في ذلك. كانت فيكتوريا تتحرى قدر المستطاع، ولكن في كل ما شاهدته حتى الآن لم تلاحظ أي شيء جديراً بالاهتمام. كانت كل نشــاطات «غصن الزيتـون» تصب في مسعى الســلام العــالمي. كانت أقيمت عدة لقــاءات وكــانت تقدم فيها مشروبات ومأكولات مقيتة. وكان يتوجب على فيكتوريا القيام بدور المضيفة بين مجموعة من مختلف الجنسيات كانوا يرمقون بعضهم بعضاً بحقد ويلتهمون الطعام بجشع.

ما استـطاعت فيكتوريا استخلاصه الى الآن، لم يكشف أية مؤامرات أو قنوات أو عصابات داخلية شريرة. ظاهرياً كان كل شيء نقياً وواضحاً ومملاً حتى اليأس. حاول العديد من الشبان السمر مغازلتها وقدم اليها البعض الآخر كتباً للمطالعة من النوع المثير

للإشمئـزاز. كانت الآن غادرت فنـدق تيـو وسكنت في غرفـة مع مجمـوعـة أخرى من الفتيات من جنسيات مختلفة في منزل عند الضفة الغربية من النهر. كانت كاترين إحداهن، ولاحظت فيكتوريا انهـا كانت تراقبهـا بعينـين مليئتين بالشك. غير أن فيكتوريا لم تستطع أن تعرف إن كانت تفعل ذلك لاشتباهها فيها كجاسوسة على نشـاطات «غصن الزيتـون»، أو بسبب غيرتهـا على إدوارد. ورجّحت فيكتـوريـا الاحتمال الثاني. كان قد أصبح معروفاً ان إدوارد هو من حصل لها على الوظيفة. ولقد زجرتها من جراء ذلك العيون السود لعدد من الزملاء.

خطر لفيكتوريا في كآبة أن إدوارد كان جذاباً أكثر من اللزوم، لقد كانت كل الفتيات مغرمات به ولم تكن ملاطفته لهن كلّهن مريحة البتـة. كانت اتفقت وإدوارد أن لا يظهرا أية علاقة مودّة خاصة بينهما. فلو وجدا أي شيء مثيراً للشك فلا يجب أن يشتبه فيهما كشريكـين. كان إدوارد يتصرف معهـا كتصرفـه مع أي من تلك الأخريات بل ببرودة إضافية.

لعلّ مركـز «غصن الزيتون» بدا مسالماً، إلا أن شعوراً آخر مغايراً خامر فيكتوريا بشأن رئيسه ومؤسسه. لقد انتبهت اليه وهو ينظر اليها مرة أو مرتين نظرة مشككة وعدائية، وكانت هي تقابل تلك النظرة بمنتهى البراءة وبوداعة هرّة. فشعرت فجأة بقشعريرة لا تشبه سوى الخوف.

مرة حين صادف واجتمعا معاً (لتفسير غلطة قامت بها على الآلة الكاتبة)، تطوّرت المسألة أكثر من مجرد نظرة.

سألها: «هل انت سعيدة بالعمل معنا؟ أتمنى ذلك».

اجابت فيكتوريا: «آه. اجل بالطبع يا سيدي، انا آسفة لارتكابي الكثير من الأغلاط».

ـ «نحن لا نأبه للأغلاط. لا فائدة في ماكينة خالية من الروح. نحن في حاجة للشباب، للروح المعطاء، للجراة».

كانت سعت جاهدة لتبدو متحمسة ومنفتحة.

ـ «ينبغي ان تحبّي العمل... ان تعشقي الهدف الذي تعملين من اجله... ان تتطلّعي بإيجابية الى مستقبل مشرق. هل تشعرين حقاً بكل هذا يا ابنتي الصغيرة؟».

قالت فيكتوريا: «كل هذا جديد عليّ، لا اشعر اني استطعت استيعاب كل هذا».

ـ «التلاقي، التلاقي المطلوب هو ان يتلاقى الشبان في كل انحاء العالم. هذا هو هدفنا الأهم. هل تستمتعين بأمسيات المناقشات الحرة وبالرفاق؟».

ـ «آه. اجل»، وكانت في الواقع تشمئز منهم.

ـ «الاتفاق، لا الشقاق. الأخوة لا الكراهية. ان هذا ينمو بالتأكيد ولو ببطء. انت تشعرين بهذا، اليس كذلك؟».

جال في خاطر فيكتوريا كل ما شهدته من غيرة حقيرة، من كراهية عنيفة، من مشادات مستمرة، وإهانات متبادلة، من اعتذارات غير مستجابة، وجهلت في الواقع ما كان يتوقع منها ان تجيب.

قالت بحذر: «احياناً يكون الناس في غاية الصعوبة».

قال السيد راسبون متنهداً: «اعرف، اعرف»، هز راسه بحيرة

وأردف، «مـا هذا الذي سمعت بأن مايكـل راكونيان لَكَم اسحق ناحوم وجرح له شفته؟».

قالت فيكتوريا: «لقد حصل بينهما شجار بسيط».

بدا السيد راسبون مكتئباً بشدة.

ـ «الصبر والإيمان»، قال متمتماً، «الصبر والإيمان».

تمتمت فيكتوريا موافقة إياه واستدارت لتغادر.

ثم تذكرت انها نسيت نص الرسالة. فعادت من جديد. النظرة التي واجهها بها الدكتور راسبون روّعتها الى حد ما. كان يحملق بنـظرة مليئـة بالشـك، وشعـرت متضايقة بمدى جدية وخطورة مراقبتهم لها. وتساءلت عن حقيقة ما كان يعتبرها السيد راسبون.

كانت المعلومات التي تلقتها من داكين دقيقة جداً. كان ينبغي أن تتبع أساليب معينة للاتصال به، ان كان لديها ما تبلغه اياه. كان اعـطاهـا منـديلاً قديماً أحمر وشاحباً. حين يكون لديها ما يستلزم الإبلاغ، كان عليها أن تمشي كما كانت تفعل غالباً مع غياب الشمس. كانت تمشي بمحـاذاة النهر على مقربة من المنزل حتى تصل ممراً ضيقاً أمام بيوت تبعد تقريباً ربع الميل. في آخر الممر كانت هنـاك درجات طويلة تؤدي الى ضفة المياه حيث ترسو على الدوام قوارب صغيرة. كان عليها أن تعلّق المنديل بمسمار صدىء في احـدى الدعامات الخشبية الموجودة هناك. فكرت فيكتوريا في مرارة أنه لا حاجة الآن الى أي لقاء من هذا النوع. كل ما كانت تفعله هو القيام بوظيفة حقيرة الأجر وبطريقة متخلّفة. كانت تشاهد إدوارد نادراً، إذ ان الدكتـور راسبون كان يرسله باستمرار الى

أمـاكن بعيدة. حالياً، لقد عاد للتو من إيران. أثناء غيابه التقت السيـد داكـين لمدة وجيزة. تلقت منه أمراً بالتوجه الى فندق تيو لتسأل هناك إن كانت نسيت عندهم سترتها الصوفية.

وبما أن الجواب كان نفياً، أطلّ ماركوس وجرّها الى ضفاف النهر لاحتساء كوب من المشروب. خلال ذلك أطل السيد داكين من فوق الطريق فلوّح له ماركـوس طالبـاً إليـه مشاركتهما، وبينما قُدِّمت الليمـونـاضة لداكين تم استدعاء ماركوس، فخلت الجلسة لهما متواجهين حول طاولة صغيرة مدهونة.

اعترفت له فيكتوريا بإخفاقها الكامل، غير أن داكين طمأنها متفهماً:

ـ «يا طفلتي العزيزة أنت لا تعرفين حتى ما الذي تبحثين عنه ولا حتى ان هنـاك أصـلاً ما يمكن أن تكتشفيـه. عموماً ما هو انطباعك عن «غصن الزيتون»؟».

قالت فيكتوريا على مهل: «انه بالكامل مسرحية مضجرة وباهتة».

ـ «باهتة ولكت ليست مزيفة أليس كذلك؟».

قالت فيكتوريا ببطء: «لا أعرف، الكل مأخوذ بفكرة الثقافة إن كنت تفهم ما أعنيه».

ـ «هل تعنين انه حين يتعلق الأمر بالثقافة، لا يعود أحد يهتم باستقصـاء الزيف، على عكس ما يحصـل باستمرار في المشاريع الخـيرية أو المالية؟ هذا صحيح. الحماسة التي ترينها هناك غير

كاذبــة بالطبع. ليس لدي أدنى شك بذلك. ولكن هل يستخدمون المنظمة لتمرير أفكارهم؟».

قالت فيكتــوريــا في ريبة: «أظن انه يجري الكثير من النشاط الشيوعي هناك. إدوارد يعتقد هذا ايضاً. لقد جعلني اقرأ كارل ماركس وأترك الكتاب في أمكنة بارزة لأرى ما تكون ردات الفعل».

هزّ داكين رأسه موافقاً.

ـ «هذا مثير للاهتمام. وهل من ردات فعل الى الآن؟».

ـ «لا. ليس بعد».

ـ «ماذا عن راسبون؟ أهو صادق؟».

قالت فيكتوريا بنبرة مشككة: «أظن انه كذلك؛ لأنه في الواجهة. إن سلّمنا بوجود نشاط شيوعي، فما يحصل عادة هو أن الطلاب والثــوار نادراً ما يتسنى لهم لقــاء القــائــد. سوف تقوم الشرطة بالتفتيش عن مصدر القنابل الملقاة في الشارع. إلا أن راسبون شيء آخر. انه من النخبة، رجل متميز وصاحب سجل نظيف وغني بالنشاطات الاجتماعية. انه يجتمع فقط بالزوار المتميزين. سوف يفعل هذا بالتأكيد. أريد أن أعرف أكثر عن راسبون».

أجل، هكذا فكرت فيكتوريا، ان راسبون هــو قطب كل مــا يجري في لقــائهما الأول في لنــدن منذ أســابيع كــان لا بد وأن يكــون مصدر شكوك إدوارد عندما وصفه «بالمريب». لا بد وأن حدثاً ما، كلمة ما، وراء انبعاث هاجس الشك لدى إدوارد. هكذا قررت فيكتوريا فجأة تسلسل الأفكار في ذهنها، وهذا ما كان المحرك الأول للعقول. لم تكن الريبة أو انعدام الثقة مجرد حدس مجانّي؛ انها دائماً نتيجة

لحدث ما. لو استطاعت جعل إدوارد يتذكر ويعيد التفكير، فقد يستطيعان معاً اقتناص الحدث الذي الهب شكوكه. وبالطريقة نفسها يجدر بها هي أيضاً أن تجهد لتتذكر الشيء الذي فاجأها حين خرجت الى الشرفة في فندق تيو ورأت السير روبرت كروفتون لي جالساً تحت الشمس. قد يكون صحيحاً انها توقعت انه يقيم في السفارة وليس في الفندق، لكن هذا لم يكن ليبرر الاحساس الطاغي الذي تملّكها حين خطر لها أن جلوسه هناك كان أمراً غير معقول! سوف تسترجع وتسترجع الأحداث في ذلك الصباح، ويجب أن يتذكر إدوارد كل تفاصيل ارتباطه منذ البداية مع الدكتور راسبون. سوف تقول له ذلك حين سيلتقيان وحدهما في المرة الآتية. لكن لقاء إدوارد بمفرده لم يكن بالغرض السهل. في البداية كان سافر الى إيران، ولقد عاد الآن، كان أكثر من مستحيل اجراء احاديث خاصة في «غصن الزيتون». في النزل الأرمني حيث كانت تقيم، كانت الخصوصية أيضاً صعبة المنال. فكرت فيكتوريا انه قياساً الى مجموع الساعات التي تستطيع أن تستفرد خلالها بإدوارد، فإنه قد يكون من المفضل أن تبقى في انكلترا!

إلا أن تأكيد عدم صحة تفكيرها هذا ظهر بعد فترة قصيرة جداً. فقد جاء اليها إدوارد حاملاً بعض الأوراق المكتوبة وقال:

ـ «يودّ الدكتور راسبون أن تطبعي هذه على الآلة الكاتبة فوراً، ان كنت تسمحين يا فيكتوريا. وكوني منتبهة خصوصاً في الورقة الثانية؛ إن فيها أسماء عربية صعبة».

حشرت فيكتوريا متنهدة، ورقة بيضاء في آلتها الكاتبة وبدأت الضرب على الفور. لم يكن خط الدكتور راسبون صعب القراءة

عموماً، وهنأت فيكتوريا نفسها كونها اقترفت عدداً أقل من الأغلاط هذه المرة. أزاحت الورقة الأولى ثم بدأت الثانية، فأدركت على الفور معنى ملاحظة إدوارد للانتباه للصفحة الثانية. رأت ملاحظة صغيرة جداً كُتبت بخط يد إدوارد على رأس الصفحة:

«أخرجي في نزهة على ضفاف نهر دجلة، الى ما بعد بيت مالك علي غداً صباحاً حوالى الساعة الحادية عشرة».

كان اليوم التالي نهار جمعة، وهو يوم العطلة الأسبوعية.

ارتفعت معنويات فيكتوريا حتى كادت تصل الى كوكب عطارد. سوف ترتدي معطفها الأخضر وسوف تغسل شعرها. كانت التسهيلات الصعبة في النزل حيث تسكن تمنعها من تحقيق ذلك. وتمتمت لنفسها بصوت مرتفع: «انه في حاجة لهذا بالتأكيد».

ـ «ماذا قلت؟»، قالت كاترين التي كانت منشغلة بترتيب كدسة من الرسائل والمنشورات. كانت رفعت رأسها وحدقت في ريبة من فوق طاولة مكتبها المجاورة.

طوت فيكتوريا بسرعة ملاحظة إدوارد وقالت بصوت منخفض:

ـ «شعري في حاجة الى الغسل. كل صالونات التزيين تبدو متسخة للغاية. لا أعرف أين أتوجه».

ـ «أجل انها قذرة وباهظة الأسعار أيضاً. لكني أعرف احدى الفتيات التي تقوم بهذا بشكل ممتاز ولديها أيضاً مناشف نظيفة. سوف أصطحبك اليها».

قالت فيكتوريا: «هذا لطيف جداً منك يا كاترين؟».

ـ «سوف نذهب غداً. انه نهار عطلة».

أجابت فيكتوريا: «لا. ليس غداً».

ـ «لماذا ليس غداً؟».

كانت نظرة مليئة بالشك تحدق فيها. وأحست فيكتوريا بالانزعاج غير العادي وبالكراهية من جراء ردة فعل كاترين.

ـ «أفضل أن أتجول غداً، للتمتع ببعض الهواء النظيف: أشعر وكأننا محبوسون هنا».

ـ «أين في مقدورك التنزه؟ لا مكان للتنزه في بغداد؟».

ـ «سوف أجد مكاناً ما».

ـ «أفضّل الذهاب الى السينما. أوليست هناك اي محاضرة مهمة في مكان ما؟».

ـ «لا أريد أن أخرج. نحن في انكلترا نحب القيام بالنزهات».

ـ «أنت متكبرة ومتعالية لأنك انكليزية. ماذا يعني أن تكوني انكليزية؟ هذا لا شيء. نحن هنا نبصق على الإنكليز».

ـ «حاولي أن تبصقي عليّ وستنالين مفاجأة لن تسّرك». قالت فيكتوريا هذا وهي تفكر في سهولة تفجّر الأحقاد الدفينة في مركز «غصن الزيتون».

ـ «ماذا ستفعلين؟».

ـ «حاولي وسترين؟».

ـ «لماذا تقرأين كارل ماركس؟ لا نستطيع أن نفهم. انت أكثر غباء من هذا. هل تعتقدين انهم سيقبلون بك عضواً في الحزب الشيوعي؟ لست مثقفة كفاية سياسياً».

ـ «ما الذي يمنع أن أقرأه؟ لقد كتب أصلاً لأناس مثلي، للعمال».

ـ «أنت لست من الطبقـة العـاملة. أنت بورجـوازية. أنت لا تستطيعين حتى الضرب على الآلة الكاتبة بصورة جيدة. ألا ترين الأغلاط التي ترتكبينها؟».

قالت فيكتوريا بوقار: «بعض أكثر الأشخاص ذكاء لا يحسنون التهجئة. ثم كيف أستطيع أن أعمل وأنت تكلمينني طوال الوقت»؟!

طبعت بسرعة خارقة سطراً كاملاً، لتكتشف بعدئذ وفي حزن انها كانت ضغطت على كبسة خطأ، وإن ما كتبته كان سطراً كاملاً من علامـات التعجّب والأرقـام والفـواصل. سحبت الورقة من الآلة واستبـدلتها بواحدة أخرى، ثم تابعت بتركيز حتى أنهت واجبها وحملت الأوراق متوجهة الى الدكتور راسبون.

حدق في الأوراق وتمتم: «شيراز تقع في إيران وليس في العراق ـ وعـلى أية حال العراق تكتب بالقاف وليس بالكاف... ثم وازيت وليس ووزل ـ آه ـ شكراً يا فيكتوريا».

حين كانت على وشك مغادرة الغرفة ناداها من جديد:

ـ «يا فيكتوريا هل أنت سعيدة هنا؟».

ـ «آه أجل يا دكتور راسبون».

عينـاه القـاتمتان تحت حاجبيه المرتفعين كانتا تحدقان فيها بإصرار شديد. وشعرت فيكتوريا بضيق متصاعد.

ـ «أخشى اننا لا ندفع لك ما يكفي».

ردت فيكتوريا: «لا يهم. احب أن أعمل».

- «حقـاً؟».

قالت: «آه. أجل. يشعر المرء ان هذا النوع من العمل يستحق التضحية».

واجهت نظرتها الهادئة عينيه السوداوين المشككتين ولم تتغير.

- «وهل تستطيعين تدبر عيشك بهذا القدر القليل؟».

- «آه. أجل. لقد عثرت على مسكن رخيص. مع بعض الأرمنيين. أنا بألف خير».

- «هنـاك في بغـداد حالياً نقص في عدد الضاربات على الآلة الكاتبة». وأردف راسبون، «أعتقد انك تعرفين أن في وسعي أن أجد لك وظيفة أفضل من هنا».

- «لكنني لا أرغب في وظيفة أخرى».

- «قد يكون قراراً حكيماً إن فعلت».

- «حكيماً؟» كررت فيكتوريا متلعثمة.

- «هذا ما قلته. مجرد إنذار ـ نصيحة».

كان هناك نبرة تهديد في صوته.

فتحت فيكتوريا عينيها أكثر.

قالت: «في الواقع لا أفهم ما تقصده يا دكتور راسبون».

- «تكون الحكمة احياناً في أن يمتنع الفرد عن التورط في اشياء لا يفقهها».

لقد أيقنت هذه المرة أن التهديد واضح، لكنها تابعت تلعب دور البراءة.

ـ «لماذا جئت للعمل هنا يا فيكتوريا؟ أمن أجل إدوارد؟».

توردت فيكتوريا غضباً.

اجابت في سخط: «بالطبع لا». كانت منزعجة جداً.

هز الدكتور راسبون رأسه.

ـ «على إدوارد أن يشق طريقه الخاصة. ستمضي سنوات كثيرة قبل أن يحتل منصباً ذا فائدة. ولو كنت مكانك لما عدت وفكرت بإدوارد. هناك حالياً وظائف جيدة يمكنك الحصول عليها وبمرتب مرتفع وفي امكانك أن تترقي فيها ايضاً. وستكونين بين أقران لك».

راود فيكتوريا انه كان لا يزال يراقبها في دقة. أكان هذا اختباراً؟. قالت وهي تتظاهر بالحماسة: «ولكني متحمسة جداً للعمل في «غصن الزيتون»».

هزّ عندها كتفيه بغير مبالاة وغادرت هي الغرفة ولكنها كانت تشعر بنظراته تلاحقها وهي تخرج.

أزعجتها المقابلة. هل حدث ثمة ما أثار ريبته. هل حزر انها قد تكون جاسوسة وضعت في «غصن الزيتون» لاكتشاف أسراره؟ سلوكه وصوته جعلاها تخاف. تلميحه بأنها دخلت «غصن الزيتون» لتكون قريبة من إدوارد جعلها غاضبة وقتئذ، لكنها عادت وأدركت الآن أن اعتقاده هذا كان يضمن سلامتها اكثر من اي تلميح لمطلق علاقة لها مع داكين. على اية حال فإن احمرار وجهها

الأحمق لحظة ذكر إدوارد ربما جعل الدكتور راسبون يربط خفرها بوجوده أكثر من أي شيء آخر. وهذا ما سيّر الأمور الى الأفضل.

في مطلق الأحوال توجهت ليلتها الى النوم وفي قلبها خوف مرير.



الفصل السابع عشر



- ١ -

في اليـوم التـالي خرجت فيكتوريا وفي رأسها بضعة تفسيرات مبسطة. استعلمت عن مكان منزل مالك علي وعلمت انه منزل كبير مبنيّ على ضفة النهر مباشرة في موقع متقدم على الضفة الغربية.

حتى ذلك الوقت لم يكن قد اتيـح لفيكتـوريـا الوقت الكـافي لاكتشاف المنطقة المحيطة، وقد سُرت وهي تتفاجأ عند نهاية الممر الضيق بأنها أصبحت تمشي مباشرة فوق ضفة النهر. انعطفت الى يمينهـا وتوجهت متمهلة نحو الحافة فوق الضفة المرتفعة. كانت أحياناً تتقدم حذرة لأن جدار الضفة كان متآكلاً في أجزاء منه ولم يكن رمم أو أعيد بناؤه مجدداً. كان لأحد البيوت أدراج كان يكفي أي خطوة إضافية عليها في الليل لتؤدي الى السقوط في مياه النهر. نظرت فيكتوريا الى الأسفل الى المياه وحوّلت مسارها مرة أخرى الى طريق رئيسة معبّدة وواسعة.

كانت ترى بعض أبواب البيوت الأمامية مشرعة وكانت تحدق الى داخلها مفتونة بالتناقضات التي تراها. ذات مرة حدقت في ساحة

منزل حيث كانت تترقرق نافورة مياه وحولها مقاعد بوسائد تحت أشجار بلح طويلة وحديقة في المؤخرة. بدت المقاعد وما حولها أشبه بديكور مشهد مسرحي. كان المنزل التالي يشبهه تماماً من الخارج غير أن فناءه الداخلي كشف عن تداخل ممرات معتمة، وكان خمسة أو ستة أطفال يلعبون مرتدين ثياباً رثة. ثم صادفت حدائق تغصّ بشجر البلح. الى يسارها عبرت درجات غير متساوية تؤدي نزولاً الى النهر حيث جلس عربي في مركب للتجديف، وراح يؤشر ويهتف سائلاً إياها إن كانت تود عبور النهر الى ضفته الأخرى. رجّحت فيكتوريا انها الآن في موقع مقابل فندق تيو على الضفة الأخرى. على الرغم من أن المنظر المعماري الشامل، بما فيه الفندق كان واحداً الى حد بعيد. أدركت الآن الطريق المنحدر نزولاً عبر أشجار البلح ومروراً بمنزلين مرتفعين مزيّنين بالشرفات. بعدها انبرى منزل ضخم ملتصق تماماً بالنهر تحيطه حديقة وشرفات. ثم اخترقت طريق الضفة المؤدية الى ما يفترض أن يكون بيت مالك علي.

بعد بضع دقائق اجتازت فيكتوريا مدخل حديقة البيت ووصلت الى قسم قذر. وكانت الأشجار مسوّرة بشريط شائك وصدىء. الى اليمين بنيت بيوت متواضعة، من الطوب الموحل. بين أزقتها الضيقة كان الأطفال يلعبون بالقاذورات وكانت غيوم من الذباب تحلق فوق تلال من القمامة. عند طريق تشعبت من النهر، وقفت سيارة هناك - كانت السيارة تبدو معطوبة أو على شكل قنطرة. وكان إدوارد يقف الى جانبها.

- «ممتاز»، قال إدوارد، «لقد وصلت الى هنا. أدخلي».

سألت فيكتوريا وهي تدخل السيارة المعطوبة مبتهجة: «الى أين

نذهب؟»، استدار السائق بثيابه الرثة المبهرجة وابتسم لها مسروراً.

قال إدوارد: «نحن متوجهان الى بابل. أظن اننا نستحق أخيراً يوم عطلة».

اشتغل المحرك محدثاً قرقعة صاخبة ثم اندفعت السيارة بجنون فوق الطريق المرصوفة بالحجارة الصلبة.

صرخت فيكتوريا: «الى بابل؟ كم يبدو هذا بديعاً. أحقاً نتوجه الى بابل؟».

اتجهت السيـارة نحـو اليسـار حيث أخذت تسير فوق طريق واسعة ومعبدة.

- «أجل لا تتأملي كثيراً. بابل - إن كنت تفهمين ما أعني - لم تعد تماماً مثلما كانت».

همهمت فيكتوريا منشدة:

كم من الأميال تبعد بابل
ثلاث مسافات وعشر
هل استطيع ادراكها مع العشية
أجل والعودة ايضاً.

- «كنت أغني هذه الأغنية حين كنت طفلة. كانت تسحرني دوماً. والآن نحن نتوجه فعلياً الى هناك».

وسنعود مع العشية. وربما لن نفعل. في الواقع لا أحد يعلم ماذا يمكن أن يحدث في هذه البلاد.

السيارة تبدو على أقل تقدير وكأنما ستتفكك في أية لحظة.

سوف يحصل هذا بالتأكيد. لقد تأكدوا تماماً من عدم صلاحية أي شيء فيها. هؤلاء العراقيون يجيدون جداً تربيط وتحزيم كل شيء وترديد «إنشاء الله» وتنطلق السيارة من جديد.

دائماً «إنشاء الله» أليس كذلك؟».

- «أجل. لا شيء غير القاء المسؤولية على الرب المبجل».

- «الطريق ليست مريحة، أليس كذلك؟»، تلفظت فيكتوريا وهي تهتز فوق مقعدها. لقد خيبت الطريق الواسعة المعبدة أملها. كانت واسعة إلا أن السيارة كانت تتأرجح فوقها بفعل الأخاديد والحفر.

هتف إدوارد: «سوف تسوء أكثر لاحقاً».

كانا يتأرجحان ويقفزان مغتبطين. كان الغبار يرتفع حولهم كالسحب. شاحنات ضخمة محمّلة ومغطّاة كلياً بالرجال العرب كانت تتقدم متمهلة في وسط الطريق وغير آبهة اطلاقاً لزعيق البوق الملحّ.

عبروا حدائق مسوّرة ومرّوا بمجموعات من النسوة والأولاد والحمير. كان كل هذا جديداً بالنسبة لفيكتوريا، وجزءاً من سحر رحلتها الى بابل بصحبة إدوارد.

وصلوا الى بابل منهكين بعد ساعتين من الاهتزاز. وقد أصيبت فيكتوريا بخيبة أمل كاملة. فقد كانت تتوقع رؤية اعمدة وقناطر شبيهة بصوَر كانت قد شاهدتها لقلعة بعلبك في لبنان. ولكنها لم تر في بابل سوى كتل من الوحل المفتت والطوب المحترق.

شيئاً فشيئاً تضاءلت خيبتها وهم يعبرون كتلاً ونتوءات من أحجار الطوب المحترقة، كانت تصغي بنصف أذن الى شروحات

السـائق الغزيرة. لكن بينما كانوا يتقدمون عبر الطريق نحو باب عشتار، عاودها شعور طفيف بالاستكانة أمام مشهد الحيوانات العملاقة على الجدران. تملكها فجأة شعور العظمة الغابرة ورغبة داخليـة بمعـرفة أشياء عن هذه المدينة الشاسعة المتعالية التي تتمدد الآن ميتة ومتروكة.

وبانتهاء القسم السياحي من الرحلة، جلسا تحت أسد بابلي عملاق يتناولان طعام الغداء الخاص والذي أحضره إدوارد معه. ابتعد دليلهما مبتسماً في تسامح وقال لهما في وقار انه ينبغي أن يزوروا المتحف في وقت لاحق.

قالت فيكتوريا بنبرة حالمة: «هل يتوجب علينا هذا؟ حين توضب الأشياء وترتب داخل علب تبدو لي غير حقيقية بعض الشيء. لقد زرت المتحف البريطاني مرة، لقد كانت الجولة كارثة ومنهكة للقدمين».

قال إدوارد: «الماضي دائماً ممل، المستقبل هو أهم بكثير».

ـ «هـذا ليس مضجـراً البتـة» قـالـت هـذا وهي تلـوح بسـاندويش في اتجـاه مجموعـة متنـوعـة من أحجـار الطـوب المتداخلة. «هناك احساس بالعظمة هنا. ما هي تلـك القصيدة؟ «حين كنت ملكاً في بابل وكنت أنـا جاريـة مسيحية»؟ ربمـا كنا هكذا. أنت وأنا. أعني».

قال إدوارد: «لا أعتقد انه كان في بابل ملوك أيام المسيحية. أظن ان بابل انتهت في زمن مـا قبل خمسمئـة أو ستمئة سنـة قبل الميلاد. غالباً ما يقدم علمـاء آثار عـلى القاء محـاضرات في هذا الشأن، لكني أنسى دائماً التواريخ الدقيقة».

ـ «هـل تغريـك فكرة انـك كنت يومـاً ملكـاً عـلى بـابـل يـا إدوارد؟».

تنفس إدوارد عميقاً.

ـ «أجل، بالتأكيد».

ـ «إذاً سنعتبر انك كنت. وأنت اليوم متجسد من جديد».

قال إدوارد: «كانوا يعرفون آنذاك كيف يكونون ملوكاً. لهذا كانوا يستطيعون أن يحكموا العالم وينظموه».

قالت فيكتوريا متأملة: «لا أعرف إذا كنت أحب أن اكون جارية».

قال إدوارد: «لقد كان ميلتون على حق. «من الأفضل أن تحكم في جهنم على أن تخدم في الجنة». لقد أعجبت باستمرار بشيطان ميلتون».

قالت فيكتوريا بنبرة اعتذار: «لم أستطع أبداً الاعجاب بميلتون. لكني ذهبت وشاهدت «كوموس» في المسرح، ولقد كان العرض جميلاً، ورقصت مارغو فونتين مثل ملاك من الجليد».

قال إدوارد: «لو كنت جارية يا فيكتوريا. لكنت أحررك وأضمك الى حريمي ـ هناك»، مؤشراً من غير تحديد الى كتلة من الأنقاض.

تلألأت عينا فيكتوريا وقالت:

ـ «ما دمنا نتحدث عن الحريم...».

سألها إدوارد بسرعة: «كيف تجري أمورك مع كاترين؟».

ـ «كيف عرفت أني كنت أفكر في كاترين؟».

ـ «حسناً. كنت تفعلين، أليس كذلك؟ بصراحة يا فيكي أريدك أن تصبحي صديقة لكاترين».

- «لا تدعني فيكي».

- «حسناً. مهما كان. اريدك أن تصادقي كاترين».

- «كم هم الرجال أغبياء! يريدون دوماً أن تحب صديقاتهم بعضهن بعضاً».

جلس إدوارد برشاقة. كان ممدداً ويداه خلف رأسه.

«- لقد فهمت كل شيء بشكل مغلوط. يا عزيزتي. على أية حال فإن ربط هذا الشيء بمسألة الحريم استنتاج ساذج بكل بساطة».

- «لا. ليس كذلك. ان الطريقة التي تتوهج فيها حولك أولئك الفتيات، وتوقهن اليك يسببان لي الجنون».

- «رائع»، قال إدوارد، «أحب أن تغضبي. لكن لنرجع الى كاترين. السبب الذي يدفعني الى أن أطلب إليك أن تصادقيها هو أنني واثق انها السبيل الأفضل للاقتراب من كل ما نريد اكتشافه. انها تعرف شيئاً ما».

- «هل فعلاً تظن هذا؟».

- «هل تذكرين ماذا سمعتها تقول عن آنا شيل؟».

- لقد نسيت ذلك».

- «كيف حالك مع كارل ماركس؟ هل من نتيجة؟».

- «لا أحد الى الآن حاول الاتصال بي أو دعوتي الى أي شيء. في الواقع أخبرتني كاترين البارحة ان الحزب لن يقبل بي، لأني لست مثقفة سياسياً كفاية. وفي الحقيقة يا إدوارد لا جلد لي على قراءة كل هذه الأشياء المُكربة».

ضحك إدوارد قائلاً: «ليس لديك أي وعي سياسي، أليس كذلك؟

يا فتاتي المسكينة. حسناً. حسناً. قد تكون كاترين مسعورة وذكية وشديدة الوعي السياسي. لكنه، بالنسبة لي، من الأفضل أن تكون سكرتيرة صغيرة بلكنة لندنية فاشلة لا تستطيع تهجئة كلمة من ثلاثة أحرف».

ارتعدت فيكتوريا فجأة. لقد أعادت كلمات إدوارد الى ذاكرتها الحديث المثير الذي تبادلته مع الدكتور راسبون. روت تفاصيل ما جرى لإدوارد. بدا اكثر انزعاجاً مما توقعت.

- «هذا خطير يا فيكتوريا. مهم جداً.. حاولي أن تخبريني بالضبط ماذا قال».

حاولت فيكتوريا أكثر ما في استطاعتها استرجاع الكلمات نفسها التي استخدمها الدكتور راسبون.

قالت له: «لكني لا أفهم لماذا يزعجك هذا الأمر الى هذا الحد».

«إيه»، رد إدوارد مشدوهاً، «أنت لا تفهمين. لكن يا فتاتي العزيزة ألم تدركي ان هذا يدل على أنهم اكتشفوا أمرك. انهم يحذّرونك. لا يعجبني هذا البتة يا فيكتوريا».

توقف ثم قال بصوت وقور: «الشيوعيون، كما تعلمين قساة جداً. إن جزءاً من عقيدتهم يقوم على عدم التردد أمام أي شيء. لا أريدهم أن يضربوك على رأسك ويرموك في دجلة يا حبيبتي».

فكرت فيكتوريا كم يبدو غريباً أن يكونا جالسين بين أنقاض بابل يتناقشان عما إذا كان من المحتمل أن يطيحوا برأسها في المستقبل القريب ويرموها في دجلة. مغمضة عينيها نصف اغماضة كانت تفكر حالمة: «سوف أستفيق عاجلاً وأجد نفسي في لندن في منتصف

حلم مأساوي رائع عن بابل الخطيرة». ربما. خطر لها مغلقة عينيها نهائياً: «انا الآن في لندن... وسوف يرن جرس المنبه قريباً. وسوف أستيقظ وأتوجه الى مكتب السيد غرينهولز. ولن يكون هناك أي إدوارد...».

وعند هذه الفكرة الأخيرة فتحت عينيها مجدداً بسرعة لتتأكد من أن إدوارد كان فعلياً معها (وماذا كنت سأسأله في البصرة وقوطعنا ونسيت) ولم يكن الأمر حلماً. كانت الشمس تسطع منهمرة في بريق في طريقة لا علاقة لها بالنور اللندني. وكانت أنقاض بابل شاحبة تضيئها خلفية من أشجار البلح القاتمة. وكان إدوارد يجلس وظهره مدار قليلاً نحوها. ما أروع كيفية انسياب شعره بتجاعيده الصغيرة فوق رقبته ـ وكم كانت رقبته جميلة ـ حمراء برونزية بفعل الشمس ـ من دون أية شوائب عليها ـ غالباً ما تكون رقاب الرجال مشوّهة ببثور أو باحمرارات يسببها احتكاك ياقاتهم بالجلد ـ مثلما كان قد حدث لرقبة السير روبرت على سبيل المثال. كانت البثرة ملتهبة على وشك الظهور.

فجأة خمدت أنفاس فيكتوريا. أذهلتها المفاجأة فتسمّرت في مكانها وكأنما هي في حلم نهاريّ وعاودتها أشياء من الماضي.

استدار إدوارد وتطلع اليها متسائلاً:

ـ «ما الأمر يا عزيزتي؟».

ـ «لقد تذكرت للتو»، انبرت فيكتوريا قائلة: «الأمر المتعلّق بالسير كروفتون لي».

وبينما حدق فيها إدوارد في ذهول تابعت فيكتوريا محاولة

إيضاح الفكرة التي تود تفسيرها له بوضوح كامل.

قالت: «كان هناك بثرة على رقبته».

قال إدوارد محتاراً: «حبّة على رقبته؟».

ـ «أجل. لقد كان قاعداً على المقعد أمامي في الطائرة. تذكرت تلك القلنسوة التي كان يعتمرها. لقد سقطت عن رقبته ورأيت تلك الحبّة».

ـ «ما يمنع أن تكون لديه حبّة على رقبته؟ انها مؤلمة. لكنها تصيب الكثير من الناس».

ـ «أجل. أجل بالطبع هذا يحصل. لكن النقطة الأساسية انها لم تكن هناك حين جلس ذلك الصباح على الشرفة».

ـ «لم تكن! وماذا إذن؟».

ـ «لم تكن تلك الحبّة موجودة. آه يا إدوارد حاول أن تفهم. في الطائرة كانت الحبة موجودة، وعلى شرفة فندق تيو لم تكن هناك. كانت رقبته ناعمة وغير مشوّهة. مثل رقبتك الآن».

ـ «حسناً. أعتقد انها كانت قد شفيت».

ـ «آه. لا يا إدوارد، لم يكن هذا ليحصل. كان مضى يوم واحد فقط وكانت على وشك الظهور حين رأيتها. لا يمكن أن تختفي ـ ليس من دون أي أثر. هل تفهم ماذا اقصد».

ـ «أجل ـ هذا يعني بالتأكيد ـ ان الرجل الذي كان في فندق تيو لم يكن أبداً السير روبرت».

هزّت رأسها بعنف وحدّق فيها إدوارد.

ـ «أنت مجنونة يا فيكتوريا. لا بد وانه كان السير روبرت. هل لاحظت أي اختلاف آخر فيه؟».

ـ «لكنك لا تفهم يا إدوارد، أنا لم أنظر اليه أبداً بدقة ـ نظرت فقط الى ـ حسناً ـ يمكنك أن تقول الى مظهره كاملاً. القبعة، المعطف الفضفاض وسلوكه المتعالي. أقول ان استبدال شخص مزيّف به أمر في غاية السهولة.

ـ «ولكن في السفارة. لقد عرفوا انه هنا..».

ـ «انه لم يمكث في السفارة، أليس كذلك؟ لقد جاء الى فندق تيو. لقد استقبله موظف صغير أو آخرون لم يروه من قبل. السفير موجود في انكلترا. الى جانب هذا فهو يسافر باستمرار وبقي وقتاً طويلاً خارج انكلترا».

ـ «ولكن ما السبب؟..».

ـ «بسبب كارمايكل بالطبع. كان كارمايكل قادماً الى بغداد لمقابلته ـ ليخبره ماذا اكتشف. ولم يكونا قد التقيا من قبل. وهكذا لم يعرف كارمايكل انه لم يكن الرجل الحقيقي. ولم يأخذ حذره منه. وهكذا فإن كارمايكل هو الذي طعن السير روبرت كرفتون لي (المزيف) آه يا إدوارد. كل هذا منطقي».

ـ «أنا لا أصدق أي كلمة من هذا. انه جنون. ثم لا تنسي أن السير روبرت قتل لاحقاً في القاهرة».

ـ «هناك حصل كل شيء. لقد عرفت الآن. آه يا إدوارد كم هذا بشع. لقد تصورت حدوثه».

ـ «تتصورين ما حدث يا فيكتوريا، أنت مجنونة كلياً».

ـ «لا. لست مجنونة البتة. اسمعني فقط يا إدوارد. لقد قرع بابي في فنـدق هيليـوبوليس ـ أو هكذا خيل لي على الأقل فقمت وتطلعت ولكن لم يكن ذلك الطرق على بابي. وإنما على باب المجاور لي. باب غرفـة السـير روبـرت كروفتـون لي. لقـد كانت احـدى المضيفات. طلبت اليه أن يحضر الى مكتب شركة الطيران عند آخر الممر. خرجت من غرفتي بعد وقت قليل من ذلك. عبرت الباب حيث وضعت إشارة مكتب الطيران. انفتح الباب وخرج السير روبرت. ظننت في حينه انه تلقى خبراً غير سار جعله يسير بطريقة مختلفة. هل تفهم يا إدوارد؟. لقد كان فخاً. كان البديل بانتظاره، وعلى أتمّ الاستعداد. ما إن دخل ضربوه على رأسه وخرج البديل في الحال ولعب دوره. أظن انهم احتفـظوا به في القـاهرة، ربما في الفندق بالذات أو أي مكان آخر. أبقوه مخدراً ثم قتلوه في الوقت المناسب عندما عاد البديل الآخر الى القاهرة».

ـ «إنها قصة رائعة»، قال إدوارد، «ولكن بصراحة يا فيكتوريا أعتقد انك لفقت كل هذه القصة. لا براهين فيها».

ـ «هناك الحبّة».

ـ «آه. اللعنة على الحبّة».

ـ «وهناك شيء أو اثنان آخران».

ـ «مـاذا؟».

ـ «إشـارة شركة الطيران على الباب. لم تكن هناك لاحقاً. لقد فوجئت حين اكتشفت ان مكتب شركة الطيران كان في مكان آخر قرب باحة مدخل الفندق. هذا أمر. وهناك امر آخر. مضيفة الطيران تلك التي طرقت باب السـير روبرت. لقد شاهدتها في وقت لاحق

ـ هنا في بغداد ـ وماذا بعد ـ في مركز «غصن الزيتون» بالذات، أول مرة قمت بزيارة المركز. لقد أتت وتحدثت مع كاترين. خطر لي يومها ان كنت شاهدتها من قبل».

بعد دقيقة صمت قالت فيكتوريا:

ـ «لذلك يجب أن تعترف يا إدوارد اني لم أتخيّل كل هذا».

قال إدوارد متمهلاً:

ـ «كل هذا يعيدنا مجدداً الى «غصن الزيتون» ـ وإلى كاترين. تبدو الأمور معقدة يا فيكتوريا. ينبغي أن تتقربي من كاترين اكثر. امدحيها، وافقيها ناقشيها في الأفكار البولشفية. حاولي بطريقة ما أن تصبح علاقتكما حميمة لتتعرفي الى اصدقائها والأمكنة التي تذهب اليها والى الذين تتصل بهم خارج «غصن الزيتون»».

قالت فيكتوريا: «لن يكون هذا سهلاً. لكني سأحاول. ماذا في شأن السيد داكين؟ هل ينبغي أن أطلعه على هذا؟».

«أجل بالطبع. لكن انتظري يوماً او اثنين. قد نكتشف أشياء أخرى». وتنهد إدوارد متابعاً، «سوف أصطحب كاترين الى ملهى «لو سيلكت» لنشاهد عرضاً ما في ليلة ما».

هذه المـرة لم تشعـر فيكتوريا بأية غيرة. لقد قال إدوارد ذلك بتصميم جدّي مستبعداً اي هدف مبطّن لمتعة شخصية.

ـ ٢ ـ

مبتهجـة باكتشـافـاتهـا، لم تجد فيكتوريا في اليوم التالي اية

صعوبة في الترحيب بكاترين ببشاشة وود. ردّدت ان كاترين كانت لطيفة جداً بإطلاعها على مكان تستطيع فيه غسل شعرها الذي كان في أمس الحاجة الى غسيل (كان لا يمكن مناقشة ذلك، إذ انها كانت عادت من بابل وأصبح شعرها أحمر بفعل غبار الرمول الحمراء بلون الصدأ.

ـ «ان منظره يبدو مخيفاً. هذا صحيح». أجابت كاترين وهي تحدق في فيكتوريا بخبث. «لقد خرجت إذن البارحة بعد الظهر وسط عاصفة رملية؟».

قالت فيكتوريا: «لقد استأجرت سيارة وزرت بابل. كانت الرحلة مثيرة. لكننا تعرضنا في طريق العودة لعاصفة رملية ولقد صُدمت وكدت أفقد نظري».

ـ «هذا مثير. قمت بزيارة بابل. لكن كان ينبغي أن تذهبي مع مرافق لكي يشرح لك عن المكان بوضوح. أما بالنسبة لشعرك، فسوف آخذك الى تلك الفتاة الأرمنية هذا المساء. سوف تغسله بالشامبو. انه الأفضل».

قالت فيكتوريا: «لا أعرف كيف يمكنك أن تحافظي على رونق شعرك بهذا الشكل». كانت تنظر متصنّعة الاعجاب الى خصل شعرها الدبقة بالإفرازات الشحمية القبيحة.

ارتسمت ابتسامة على وجه كاترين المتجهم عموماً وراود فيكتوريا: «كم كان إدوارد على حق حين تحدث عن الاطراء»!.

حين غادرتا «غصن الزيتون» تلك العشية كانت الفتاتان على وفاق تام. كانت كاترين تجتاز المعابر والأزقة الضيقة الى أن قرعت أخيراً على باب لا إشارة عليه لأي صالة تزيين أو ما يشابه.

استقبلتهما امرأة شابة بدت كفوءة وتحدثت بانكليزية بطيئة محترسة، ثم قادت فيكتوريا صوب حوض نظيف جداً وحوله حنفيات لماعة وكذلك مجموعة من زجاجات سائل الشامبو والسوائل الأخرى. غادرت كاترين وسلّمت فيكتوريا كتلة شعرهاالى يدّي الآنسة أنكوميان الرشيقتين. وسرعان ما تحول شعرها الى كتلة كبيرة من رغوة الصابون.

ـ «والآن إن كنت تسمحين...».

انحنت فيكتوريا فوق الحوض. كان الماء ينساب فوق رأسها ثم يكركر منزلقاً داخل فتحة التفريغ.

فجأة أفعم أنفها بعنف برائحة طبيّة أو على الأصح مَرَضيَّة ذكّرتها بشكل غير واضح برائحة المستشفيات. أحكمت ضمّادة مبللة ومشبعة الاطباق على أنفها وفمها. قاومت بشراسة ملتوية ومنتفضة، غير أن القبضة الحديدية أبقت الضمادة في مكانها. بدأت تختنق، كان رأسها يدور بفعل الدوخة. وسمعت زئيراً عظيماً...

وبعد ذلك كان السواد عميقاً، وحالكاً جداً.



الفصل الثامن عشر



حين استعـادت فيكتوريا وعيها أحست بمضيّ وقت شاسع. اضطربت في داخلها ذكريات مشوّشة: اهتزازات في سيّارة ـ ثرثرة وشجار بالعربية ـ أضواء سُلطت الى عينيها ـ غثيان مريع ـ ثم تذكرت بغموض انها تمددت على فراش وان أحدهم رفع ذراعها ـ ثم وخز إبرة موجع ـ ثم أحلام أكثر تشويشاً وعتمة ووراء كل هذا شعور متعاظم بالعجلة...

والآن تماسكت قليلاً ـ فيكتوريا جونز... شيء ما حدث لفيكتوريا جونز ـ منذ وقت طويل ـ أشهر ـ وربما سنوات... في النهاية، ربما منذ أيام.

بابل ـ الشمس ـ غبار ـ شعر ـ كاترين. كاترين أجل بالطبع. مبتسمة. عيناها الخبيثتان تحت خصلات شعرها القذرة. لقد ذهبت برفقتها لتغسل شعرها وبعدها ـ ماذا حدث؟ ـ الرائحة المريعة ـ انها لا تزال تشمها ـ مثيرة للغثيان ـ بالطبع انه الكلوروفورم ـ لقد خدّروها بالكلوروفورم واختطفوها ـ إلى أين؟».

حاولت فيكتوريا الجلوس بحذر. بدا وكأنها متمددة على فراش ـ فراش قاس جداً. كان رأسها يؤلمها وشعرت بالدوخة. كانت

لا تزال نعسى، نعسى بشكـل مريـع... تلك الإبـرة. إبـرة. كانـوا يحقنونها بالمخدر. كانت لا تزال نصف مخدّرة.

حسناً. على أية حال لم يقتلوها، (لماذا لم يفعلوا)، إذن كان كل شيء حسناً. فكرت فيكتوريا ان أفضل ما يمكن أن تفعله بما انها لا تزال نصف مخدّرة هو النوم. وهكذا استسلمت له على الفور.

حين استفاقت مجدداً شعرت ان حالة رأسها كانت أفضل. كان الوقت نهاراً واستطاعت الآن أن ترى بشكل أفضل حيث كانت.

كانت داخـل غرفـة صغيرة ولكن مرتفعة مدهونة بلون رمادي مخضّر كئيب. كانت الأرضية مجرد تراب مرصوص. كان الأثاث يتألف من السرير الذي استلقت عليه وبطّانية متسخة ملقاة فوقها، طاولة صغيرة وطشت مطليّ فوقها. كان هناك نافذة بإطار خشبي. نهضت فيكتوريا بصعوبة من الفراش وكانت تشعر بألم طفيف في رأسها وبتوعك غريب، ودنت من النافذة. استطاعت أن تنظر عبر خشب النافذة المزخرف. رأت حديقة وخلفها أشجار نخيل. كانت الحديقة جميلة شرقية الطابع. احتوت نباتات من القطيفة برتقالية اللون، وأشجار أوكاليبتوس مغبرّة، وأشجارمن نوع الطرفاء.

كان هناك ولد موشوم الوجه باللون الأزرق، كان يقفز في المكان متلاعباً بكرة ويرنّم بأنفه نحيباً أشبه بصوت مزمار قصّي.

التفتت فيكتـوريا نحو الباب. كان كبيراً وضخماً. اقتربت منه وحاولت من دون أمل فتحه. كان الباب مقفلاً. رجعت وجلست الى طرف الفراش.

أين كانت؟ لم تكن في بغداد. كانت متأكدة. وما الذي ستفعله بعد هذا؟

خالجها بعد دقيقة شعور ان السؤال لم يكن مناسباً. كان السؤال الصحيح هو ماذا سيفعلون بها؟ ثم تذكرت مع ألم هزيل في معدتها توصية السيد داكين لها بالاعتراف بكل ما تعرفه. لكن ربما كانوا حصلوا على اعترافها بينما كانت لا تزال تحت تأثير المخدر.

على أية حال ـ عادت فيكتوريا مجدداً الى هذه النقطة بالذات بتصميم بهيج ـ كانت ما تزال حيّة ترزق. لو استطاعت البقاء على قيد الحياة الى أن يجدها إدوارد ـ ماذا سيفعل إدوارد حين يكتشف انها اختفت؟ هل سيتوجه الى السيد داكين؟ هل سيتصرف بمفرده؟ هل سيهدد كاترين ويرغمها على الاعتراف؟ هل سيشتبه بكاترين؟ وأكثر من هذا حاولت فيكتوريا أن تتخيّل صورة مطمئنة لردة فعل إدوارد. وهي تفعل ذلك، كانت صورة إدوارد تتوارى الى أن أصبحت مجرّدة. هل كان إدوارد ذكياً كفاية؟ هذا ما خلصت اليه في الواقع. كان إدوارد فاتناً. كان جذاباً. لكن هل هو ذكيّ؟ لأنه حسبما رأت من جراء ما أصابها فإن المسألة كانت في حاجة الى حذاقة.

السيد داكين في مطلق الأحوال ملك الحذاقة المطلوبة. ولكن هل سيتحرك بزخم من أجلها؟ أم انه سيشطب اسمها من الدفتر بكل بساطة أو يكتب وراءه «فلترقد بسلام». في النهاية لم تكن بالنسبة للسيد داكين سوى مجرد رقم بين جمهور كبير. لا لم تكن تتصور ان السيد داكين سيقوم بتنظيم عملية لانقاذها. على أية حال لقد كان قد أنذرها.

والدكتور راسبون أنذرها أيضاً. (أنذرها أم هددها؟) وحين

رفضت التهديد سرعان ما قاموا بتنفيذه...

لكنها لا تزال على قيد الحياة، رددت فيكتوريا هذا مصممة على تبني الوجهة الايجابية للأمر.

اقتربت خطوات في الخارج، وبعد حرتقة مفتاح في القفل الخارجي الصدىء. انزاح الباب وانفتح. ظهر من الفتحة رجل عربي. كان يحمل صينية عليها صحون.

كان يبدو منشرحاً، وراح يغمغم بلا مبالاة. لفظ بعض الملاحظات غير المفهومة بالعربية. وفي النهاية وضع الصينية، فتح فمه وأشار الى داخل حلقه وعاد أدراجه مقفلاً الباب خلفه.

اقتربت فيكتوريا من الصينية باهتمام. كان هناك صحن كبير من الأرز وشيء يشبه وجبة الملفوف وقطعة كبيرة من الخبز العربي. وأيضاً جرّة ماء مع كوب من الزجاج.

بدأت فيكتوريا بشرب كوب من الماء ثم انقضّت على الأرز والخبز والملفوف الذي كان محشواً بقطع لحم متميزة الطعم. حين أنهت كل ما كان على الصينية شعرت ان حالها أفضل بكثير.

حاولت جاهدة أن تحلل الأمور بشكل أوضح. لقد خدّرت وخطفت، كم مضى على ذلك؟ بالنسبة لهذا الأمر لم تكن واثقة على الإطلاق. من الذكريات المشوشة عن صحواتها وغفواتها تصوّرت ان الفترة لم تتجاوز بضعة أيام. لقد أخرجوها من بغداد ـ إلى أين؟. هنا أيضاً لم تستطع أن تعرف. ولّما كانت تجهل العربية لم يكن في الامكان أن تطرح أي سؤال. لم تكن تستطيع تحديد المكان أو الزمان.

تبع هذا عدة ساعات من الضجر القاتل.

عند العشية عاد سجّانها مع صينية أخرى من الطعام. حضرت معه هذه المرة امرأتان. ارتدتا ثوبين أسودين وكانتا محجّبتين. لم تدخلا الغرفة بل وقفتا خارج الباب. كانت واحدة تحمل طفلاً بين ذراعيها. وقفت هناك تضحك. عبر شفافية حجابيهما رأت أعينهما تقومانها؛ كان الأمر مثيراً بالنسبة اليهما ومضحكاً أيضاً. هكذا شعرتا تجاه وجود إمرأة انكليزية سجينة هناك.

حدثتهما فيكتوريا بالانكليزية وبالفرنسية لكنهما أجابتا بالضحك. خطر لها انه أمر شاذ أن لا تستطيع التواصل مع كائنات من جنسها. تلفظت ببطء وبصعوبة احدى الجمل التي كانت قد حفظتها:

ـ «الحمد لله».

كوفئت بفيض بهيج من الكلمات العربية. كانتا تهزان رأسيهما بمودة. تقدمت فيكتوريا نحوهما، ولكن الرجل العربي تراجع وقطع عليها الطريق. أشار الى الامرأتين أن تتراجعا ثم خرج هو نفسه مغلقاً ومقفلاً الباب من جديد. قبل أن يفعل هذا، لفظ كلمة واحدة عدة مرات: «بُكرا، بُكرا...».

هذه الكلمة كانت فيكتوريا قد سمعتها من قبل. كانت تعني غداً.

جلست فيكتوريا على السرير تسترجع كل ما جرى.

غداً؟ غداً سيأتي أحد ما، أو سيحصل شيء ما! غداً ستنتهي فترة سجنها (وربما لا؟) ـ ولو انتهت فقد تنتهي هي أيضاً! موجزة كل ما حصل لها، لم تعد فيكتوريا مهتمة بما سيحصل نهار الغد.

حدست انه سيكون أفضل لو أصبحت في الغد في مكان آخر.

لكن هل كان هذا معقـولاً؟ وللمرة الأولى انتبهت لهذه المسألة باهتمام. اقتربت من الباب وتفحصته. وبالطبع لم يكن أي شيء ينفع معه. لم يكن قفله من النوع الذي يستطيع ملقط شعر خداعه. هذا لو كانت تستـطيع فتح مطلق قفل بملقط شعر، وكانت تشك بقدرتها على ذلك.

بقيت النافذة. كانت النافذة كما اكتشفت بسرعة احتمالاً ممكناً. كانت الزخرفة الخشبية الواقية آخر دفاع لها. ولو نجحت كلياً في تحطيم الخشب العفن هذا والتسلل منه، فلن تستطيع تحقيق ذلك من غير احـداث ضجّة كبيرة سوف تلفت اليها الانتباه بالتأكيد. إضافة الى هذا كانت الغرفة حيث سجنت في الطابق العلوي، وكانت تحتـاج الى حبـل أو ما يشابه أو ستضطر الى القفز ويحتمل أن تصاب من جراء هذا بكسر أو بالتواء في كاحلها. فكرت فيكتوريا انهم في الروايات يصنعون حبالاً من الشراشف وهكذا نظرت بريبة الى بطانيتها السميكة القطنية والى حرامها البالي. لم يبد أي منهما صالحاً لخدمة هدفها. لم يكن لديها ما تقطع أو تقص به البطانية، وعلى الرغم من انها كانت تستطيع تمزيق الحرام فقد فكرت انه كان من الممكن نظراً لحالته العفنة، أن يتمزق تحت وطأة ثقلها.

ـ «اللعنة»، هتفت فيكتوريا بصوت مرتفع.

شغفت بفكرة الفرار أكثر وأكثر. كان سجّانوها كما تخيّلت أناساً بسطاء يعتبرون انه بمجرد اقفال الباب ينتهي الأمر. لن يعتقدوا أبداً انها ستهرب لسبب بسيط للغاية وهو انها سجينة ولن تستطيع ذلك. ذاك الذي خدّرها وربما نقلها الى هنا لم يكن في هذا المكان

الآن ـ وهذا كان أكيداً. كان يتوقّع حضوره أو حضورها «بكرا». لقد تركوها في مكان ناء تحت حراسة أناس محليين بسطاء قد ينفّذون الأوامر ولا يستجيبون أبداً للرقة. ولم يكونوا حسب تقديرها واعين لمأساة فتاة أوروبية خائفة من الموت.

حدثت فيكتوريا نفسها قائلة: «سوف أخرج من هنا».

قرّبت الطاولة وبدأت تتناول الطعام الجديد الذي أحضر لها. يجب أن تحافظ على قوتها أيضاً. كان هناك أرز وبضع برتقالات وبعض قطع اللحم في صلصة برتقالية اللون.

التهمت فيكتوريا كل شيء ثم شربت جرعة من الماء. وبينما كانت تضع الجرة على الطاولة اهتزت ووقع قليل من الماء على الأرض، فأصبحت الأرضية حيث سقط الماء على الفور بقعة من الوحل السائل. وهنا لمعت على الفورة الفكرة في دماغ الآنسة فيكتوريا جونز.

كان السؤال. هل تُرك المفتاح في القفل الخارجي من الباب؟

كانت الشمس تغيب. عاجلاً ستكون عتمة. تقدمت فيكتوريا نحو الباب، ركعت وحدقت داخل ثقب المفتاح الواسع. لم تر أي نور. ما كانت تحتاجه الآن هو أي شيء لتلكز به المفتاح ـ قلماً أو رأس قلم من الرصاص. لقد أخذوا حقيبتها. تطلعت في الغرفة عابسة. لم تجد شيئاً مناسباً غير ملعقة ضخمة على الطاولة. لم تكن تلك تنفع لغرضها، إلا انها قد تنفع في وقت لاحق. جلست فيكتوريا تحلل وتخطط. فجأة هلّلت منتفضة. انتزعت حذاءها ونزعت عن جوفه الغطاء الجلدي. لفّته جيداً. أصبح قاسياً الى حد معقول.

عادت وتـوجهت نحو الباب. ركعت وحشرت اللفّة الجلدية في ثقب المفتـاح. لحسن حظّهـا كان المفتـاح الضـخم غير مشدود داخل القفـل. بعد ثلاث أو أربع دقائق استجاب لجهودها وسقط أمام جهة الباب الخارجية. أحدث وهو يسقط ضجة قليلة على الأرضية الترابية.

فكرت فيكتوريا انه ينبغي عليها الآن أن تسرع قبل أن تظلم كلياً. أحضرت الجرّة وسكبت قليلاً من الماء في موضع تحت الباب خمّنت انه الأقرب الى المكان الذي كانت توقعت أن يكون سقط فيه المفتاح. ثم راحت تحفر بالملعقة وبأصابعها في البقعة الموحلة. شيئاً فشيئاً وبمساعدة مياه إضافية من الجرة استطاعت أن تحفر فجوة صغيرة تحت الباب. تمددت وحاولت التحديق عبرها لكن لم يكن سهـلاً رؤيـة أي شيء. رفعت كمّهـا ووجدت انها تستطيع تمرير ذراعها تحت الباب. جعلت تتلمس بأصابعها وأخيراً لمست بروؤس أصابعها حجماً معدنياً. لقد عثرت على المفتاح لكنها لم تتمكن من مطّ ذراعها أكثر لالتقاطه. كان عليها أن تنتزع دبوساً كان يمسك شريـط صدريتهـا. ثم جعلت تحـاول التقاطه من جديد بواسطة الدبوس، ولما كانت على وشك أن تصرخ من الغيظ، أمسك الدبّوس المفتـاح وتمكنت من سحبه الى مستوى أصابعها، ثم جرّته عبر الحفرة الموحلة اليها.

بقيت فيكتوريا راكعة متأملة حذاقتها بإعجاب. أمسكت المفتاح بيـديهـا الموحلتين وأدخلته في القفل. وانتظرت دقيقة وعندما بدأ كورس من الكلاب في الجوار نباحه ادارته. فأحدث الباب أزيزاً وهي تدفعـه فانفتح قليلاً. تلصصت فيكتوريا بحذر عبر الفتحة. كان

وراء الباب غرفة أخرى صغيرة وباب مشرع عند نهايتها. انتظرت قليلاً ثم قطعتها منسلّة على رأس أصابعها. كان في هذه الغرفة فجوتان واسعتان في سقفها وواحدة أو اثنتان في أرضيتها. الباب الذي عند نهاية الغرفة كان يؤدي الى قمة درجات من الطوب كانت مرصوفة الى جانب المنزل وكانت تؤدي بالتالي الى الحديقة.

هذا ما رغبت فيكتوريا في رؤيته. عادت وتوجهت على رؤوس أصابع قدميها الى غرفة سجنها. لم يكن هناك أي احتمال بعودة اي كان لزيارتها الليلة. سوف تنتظر حتى يصبح الوقت ليلاً وتنام القرية أو البلدة وعندها ستنطلق.

لاحظت شيئاً آخر. كان هناك قماشة سوداء مكوّمة أمام الباب الخارجي. قدرت انها عباءة قديمة وستكون مفيدة لها لإخفاء زيّها الأوروبي.

لم تعرف فيكتوريا كم من الوقت انتظرت. خالتها ساعات لامتناهية. في النهاية خمدت كل الأصوات البشرية المحلية. توقف زعيق الاغاني العربية في الغراموفون أو الفونوغراف البعيد. لم تسمع لا أصوات شجار ولا بصاق ولا ضحك نساء بعيدات وأيضاً لا صراخ أطفال.

ما سمعته فقط كان عواء قصياً افترضت انه لثعالب، واندلاعات مفاجئة لنباح كلاب كانت أيقنت انها ستتابع معظم الليل.

وقفت فيكتوريا وقالت: «حسناً، هيا بنا!».

بعد برهة من التفكير أقفلت باب سجنها من الخارج وتركت المفتاح في القفل. ثم تحسست طريقها عبر الغرفة الخارجية،

انتشلت العباءة السوداء وخرجت الى قمة الدرجات. كـانت ليلة مقمـرة لكن القمر كـان لا يزال منخفضـاً. كان ضـوؤه كـافيـاً لكشف طريقها. تدرّجت هابطة الدرجـات. ثم توقفت قبـل أربع درجات من نهايتها. كانت هنا بمستوى الجـدار الطوبي المحيط بالحديقة. لو تابعت هبوط الدرجات لكـان يتوجب عليهـا العبور الى جـانب المنـزل. استطـاعت أن تسمـع شخيـراً في الغـرف السفلية. ولو تابعت سيرها فوق حافة الجدار الخارجي لكان ذلـك أفضل. كان الجدار سميكاً كفاية لتمشي فوقه.

اختـارت الجدار وانسلّت بخفة وحذر حيث انعطف في اتجاه اليمـين ليـدخل حديقة من أشجار النخيل، وينتهي هناك. شقت فيكتوريا طريقها هناك قافزة حيناً ومهرولة حيناً آخر. كانت تشق طريقها بين شجرات النخيل حتى وصلت الى فتحة داخل جدار عند نهـاية الشجرات. حين مرت من الفتحة وجدت نفسها في شارع ضيّق وبدائيّ وأضيق من أن تقطعه سيّارة، غير أنه يصلح بالتأكيد للحمـير. انـدفعت تجـري بين الجدران الطوبية الموحلة. أسرعت فيكتوريا بكل ما أوتيت من قوة.

بدأت الكـلاب تعـوي مسعـورة. انـطلق كلبان من أمام باب واعترضا طريقها. تناولت عن الأرض حجارة وقذفتهما بها. نبحا ثم هربا. ركضت فيكتوريا مجدداً. لفّت منعطفاً ووصلت الى طريق بدا واضحـاً انه الطريق الرئيسي. كان ضيقاً وقاسياً من كثرة الوطء. كان يمتـد عبر قرية من البيوت الطينية التي بدت شاحبة تحت ضوء القمر. كانت أشجار النخيل منحنية فوق الحيطان وكانت الكلاب تنبح وتئن. تنفست فيكتوريا عميقاً وركضت. تابعت الكلاب تعوي،

لكن هـذا لم يلفت انتبـاه أي مخلـوق بشري في هـذه الليلـة الساكنة. بعد وقت قليل أطلّت على مساحة واسعة وعـلى مجرى موحل ـ ارتفع فوقه جسر محدودب. قطعت ڤيكتوريا كل الطريق وتـابعت الى حيث ظهرت مسـاحة لا متنـاهية ـ تـابعت تركض حتى انقطعت انفاسها.

كانت القرية قد اصبحت الآن بعيدة وراءها. وكان القمر قد ارتفـع في السماء، الى يسـارها، يمينهـا وأمامهـا كانت الأرض صخرية جرداء، ارض غير مزروعة ولا علامة لأي سكن فـوقها. لم تكن فيها أي نقطة ارتكاز ولم تعرف ڤيكتوريا الى أي اتجـاه كانت تتقدم. ولم تكن تفقه بمسألة النجوم. كانت هذه المسـاحة الجرداء الشاسعة مثيرة للخـوف ولكن العودة كـانت مستحيلة. لم تكن تستطيع سوى المتابعة.

توقفت بضـع دقائق لتسترجـع انفاسهـا ولتطمئن متلفتة الى الخلف فلربما اكتشفوا قربها. وتابعت سائرة لمسافة مـا يقارب الأربعة أميال باتجاه المجهول.

طلع الفجر أخيراً وكانت ڤيكتوريا منهكة، متورّمـة القدمـين وعلى حافة الهستيريا. حين رأت اتجاه انبعاث النور تأكدت انها كانت تتوجه نحو الجنوب الغربي. وكونها لم تكن تفقـه الى أين تتوجه لم تكن لهذه المعرفة أية قيمة.

على مسافة قليلة من السبيل الذي تبعته ارتفعت تلة أو هضبة صخرية صغيرة. انعطفت فيكتوريا وتوجهت نحو التلة التي كانت جنباتها حادّة وتسلّقتها حتى القمة.

هناك تمكنت من رؤية كل المنطقة المحيطة، وتضاعف بذلك لديها الشعور المخيف بالضياع. لم يكن هناك أي شيء في أي اتجاه...

كان المنظر جميلاً تحت ضوء الفجر الباكر. تلوّنت الأرض والمدى بظلال ضعيفة بلون المشمش والورد. كان المنظر جميلاً ومخيفاً في آن واحد. خطر لفيكتوريا: «أعرف الآن ماذا يعني أحدهم حين يقول انه وحيد في العالم...».

لم تشاهد سوى بقعة قليلة من العشب وبعض الأشواك المتيبسة، وغير ذلك لم تكن هناك أية مزروعات، أو دلائل حياة. كانت هناك فقط فيكتوريا جونز.

لم تظهر أمام نظرها اطلاقاً القرية التي كانت قد هربت منها. الطريق الذي سلكته توارى الى اتساع من الأرض البوار. لم تصدق فيكتوريا انها اجتازت كل هذه المسافة. لبرهة راودتها نزعة أن تعود أدراجها. لتكون بين البشر بشكل أو بآخر.

تماسكت. لقد كانت قررت الفرار. ونجحت في ذلك، غير أن مشاكلها لم تنته في بساطة بمجرد انها ابتعدت أميالاً عن سجّانيها. في وسع أي سيّارة مهما كانت قديمة ومتداعية أن تقطع هذه الأميال في وقت قصير. ما إن يكتشفوا فرارها، سوف ينطلق أحد ما في إثرها.. فكيف بحق السماء ستختبىء. في بساطة لم يكن هناك أي مكان للإختباء. كانت لا تزال تحمل العباءة السوداء الرثّة. لفّتها عليها ورفعتها لتغطي وجهها. لم تعرف كيف بدت فيها إذ لا مرآة في الجوار. إن خلعت حذاءها وجوربيها ومشت حافية ربما لن يلحظ أحد اختلافها. لم يكن أحد يجرؤ على اعتراض امرأة محجبة مهما كانت ملابسها رثّة أو فقيرة. كانت بمنتهى العار أن يتحرش أي رجل بها. ولكن هل سيخدع تنكرها هذا العيون الغربية

التي ستنتشر بحثاً عنها في سيّارات. في مطلق الأحوال كان هذا أملها الوحيد.

كانت تستطيع الاختباء خلف التلة وبهذا تكون احتجبت عن عابري الطريق.

من جانب آخر، كانت تريد بأي ثمن العودة الى المدينة، ولم تكن من وسيلة لتحقيق ذلك سوى أن تستوقف سيارة لأوروبيين وتطلب اليهم نقلها.

كانت منهكة تماماً. وكانت عطشى جداً ولكن تحقيق ذلك يبدو مستحيلاً الآن وافضل ما يمكن أن تفعله هو الاستلقاء الى جانب التلة. وهناك تستطيع سماع اقتراب السيّارة وتستطيع أيضاً أن ترى من في داخلها.

لكن كيف ستعرف أن أولئك الأوروبيين ليسوا أعداءها. كيف بحق الله ستتأكد من ذلك؟

غفت فيكتوريا من شدة الاعياء لطول المسافة التي قطعتها وهي تفكر بقلق في هذه المسألة بالذات.

حين استفاقت كانت الشمس فوقها مباشرة. شعرت بالحر والعطش وبالدوار. إلا أن عطشها كان هو الأشد وطأة. همهمت فيكتوريا، وما إن لفظت الهمهمة حتى تسمّرت وأنصتت. سمعت ضجيجاً ضئيلاً انما متميزاً لاقتراب سيّارة. رفعت رأسها بحذر. لم تكن السيارة قادمة من اتجاه القرية بل نحوها. هذا يعني انها لم تكن تطاردها. كانت تراها مجرد نقطة سوداء بعيدة. بقيت مستلقية

ومحتجبة قدر المستطاع، وراقبت السيارة تقترب. كم تمنّت لو كان في حوزتها منظار مكبر.

اختفت السيارة لدقائق قليلة في منخفض، ثم ظهرت مجدداً متسلقة هضبة قريبة قليلة الارتفاع. كان سائقها عربياً وجلس الى جانبه رجل في لباس غربيّ.

فكّرت فيكتوريا: «الآن يجب أن أقرر»، هل كانت هذه فرصتها؟ هل ينبغي أن تركض الى الطريق وتستوقف السيارة؟

لحظة كانت تستعد لتفعل هذا، استوقفها ارتياب مفاجيء. لنفترض. لنفترض فقط ان هذا كان العدو؟

في النهاية، كيف كان لها أن تحذر؟ كانت تلك الطريق مقفرة جداً. لم تعبرها أية سيارة أخرى. ولا شاحنة. ولا حتى قافلة من الحمير. قد تكون هذه السيارة متوجهة الى القرية التي غادرتها في الأمس...

كيف ستتصرف؟ كان القرار فظيعاً وكان ينبغي أن تتخذه في غضون لحظات. لو كان هذا العدو فستكون النهاية. لكن ان لم يكن العدو فقد تكون هذه فرصتها الأخيرة للبقاء على قيد الحياة. لأنها لو تابعت تشردها هذا فقد تموت من العطش، من الشمس. ماذا كان ينبغي أن تفعل؟

وبينما تكورت مشلولة القرار حوّلت السيارة المقتربة مسارها. خففت سرعتها، ثم انعطفت لتخرج من الطريق وتتقدم نحو التلة الصخرية التي كانت تختبيء وراءها.

لقد شاهدوها! كانوا يبحثون عنها!

انزلقت فيكتوريا فوق الأخدود ثم زحفت الى خلف التلة هرباً من السيّارة المقتربة.. سمعتها تصل وتتوقف ثم صفق الباب بعد أن خرج منها أحدهما.

تلفظ بعدها أحد ما كلاماً بالعربية. بعد ذلك لم يحدث مطلق شيء. وفجأة ومن دون انذار ظهر أمامها رجل. كان يتمشى حول التلة عند وسطها تقريباً. كان محدقاً في الأرض وكان يتوقف بين الوقت والآخر منتشلاً شيئاً ما. ومهما كان الشيء الذي يبحث عنه، فهو ليس بالتأكيد فتاة تدعى فيكتوريا جونز. إضافة الى ذلك كان انكليزياً من دون أدنى شك.

تنفست فيكتوريا الصعداء وجهدت لتقف على قدميها واقتربت اليه. رفع رأسه وحدق فيها متفاجئاً.

«آه أرجوك» قالت فيكتوريا، «أنا سعيدة انك أتيت».

بقي مشدوهاً.

قال: «بحق السماء، هل أنت انكليزية؟ لكن».

ضاحكة خلعت فيكتوريا عنها العباءة.

قالت: «بالطبع أنا انكليزية. وأرجوك، هل تستطيع أن تعيدني الى بغداد؟».

ـ «لست متوجهاً الى بغداد. لقد جئت منها لتوّي. ولكن ماذا تفعلين بحق الله هنا وحيدة في وسط الصحراء؟».

قالت فيكتوريا مقطوعة الأنفاس: «لقد اختطفوني، لقد توجهت لأغسل شعري، فخدّروني بالكلوروفورم، وحين استفقت وجدت نفسي في منزل عربي في قرية هناك وراء هذا الاتجاه».

- «في منــدالي؟».

- «لا أعرف اسمها. لقد هربت ليلة الأمس. لقد مشيت طوال الليل ثم اختبأت وراء هذه التلة حسبت انك أنت العدوّ».

كان مخلّصها يحدق فيها وعلى وجهه ارتسمت تعابير الغرابة. كان رجلاً في الخامسة والثلاثين من العمر تقريباً، وافر الشعر وفي وجهـه كبـرياء ظاهر. كان حديثه أكاديمياً ومقتضباً. وضع الآن نظارتـين وحـدق فيها عبرهما في انزعاج. عرفت فيكتوريا ان هذا الرجل لم يصدق كلمة واحدة من قصّتها.

انتفضت على الفور في سخط.

قالت: «ما أخبرتك صحيح. كل كلمة فيه حقيقية».

وبدا الرجل الغريب غير مصدّق أكثر من أي وقت سبق.

قال في برودة، «هذا مميّز جداً».

توقفت فيكتوريا يائسة. كان ما يحصل غير منصف. كانت تنجح دائمـاً في جعـل أكـاذيبهـا قابلة للتصديق، في حين كانت تفشل باستمـرار في سرد الحقائق بأسلوب مقنع. كانت تروي الأحداث الحقيقية بطريقة سيئة.

- «إن كنت لا تحمل معك ماء للشرب فسوف أموت من العطش»، وأضافت، «سأموت من العطش في مطلق الأحوال ان تركتني هنا وغادرت من دوني».

قال الرجـل الغـريب بجديّة: «بالتأكيد لن أفعل هذا حتى في الحلم. ليس بالأمـر المـلائم البتـة أن تتجـول امرأة انكليزية في البراري. يا للهول ان شفتيك مشققتان بشكل فظيع... يا عبدالله».

- «ماذا يا صاحبي؟».

أطلّ السائق من خلف التلة.

تلقى السائق الأمر بالعربية وعجّل، وعاد بعد قليل من السيارة حاملاً «ترمس» ماء وكوباً صغيراً.

شربت فيكتوريا الماء بشراهة.

- «أوو»، وقالت: «هذا أفضل».

قال الرجل الانكليزي: «اسمي ريتشارد بايكر».

ردت فيكتوريا:

- «اسمي فيكتوريا جونز». ثم في محاولة لاسترجاع مصداقيتها الضائعة، ولاستبدال إثارة انتباهه بعدم تصديقه لها بشكل محترم. أضافت:

«باونسفوت جونز. أنا في طريقي للالتحاق بعمّي الدكتور باونسفوت جونز في موقع تنقيباته».

قال بايكر محدقاً فيها في ذهول: «يا للمصادفة الخارقة. أنا أيضاً في طريقي لأنقّب بنفسي. إن المكان يقع على بعد خمسة عشر ميلاً من هنا. لقد كنت الشخص المناسب لإنقاذك، أليس كذلك؟».

سيكون أمراً لطيفاً لو قلنا ان فيكتوريا تفاجأت بهذا. لقد صدمت كلياً، الى درجة انها لم تستطع التفوه بكلمة واحدة. تبعت ريتشارد خانعة وصامتة الى السيارة وركبتها.

قال ريتشارد بعد أن جلس على المقعد الخلفي. الى جانب

اعتدته: «أعتقد انك عالمة آثار. سمعت انك قادمة لكني لم أتوقع حضورك في هذا الفصل».

وقف وجعل يخرج من جيوبه أجزاء آنية فأدركت فيكتوريا انها كانت تلك الأشياء التي التقطها فوق التلة.

ابتسم وقال لها: «انها تلّة أثرية. أنا سعيد لأن مشاكلك لم تمنع حسك بالتنقيب من تفحص التلة».

فتحت فيكتوريا فمها ثم أغلقته من جديد. أدار السائق السيارة وانطلقوا من جديد.

على أية حال ماذا في وسعها أن تقول؟ صحيح، انها ستنفضح ما أن يصلوا إلى مكان التنقيب. غير أن هذا أفضل من أن ينفضح أمرها للسيد بايكر في وسط اللامكان. يمكنها هناك أن تبتكر أعذاراً مبررة ادعاءها. أسوأ ما قد يفعلون بها سيكون ارجاعها الى بغداد. في مطلق الأحوال، فكرت فيكتوريا انها قد تستطيع اجتراح تبرير ما قبل وصولها الى هناك. وتحركت مخيلتها على الفور. فقدان ذاكرة؟ هل تدّعي هذا. لا، لقد فضّلت مصارحة الدكتور باونسفوت جونز بالحقيقة.

قال السيد بايكر: «لن نمر مباشرة في مندالي سوف نتحول في طريق داخل الصحراء تبعد قرابة الميل عنها. يصعب أحياناً الوصول الى الأمكنة بدقة من دون مساعدة نقاط ارتكاز معينة».

ثم توجه محدثاً عبدالله وتحول هذا الأخير بالسيارة الى خارج الطريق واندفع مباشرة داخل الصحراء. كان ريتشارد يشير الى عبدالله من غير أن تكون هناك أمامهم أية شارات: توجّه الى

اليمين ـ الى اليسار. بدا ريتشارد مرتاحاً.

قال: «توجّه الى الطريق يميناً».

لم تر فيكتوريا أي طريق، لكنها لمحت بتقطع آثار عجلتي سيارة.

حين انبرى أمامهم أثر واضح لعجلتين هتف ريتشارد وأمر عبدالله بالتوقف.

ـ «هذا مشهد مهم يا فيكتوريا. خصوصاً لك: بما أنك جديدة في هذه البلاد لا بد وانك لم تشاهديه من قبل».

كان رجلان يقتربان في اتجاه السيارة من ناحية الأثر. كان أحدهما يحمل مقعداً خشبياً على ظهره، وحمل الآخر شكلاً خشبياً كبيراً يشبه البيانو.

لوح لهما ريتشارد بيده. حيّاه الاثنان بكل ما أتيح لهما من علامات تهليل. قدم لهما ريتشارد السجائر وكان اللقاء أشبه باحتفال.

ثم استدار ريتشارد متحولاً نحوها:

ـ «هل تحبين السينما؟ إذن سوف تشاهدين استعراضاً».

ثبّتا المقعد وأشارا لفيكتوريا ولريتشارد أن يجلسا عليه ثم ركزا اختراعهما الخشبي الشبيه بالمنصة. كان يحتوي ثقبين مستديرين وما إن رأت فيكتوريا هذا حتى صرخت:

ـ «انه يشبه الأشياء التي نراها على الأرصفة البحرية. انه صندوق الفرجة».

قال ريتشارد: «بالضبط. لكن من النوع البدائي».

الصقت فيكتوريا احدى عينيها بالعدسة الزجاجية. بدأ أحد الرجلين يحرك ذراع تدوير وراح الآخر يغني بطريقة ترداية أحد الألحان.

سألت فيكتوريا: «ماذا يقول؟».

راح ريتشارد يترجم لها بينما استمر الرجل يغني:

- «اقترب وهيىء نفسك للسحر والبهجة. استعد لترى عجائب الدهر».

رأت فيكتوريا صورة شبه ملوّنة لزنوج يحصدون القمح.

فسر لها ريتشارد مترجماً: «فلاحون في أميركا».

ثم توالت الصور:

- «زوجة الشاه الأعظم في بلاد الغرب. الامبراطورة أوجيني. صورة قصر الملك في مونتي نيغرو. صورة المعرض الكبير».

توالت مجموعة كبيرة وغريبة من الصور. كلها غير مترابطة ومفسّرة بطريقة عجيبة:

الأمير كونصور، ديسرايلي، متزحلقون نروجيون وسويسريون في الماضي الغابر.

وأنهى رجل الاستعراض عرضه بالكلمات التالية:

«ونحن نعرض عليك أعاجيب وروائع الدهر من البلاد البعيدة، فلتكن عطاياك كريمة لتتناسب مع العجائب التي شاهدتها. لأن كل هذه الأشياء صحيحة».

حين انتهى العرض، امتلأت فيكتوريا بهجة، وقالت: «لقد كان هذا بديعاً، شيء لا يصدق!».

كان صاحبا السينما الجوالة يبتسمان بفخر. نهضت فيكتوريا عن المقعد فوقع ريتشارد الذي كان يجلس على الطرف الآخر منه على الأرض بطريقة مذلّة. اعتذرت فيكتوريا لكنها لم تفسد بهجتها. كافأ ريتشارد رجلي السينما وودعهما وهما شاكران.

ركب ريتشارد وفيكتوريا السيّارة مجدداً وابتعد الرجلان في الصحراء.

سألت فيكتوريا: «إلى أين يتوجهان؟».

- «انهما يجولان عبر كل البلاد. لقد التقيتهما أول مرة في الأردن وقد وصلوا مروراً بالبحر الميت. في الواقع، انهما متوجهان الى كربلاء. لكنهما يسلكان طرقات فرعية لتقديم عروض في قرى نائية».

- «لو يقوم أحد ما بتوصيلهما».

ضحك ريتشارد.

- «أعتقد انهما لن يقبلا».

- «عرضت على رجل عجوز يوماً شيئاً من هذا القبيل فرفض شاكراً. كان يقطع الطريق بين البصرة وبغداد مشياً على القدمين. كان يرغب في الوصول بعد شهرين وكان المشي يناسبه تماماً. لا معنى للوقت هنا. انها قناعة مريحة».

- «أجل، أتخيل هذا».

ـ «لا يستطيع العرب أن يفهموا سبب تسرعنا لإنجاز أعمالنا. وطريقتنا في الدخول مباشرة الى الموضوع في الحوار يعتبرونها قلة تهذيب. يجب أولاً أن تتحدثي حوالى الساعة في مواضيع عامة ـ وان أردت يمكنك أن لا تتكلمي أبداً».

ـ «قد يكون هذا بمنتهى الشذوذ لو فعلنا هذا في المكاتب في لندن. انها مضيعة للوقت».

ـ «أجل ولكننا نعود هنا الى الموضوع الأساسي، ما هو الوقت؟ وما هي المضيعة؟».

فكرت فيكتوريا لبضع دقائق بهاتين النقطتين. كانت السيارة تتابع التقدم الى المجهول وبثقة كاملة.

قالت أخيراً: «أين يقع هذا المكان؟».

ـ «تلّ أسود»، انه في وسط الصحراء. سوف ترين الزكّورة بعد قليل. في هذا الوقت انظري نحو اليسار. هنالك هنالك حيث أشير».

سألت فيكتوريا: «هل هذه غيوم؟ لا يمكن أن تكون جبالاً!».

ـ «أجل انها جبال. جبال كردستان المكللة بالثلج. يمكنك أن تريها فقط حين يكون الطقس صاحياً».

خالج فيكتوريا شعور بهيج أشبه بالحلم. لو كانت فقط تستطيع المتابعة هكذا الى ما لا نهاية. لو لم تكن تلك الكاذبة البائسة. لقد خافت كطفل سوف يؤنب بعد قليل. كيف سيكون الدكتور باونسفوت؟ طويلاً بلحية بيضاء ومتجهماً. لا يهم في مطلق الأحوال لقد استطاعت سابقاً العيش مع كاترين وأيضاً مع الدكتور راسبون.

قال ريتشارد: «ها قد وصلنا».

أشار الى نقطة أمامهم وحاولت فيكتوريا التحديق بعيداً في الأفق.

- «يبدو بعيداً جداً؟».

- «آه، لا، انه يبعد فقط بضعة أميال».

وبالفعل اقتربا بسرعة منه وبدت تلّة كبيرة. الى جانبها ظهر بناء متدرج من الآجر.

قال ريتشارد: «هنا منطقة التنقيبات».

توقفا وسط نباح الكلاب وأحاط بهما خدم لاستقبالهما بابتسامات.

بعد تبادل التحيات قال ريتشارد:

- «من الواضح انهم لم يتوقعوا وصولك في هذا الفصل. لكنهم سيعدّون لك فراشك، وسيحضرون لك مياهاً ساخنة. أظن انك في حاجة للاستحمام والراحة. الدكتور جونز موجود الآن فوق التلة. سوف أصعد اليه. عبدالله سيهتم بأمرك».

ابتعد ريتشارد وتبعت فيكتوريا عبدالله المبتسم الى داخل المنزل. كان الداخل معتماً في البداية بسبب انتقالها السريع من شمس الخارج. وصلت الى غرفة صغيرة فيها شباك صغير. فراش وصندوق بجوارير وطاولة مع جرّة ماء وطشت وكرسي. ابتسم عبدالله وأحضر لها طشتاً من المياه الساخنة، ومنشفة سميكة. ثم ابتسم معتذراً وعاد بمرآة صغيرة وركزها على مسمار في الحائط.

فرحت فيكتوريا لأنه تسنى لها الاستحمام واكتشفت كم كانت منهكة ومتسخة.

حدثت نفسها قائلة: «أعتقد اني أبدو مخيفة»؛ وكانت تقترب من المرآة.

لدقائق حدقت في هيئتها مذهولة.

لم تكن هي. لم تكن فيكتوريا جونز.

ثم أدركت أن تلك الملامح الدقيقة كانت لفيكتوريا جونز لكن شعرها الآن أشقر بلاتينياً!.

الفصل التاسع عشر



- ١ -

عثر ريتشارد على الدكتور باونسفوت جونز في مركز التنقيب. كان يتنقل قرب معاونيه ويحفر بريشة من حديد فوق أحد الجدران.

حيّا الدكتور باونسفوت جونز زميله بشكل طبيعي.

ـ «أهلاً يا بنيّ ريتشارد لقد وصلت أخيراً. ظننت انك ستصل الثلاثاء. لست أعرف لماذا؟».

قال ريتشارد: «اليوم هو الثلاثاء».

قال الدكتور باونسفوت بلا مبالاة: «أهذا صحيح؟. تعال اقترب وقل لي ما رأيك في هذا. لقد اكتشفنا جدارين متينين ولم نحفر بعد سوى ثلاثة اقدام. يبدو ان هناك آثار طلاء هنا. تعال انظر وقل لي ما رأيك. يبدو الأمر واعداً».

ركع ريتشارد فوق الحفر وراح العالمان يتحدثان في اهتمام لمدة ربع ساعة.

قال ريتشارد أخيراً: «بالمناسبة. لقد أحضرت معي فتاة».

ـ «آه. حقاً؟ أي نوع من الفتيات؟».

- «تقول انها ابنة شقيقك».

- «ابنــة شقيقي؟». فكـر الدكتور باونسفوت متذكراً وجاهداً لتحرير دماغه من هوس الآثار. «لا أظن ان لدي ابنة شقيق». قال هذا محتاراً كما لو انه كان لديه واحدة ونسي كل ما يتعلق بشأنها.

- «لقد جاءت لتعمل معك هنا كما فهمت».

- «آه. بالطبع انها فيرونيكا».

- «أظنها قالت انها تدعى فيكتوريا».

- «أجل. أجل فيكتوريا. لقد بعث لي بشأنها إمرسون رسالة من جامعة كامبردج. انها فتاة قديرة كما فهمت».

- «سمعت انك تتوقع وصول عالمة آثار شابة».

- «لم أسمع عنها شيئاً حتى الآن. نحن بالكاد بدأنا بالطبع. فهمت انهــا لن تأتي قبـل فترة. لكني لم أقرأ رسالتها جيداً، ثم أضعتها لذلك لا أذكر جيداً ماذا كتبت فيها. ستصل زوجتي بعد أسبـوع. أو أسبـوعـين. أين يا ترى وضعت الرسالة. وأظن أن فينيسيا كانت قادمة معها. قد أكون فهمت بشكل مغلوط. حسناً، قد تستطيع مساعدتنا في مطلق الأحوال. سوف نعثر على عدد كبير من الأواني».

- «هناك شيء مريب بشأنها؟».

- «مريب؟»، حدق الدكتور باونسفوت فيه، «ماذا تقصد؟».

- «أهي تعاني من انهيار عصبي؟ أو أي شيء من هذا القبيل؟».

- «لقد أخبرني إمرسون كما أذكر انها كانت تحضّر بجهد لنيل

شهادة الدبلوم. لكن لا أعتقد انه أشار الى انهيار عصبي. لماذا تقول هذا؟».

- «في الواقــع لقد التقطها في مكان ما هنا على الطريق كانت تتجول بمفردها. هناك عند التلة».

قال الدكتور باونسفوت: «أذكر تلك التلة. كنت اكتشفت بعض الأجزاء من آنية «نوزو» هناك. هذا غريب».

لم يرغب ريتشارد أن يتحوّل الحديث الى الآثار وقال بحزم:

- «لقد روت لي قصة مجنونة. قالت انها توجهت لغسل شعرها، وانهم خدّروهــا واختطفوها الى قرية مندالي وسجنوها في بيت. ثم هربت في منتصف الليـل إنها إحدى أغنى قصص الخيال التي سمعتها في حياتي».

هز الدكتور باونسفوت راسه متعجباً.

قال: «لا يبـدو هذا قابـلاً للتصديق. هذه البلاد هادئة جداً، وآمنة. لا يوجد أكثر أماناً اطلاقاً».

- «بالضبط. لا بد انها تخيّلت كل هذا. لهذا سألت إن كانت تعـرضت سابقـاً لأي انهيـار عصبي. أظن انها احدى الفتيات المجنـونـات اللواتي يدعــين ان كهـانــاً أغـرموا بهن، وان أطباء اغتصبوهن، سوف تسبب لنا الكثير من المتاعب».

قال الدكتور باونسفوت بتفاؤل: «أظن انها ستهدأ الآن، أين هي في الوقت الحاضر؟».

قال متردداً: «لقد تركتها تستحم وتسرح شعرها. إنها لا تحمل أية حقائب».

- «لا تحمل ملابس؟ انها حقاً خرقاء. أهي تتوقع أن تستعير مني بيجامتها. ليس لدي سوى اثنتين. واحدة منهما ممزقة».

- «سوف نتصرف بقدر الامكان حتى وصول الشاحنة في الأسبوع المقبل. اني أتساءل ماذا كانت تفعل هناك وحيدة وتائهة في الصحراء».

قال الدكتور باونسفوت جونز: «ان الفتيات مدهشات في أيامنا هذه. يقلّبن الأمكنة راساً على عقب حين يرغبن في تحقيق امر ما. آه. لقد توقف الرجال عن العمل. انه وقت الغداء. من الأفضل أن أعود الى المنزل».

- ٢ -

فيكتوريا التي كانت منتظرة ومذعورة، وجدت ان الدكتور باونسفوت مختلف تماماً عما تخيّلته. كان رجلاً قصيراً ممتلىء الجسم، نصف أصلع. كانت عيناه تشعّان ذكاء. فوجئت وهي تراه يتقدم نحوها ماداً ذراعه لمصافحتها.

- «أهلاً أهلاً يا فينيسيا - أقصد فيكتوريا. هذه مفاجأة سارة. لقد اعتقدت انك قادمة الشهر القادم. لكني سعيد برؤيتك. كيف حال إمرسون؟ كيف حاله مع الربو؟

استرجعت فيكتوريا تماسكها بسرعة وقالت انه على ما يرام.

قال الدكتور باونسفوت جونز: «انه يغطي عنقه كثيراً. هذا خطأ كبير. لقد قلت له ذلك. هؤلاء الأكاديميون يتسمرون داخل الجامعة

ويصبحون مهووسين في كل ما يتعلق بصحتهم. لا يجب التفكير في هذا. هكذا نبقى أصحّاء. حسناً أرجو أن تستقري بشكل جيد. ستصل زوجتي بعد أسبوع أو اثنين. لقد كانت متوعكة. ينبغي أن أبعث إليها رسالة. أخبرني ريتشارد انك فقدت متاعك. كيف ستتصرفين؟ لا أستطيع أن أرسل الشاحنة قبل الأسبوع القادم؟».

ـ «أظن اني أستطيع تدبر الأمر حتى ذلك الوقت. في الواقع أنا مجبرة».

همهم الدكتور باونسفوت.

ـ «لا نستطيع ريتشارد وأنا أن نعيرك أشياء كثيرة. ربما فرشاة أسنان. هناك درزينة في المستودع. وكنزة من الصوف. وبعض الجوارب والمحارم. لا شيء أكثر».

قالت فيكتوريا وهي تبتسم فرحة: «سأتدبر أمري».

قال الدكتور باونسفوت محذراً: «لم نجد لك بعد أية مقبرة. لقد اكتشفنا بعض الجدران. سوف نشغلك بطريقة ما. نسيت ان كنت تلتقطين صوراً فوتوغرافية؟».

قالت فيكتوريا بحذر وقد شعرت بارتياح لدى ذكر عمل تستطيع القيام به: «لدي بعض المعرفة في هذا».

ـ «جيد. جيد. هل تستطيعين تظهير الأفلام؟ أنا من الطراز القديم. ما زلت أستخدم الصفائح المعدنية. غرفة التظهير السوداء بدائية. كل الشبان الذين اعتادوا استخدام أدوات متطورة غالباً ما يجدون هذا الأسلوب البدائي كارثة».

أجابت فيكتوريا: «أنا لا أمانع».

أحضرت فيكتوريا من مستودع البعثة فرشاة ومعجون أسنان، وإسفنجة.

كان رأسها لا يزال عاصفاً بالأفكار وحاولت أن تفهم بالضبط وضعها. كان من الواضح انهم اعتقدوا انها فتاة أخرى تدعى فينيسيا كانت قادمة لتشترك في التنقيب بكونها عالمة آثار. لم تكن فيكتوريا تعرف حتى ماذا يعني «علم الآثار». لم يكن هناك قاموس لترى. الفتاة الأخرى لن تصل ربما قبل أسبوع. جيد جداً. لمدة أسبوع سوف تنتحل شخصية فينيسيا سينغامي حتى تتوجه الشاحنة أو السيارة الى بغداد. لم تخف من الدكتور باونسفوت وبدا لها ذا طباع غريبة إنما بطريقة إيجابية. لكن ريتشارد بايكر أثار أعصابها. كرهت الطريقة المدّعية التي كان ينظر اليها فيها وراودها انه سيكشف ادعاءاتها ان هي لم تأخذ حذرها منه. لحسن الحظ كانت عملت لفترة قصيرة في لندن كسكرتيرة لمؤسسة أبحاث أثرية وكانت تعرف الى حد ما المعجم المستخدم في هذا المجال. لكن يجب أن تنتبه لزلأت لسانها. فكرت فيكتوريا ان الرجال ولحسن الحظ يتعاملون بعنجهية مع النساء وان أي غلطة سترتكبها لن تقابل بشكوك من قبلهم، بل كدليل جديد عن مدى غبائهن وتشوشهن!

هذه الفترة ستكون لها بمثابة فترة نقاهة وكانت في حاجة ماسة الى هذا. فكرت ان غيابها الطويل هذا سيكون مربكاً من وجهة نظر «غصن الزيتون». لقد فرّت من سجنها ولكن ماذا فعلت بعدها وهذا أمر سيصعب عليهم جداً اكتشافه. لم تعبر سيارة ريتشارد ماندالي، وهكذا لن يحزر أحد انها الآن في تل أسود. لا، من وجهة

نظرها هي، لقد اختفت فيكتوريا كلياً. سوف يستنتجون بالتأكيد انها ماتت. انها تاهت في الصحراء وماتت من الإعياء.

حسناً فليعتقدوا هذا. وللأسف سوف يعتقد إدوارد هذا أيضاً! جيد جداً سوف يتحمل هذا. في مطلق الأحوال لن يتوجب عليه أن يحتمله طويلاً. ستعود اليه فجأة من بين الأموات وستنهي شقاءه وندمه كونه هو الذي جعلها تتقرّب وتنخرط في مجتمع «غصن الزيتون». إلا أنها ستعود شقراء بدلاً من سمراء.

وهذا جعلها تفكر في السر الذي جعلهم يصبغون شعرها. لا بد من سبب لكنها عجزت عن إدراكه. كانت تفكر الآن انها ستبدو عجيبة حين ستنمو جذوره السوداء. شقراء مزيّفة دون بودرة على الوجه ولا أحمر شفاه! هذا أسوأ ما قد يحصل لفتاة. لا يهم، أنا على قيد الحياة أليس كذلك؟ ولا أجد مانعاً من التمتع بهذا ـ على الأقل لمدة أسبوع. أمر ممتع أن تكون مع بعثة تنقيب ومشاهدة ما يحصل. هذا لو استطاعت فقط الحفاظ على سّرها.

لم تجد دورها سهلاً. ينبغي أن تنتبه عند الحديث عن أي شيء يتعلق بعلم الآثار. لحسن الحظ كان المستمع الجيد موضع تقدير على الدوام. استمعت فيكتوريا بكل إصغاء للرجلين وشيئاً فشيئاً التقطت كل المفاتيح بسهولة.

جعلت تقرأ بجنون وهي وحيدة في المنزل. كان هناك مكتبة جيدة معظمها عن الآثار. كانت تختار المواضيع اللافتة. وعلى عكس ما توقعت وجدت الحياة هنيئة معهم. كانوا يحضرون لها الشاي صباحاً. كانت تساعد ريتشارد في التصوير. يجمعان قطع الأواني ويلصقانها. تراقب عمل الرجال وتمدح براعتهم. تستمتع بغناء

ومزاح الأولاد الذين كانوا يركضون لتفريغ جعبهم من التراب في الحفرة. أصبحت تعرف جيداً مواقيت العمل، المستويات المختلفة التي كان يجري فيها الحفر، وإضافة الى ذلك تنقيبات السنة الفائتة. لم يشرح لها أي من الكتب التي قرأتها كيف يمكن أن تعمل كعالمة آثار. خطر لها انها لو عثرت على عظام أو قبر فسوف ترتعد من الخوف. أو في أحسن الاحتمالات ستصاب بالصفراء وستنقل الى الفراش.

لكن لم تظهر أية قبور. لم يظهر سوى جدران قصر. كانت فيكتوريا مبهورة ولم تضطر الى استعراض أية خبرة أو ميزات خاصة.

ريتشارد بايكر لم يتوقف عن النظر اليها في فضول بين وقت وآخر. وكانت تحس بعدم رضاه الصموت. لكن سلوكه معها كان محبباً ولطيفاً وقد استمتعت بالفعل.

قال لها في أحد الأيام: «كل هذا جديد بالنسبة اليك كونك قادمة من انكلترا. أذكر كم كنت مندهشاً حين جئت للمرة الأولى».

ـ «منذ متى كان هذا؟».

ابتسم.

ـ «في الحقيقة منذ وقت طويل خمس عشرة. لا، ست عشرة سنة».

ـ «لا بد انك تعرف هذه البلاد جيداً».

ـ «آه. ليس هنا فقط. سوريا وإيران ايضاً».

ـ «أنت تتكلم العـربية جيداً أليس كذلك؟ لو لبست زيّهم قد إخالك واحداً منهم؟».

هزّ رأسه غير موافق.

ـ «آه لا. هذا في حاجة الى ميزات أخرى. أشك ان في استطاعة أي انكليزي النجاح في ذلك. على الأقل ليس قبل مضي وقت طويل».

ـ «ولـورنس؟»

ـ «لا أظن ان لورنس استطاع أبداً اعطاء هذا الانطباع. لا. الرجل الوحيد الذي أظن انه ليس في الامكان تمييزه عن أهل البلاد الأصليين هو رجل ولد في الواقع في هذه الأنحاء. كان والده قنصلاً في قشغر وفي أماكن نائية أخرى. انه يستطيع التحدث بكل ضروب اللهجتين المحلية والهجينة ومذ كان صغيراً. أظن انه احتفظ لاحقاً بهذه القدرات».

ـ «ماذا حدث له؟».

ـ «لم أره اطلاقاً بعدما غادرنا المدرسة. كنا في المدرسة معاً. كان يدعو نفسه فقيراً لأنه كان يستطيع القعود من دون أدنى حركة وأن يغيب في نشوة غريبة. لا أعرف ماذا يفعل الآن ـ وإنما يمكن ان أتكهن بأنه...».

ـ «ألم تشاهده أبداً بعد المدرسة؟».

ـ «قـد يكـون هذا عجيباً، لكني صادفته مؤخراً. كان ذلك في البصرة. لقد كان ما حدث في منتهى الغرابة».

ـ «غريباً، كيف؟».

ـ «أجل. لم أعرفه. كان يضع كوفية عربية ويرتدي ثوباً مقلماً

وأيضاً سترة كاكية عسكرية قديمة. كان يحمل سبحة من الخرز وكان يطقطق بحبّاتها بأسلوب لافت. في الواقع كان يستخدم شيفرة عسكرية. شيفرة المورس. كان يطقطق رسالة. رسالة إليّ!».

- «مـاذا قـال؟».

- «اسمي، أو بالأحـرى لقبي - وأيضـاً لقبـه. ثم اشـارة لي بالاستعداد لأن هناك خطراً ما محدقاً».

- «وهل حدثت أية مشكلة؟».

- «أجل. حين نهض وانطلق في اتجاه الباب، انتشل تاجر هادىء لا يثير الشبهات مسدساً. اندفعت ولويت ذراع هذا الأخير وهرب كارمايكل».

- «كـارمـايكـل؟».

أدار رأسه بسرعة لدى سماعه نبرتها.

- «هذا كان اسمه الحقيقي. لماذا. هل تعرفينه؟».

فكرت فيكتوريا في نفسها - كم سيكون شاذاً لو قلت: «لقد مات في سريري».

- «أجل». قالت ببطء «لقد عرفته».

- «عرفته؟ مـاذا - هـل؟».

هزت رأسها موافقة.

- «أجل»، قالت، «لقد مات».

- «متى مـات؟».

ـ «في بغـداد ـ في فندق تيو». وأضافت بسرعة، «لقد طمست الحادثة. لا أحد يعرف كيف».

أطرق رأسه في تمهل.

ـ «فهمت. لقد كانت مسألة سريّة. لكن أنت كيف...» نظر اليها، «كيف عرفت؟».

ـ «لقد تورطت في القصة... بالصدفة».

حدق فيها متفحصاً.

سألت فيكتوريا فجأة:

ـ «هل كانوا يلقبونك في المدرسة لو سيفر؟».

فوجيء بالسؤال وأجاب:

ـ «لا. ليس لو سيفر. كانوا يدعونني البوم. لأني كنت أرتدي دائماً نظارات لّماعة.

ـ «هل تعرف أحداً يدعى لو سيفر في البصرة؟».

هز ريتشارد رأسه نافياً.

ـ «لو سيفر ابن الصباح ـ الملاك الساقط».

قالت فيكتوريا:: «أتمنى لو تخبرني بالضبط ماذا حدث في البصرة؟».

ـ «لـقد أخبـرتك».

ـ «لا. اعني أين كنت أنت حين جرى هذا الحادث؟».

ـ «آه. فهمت. في الواقع كنت في غرفة انتظار في القنصلية. كنت

أنتظر لأقابل السيد كلايتون، القنصل».

ـ «ومن كان هناك غيرك؟ ذلك التاجر وكارمايكل؟ هل كان هناك أحد آخر؟».

ـ «كان هناك اثنان آخران. رجل فرنسي أو سوري أسمر نحيل، ورجل عجوز إيراني».

ـ «لقد رفع التاجر مسدساً وأنت أمسكته. ثم هرب كارمايكل، كيف حدث ذلك؟».

ـ «توجه أولاً نحو مكتب القنصل. انه الى الناحية الأخرى من المعبر في الحديقة».

استوقفته قائلة:

ـ «أعرف. لقد أقمت هناك لمدة يوم أو اثنين. في الواقع بعد أن تركت أنت مباشرة.».

ـ «أهذا صحيح؟». ومرة جديدة حدق فيها جيداً. لكن فيكتوريا لم تنتبه لهذا. كانت ترى الرواق الطويل في القنصلية الذي يفتح على الشجرات الخضراء ونور الشمس.

ـ «حسناً. كما كنت أقول. تقدم كارمايكل الى ذاك الاتجاه أولاً. إلا أنه استدار فجأة واندفع في الاتجاه الآخر الى الشارع الخارجي. وكانت تلك آخر مرة أراه فيها».

ـ «وماذا في شأن التاجر؟».

هز ريتشارد كتفيه بلا مبالاة.

ـ «أذكر انه لفق قصة فحواها انه تعرض لسرقة في الليلة

الســابقة وانه اشتبه بالرجل العربي، واعتقد انه كان سارقه. لم أسمع بعدها أي شيء عن الموضوع لأني سافرت الى الكويت».

سألت فيكتوريا: «من كان يسكن في القنصلية وقتذاك؟».

- «كان هناك رجل يدعى كروسبي: أحد تجار النفط. ولا أحد آخر. آه. اجل. أظن انه كان هناك شخص آخر كان قدم من بغداد. لكني لم ألتقه أبداً. ولا أذكر اسمه».

- «كـروسبي؟». فكـرت فيكتـوريا. وتذكرت الكابتن كروسبي وشكله القصير والبدين وحديثه المنفر. رجل عادي جداً. لقد عاد الى بغداد ليلة قدوم كارمايكل الى فندق تيو. هل امتنع كارمايكل عن دخول مكتب القنصل لأنه رأى كروسبي أمامه في الممر. هل استدار بسببه فجأة وتوجه الى الطريق بدل أن يتابع نحو مكتب القنصل؟

كانت تفكـر في هذا مأخـوذة بعض الشيء. ثم شعرت ببعض الذنب حين تطلعت ورأت ريتشارد يحدق فيها في انتباه.

سألها: «لماذا تريدين أن تعرفي كل هذا؟».

- «مـجرد فضـول».

- «هل من أسئلة أخرى؟».

سألت فيكتوريا:

- «هل تعرف أحداً يدعى لو فارج؟».

- «لا. لا أعتقد هذا. هل هو رجل أم امرأة؟».

- «لا أعـرف».

كانت تتساءل في شأن كروسبي. كروسبي؟ لو سيفر؟.

هل لو سيفر يساوي كروسبي؟

ذلك المساء بعدما قالت فيكتوريا «مساء الخير» وتوجهت الى سريرها، قال ريتشارد للدكتور باونسفوت جونز:

ـ «أود أن ألقي نظرة على رسالة إمرسون. أود أن أعرف بالضبط ماذا كتب عن هذه الفتاة».

ـ «بالطبع يا عزيزي. بالطبع. انها في مكان ما هنا. لقد كتبت بعض الملاحظات على المغلف كما أذكر. لقد أوحى بقدراتها المتميزة. أراها فتاة رائعة ـ بمنتهى الروعة. غريبة هي الطريقة التي تحدثت بها بلا مبالاة عن فقدانها حقيبتها. أي فتاة غيرها كانت ستصر على التوجه تواً الى بغداد لشراء ثياب جديدة. ان روحها رياضية. على فكرة كيف جرى ان فقدت حقيبتها».

ـ «لقد خدّرت واختطفت وسجنت في بيت عربي»، ردد ريتشارد من دون اهتمام.

ـ «رباه. رباه. أجل لقد أخبرتني. أذكر الآن. كل هذا غير واقعي. هذا يذكرني بشيء ـ بماذا؟ آه. أجل. بإليزابيت كانينغ طبعاً. أنت تذكر لقد لفقت حين غابت فترة قصة في منتهى الغرابة. عن غجر وأشياء مستحيلة. وكانت فتاة بسيطة. لا أعتقد انها كانت على علاقة برجل. والآن لدينا الصغيرة فيكتوريا، أو فيرونيكا ـ أعجز عن حفظ اسمها انها جميلة لافتة. لا بد ان هناك رجلاً ما في مسألتها».

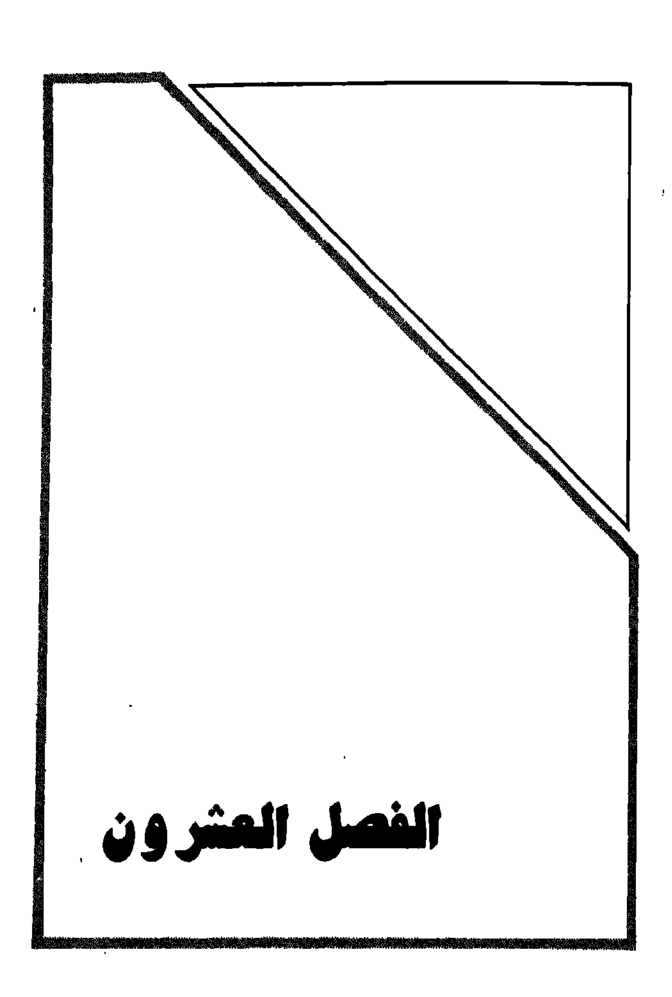
ـ «كانت ستبدو أجمل لو لم تصبغ شعرها»، قال ريتشارد بحدّة.

ـ «هل تصبغه فعلاً؟ كم أنت عليم بهذه المسائل».

ـ «ماذا بشأن رسالة إمرسون يا سيدي..؟».

ـ «طبعاً.. طبعاً. لا أذكر أين وضعتها، يمكنك أن تبحث في كل مكان. انا في حاجة أيضاً اليها لأني كتبت عليها بعض الملاحظات».





الفصل العشرون



أثنـاء ما بعد ظهيرة اليوم التالي لفظ الدكتور باونسفوت جونز عبـارات استهجان وهو يسمع اقتراب سيّارة. رآها تترك وراءها غباراً كثيفاً عابرة الصحراء في اتجاه التل.

قال في احتدام: «زوّار، وفي أسوأ الأوقات أيضاً. كنت سأتوجه للإشراف على تحليل الطلاء المستخرج من الحفرة. انهم بالتأكيد بعض الأغبياء القادمين من بغداد بحمولة من الثرثرة، ويتوقعون أن نجول بهم فوق كل بقعة التنقيب».

قال ريتشارد: «يمكننا في هذه الحالة أن نستفيد من مواهب فيكتوريا».

ـ «هل تسمعين يا فيكتوريا؟ لقد اخترتك لتقودي الجولة في المكان».

قالت فيكتوريا: «قد أقول أشياء مغلوطة. ليست لدي خبرة كبيرة كما تعرف».

قال ريتشـارد ممـازحاً: «أظن انك ستنجحين في القيام بهذا. ملاحظتك هذا الصباح في شأن الآجر كانت وكأنها صادرة تواً من كتاب ديلونغاس».

تغـيّر لونهـا قليلاً وجهدت ليكون جوابها دقيقاً. كانت نظراته المتفحصة من خلال نظارتيه السميكتين تربكها باستمرار.

قالت بخفوت: «سأحاول بكل جهدي».

قال ريتشارد: «سوف نوكل اليك كل المهام الصعبة».

ابتسمت فيكتوريا.

رأت الزائـرين وهما يصعدان من جانب التلة. تقدم ريتشارد لاستقبالهما ولحقت به فيكتوريا.

كانـا رجلين فرنسيـين مهتمين بالآثار وكانا يقومان بجولة عبر سوريا والعراق. بعد تبادل التحيات. اصطحبتهما في جولة حول أمكنة التنقيب، مرددة مثل ببغاء بليغة كل ما كان يجري. ولم تكن تستـطيع أن تقاوم اضفاء بعض الزخرفات المتنوعة من ابتكارها هي. وهذه كانت تضيف حسب اعتقادها بعض الإثارة الى الجولة.

لاحظت اثناء الجولة ان أحدهما كان ينجرّ فوق المكان غير مهتم البتة. ثم اعتذر من فيكتوريا وقال إنه سيعود الى المنزل. لم يكن على ما يرام منذ الصباح، وكانت الشمس تزيد حالته سوءاً.

انطلق عائداً في اتجاه المنزل الخاص بالبعثة، ثم فسّر بصوت خفيض انه لسوء الحظ يعاني من الم في معدته.

حين انتهت الجـولة الاستكشـافيـة، دعا الدكتور باونسفوت بإصرار ضيفيـه الرجلين الى تنـاول الشاي قبل المغادرة. غير أن الرجل الفرنسي رفض الدعوة. لأنه ليس باستطاعته مع رفيقه ارجاء مغادرتهما حتى يحل الظلام. فهما لن يستطيعا حينئذ إيجاد طريق العودة. وافق ريتشارد بايكر على الفور وخرج الرجلان من المنزل

وانطلقت سيارتهما بسرعة قصوى.

قال الدكتور باونسفوت بصوت غليظ: «أعتقد أن هذه ليست سوى البداية. سوف يأتينا زوار يومياً من الآن فصاعداً».

تناول قطعة من خبز عربي ومرّغها بمربى المشمش.

ذهب ريتشارد الى غرفته بعد تناول الشاي. كان عليه أن يكتب رسائل فقد كان متوجهاً الى بغداد في اليوم التالي.

ارتعد فجأة. لقد كان رجلاً في منتهى الترتيب، ولديه أسلوب خاص في توضيب ملابسه وأوراقه ولم يكن يتغيّر ابداً. رأى الآن از كل جواريره كانت مبعثرة. كان متأكداً انها لم تكن فِعْلة الخدم. انه بالتأكيد ذاك الزائر المريض الذي ادعى المرض ليدخل المنزل ويعبث في هدوء بمقتنياته. لم يكن أي شيء ناقصاً، لقد تأكد من ذلك. لم يلمسوا المال. لا بد انهم كانوا يبحثون عن شيءما! تجهّم وجهه وقد خطر له ذلك.

توجّه الى غرفة المعدات حيث كانت الأختام الشمعية محفوظة. ابتسم في تجهم. لم يمسّ أي شيء. كان كل شيء في مكانه. عاد الى غرفة الجلوس. كان الدكتور باونسفوت في الخارج على الشرفة مع مرافق. كانت فيكتوريا وحدها في الصالون منغمسة في قراءة كتاب.

انبرى ريتشارد دون مقدمات: «لقد قام أحد ما بتفتيش غرفتي».

تطلعت اليه فيكتوريا مندهشة.

ـ «ولكن لماذا؟ ومن؟».

ـ «الم يكن أنتِ؟».

ـ «أنا»، ردت فيكتوريا في غضب، «بالطبع لا؟ وما الذي يدفعني الى التفتيش في أغراضك؟».

حدق فيها بقسوة ثم قال:

ـ «لا بد وانه ذاك الغريب اللعين. ذاك الذي تظاهر بالمرض وعاد الى المنزل».

ـ «هل سرق شيئاً ما؟».

ـ «لا»، وأردف ريتشارد، «لم يأخذ أي شيء».

ـ «ولماذا بحق السماء يقوم أحد ما...».

قاطعها ريتشارد ليقول:

ـ «اعتقدت انك تعرفين السبب».

ـ «أنـا؟».

ـ «حسناً حسبما أخبرتني، لقد حصل معك الكثير من الأمور الغريبة».

ـ «آه تلك ـ أجل»، بدت فيكتوريا مرتبكة. وقالت متمهلة، «لكني لا أجد سبباً يدفعهم الى تفتيش غرفتك. أنت لا علاقة لك بالـ...».

ـ «بـمـاذا؟».

لم تجب فيكتوريا. بقيت صامتة لدقيقة أو اثنتين. بدت ساهمة.

ـ «أعتذر»، قالت أخيراً، «ماذا قلت، لم أكن أستمع؟».

لم يكرر ريتشارد سؤاله. بدلاً من ذلك سألها:

ـ «ماذا تقرئين؟».

ـ «لا خيـارات كثـيرة هنـا. هناك «قصة مدينتين»، «الكبرياء

والعجرفة» وواحدة أخرى. أنا أقرأ «قصة مدينتين»».

ـ «ألم تقرئيها أبداً من قبل؟».

ـ «أبداً. كنت دائماً أعتبر ديكنز مملاً».

ـ «يا لها من فكرة!».

ـ «لكنني أجده مثيراً جداً».

ـ «إلى أين وصلت في القـراءة». نظر من خلفهـا وقرأ بصوت مرتفع جملة مميزة في الصفحة.

قالت فيكتوريا: «أعتقد انها مخيفة جداً».

ـ «أتقصدين «مدام دو فارج»؟ أجل انها شخصية جيدة. أنا لا اتصـور أبـداً أن في مقـدور أحـد تذكـر أسماء قطب الحبك بالصنـارة. ولكن في النهـايـة لست أتقن الحياكة». (كانت مدام دو فارج تحبك وتردد أسماء القطب في المقطع الذي قرأه).

ـ «آه أظن انك تستطيع»، وأضافت فيكتوريا في الموضوع نفسه، «انه أمر بسيط، مجرد حساب أرقام، تطرح أحياناً وتضيف أحياناً أخرى. أجل يمكنك أن تفعل هذا. قد ترتكب بعض الأخطاء. لا يهم».

وفجـأة كمثـل التمـاع انـدفعت الى راسها فكرتان وأذهلتاها كانفجار كاسح. اسم ـ وتذكار مرئي لرجل كان يضع شالاً مرقطاً مشغولاً باليد ـ تقريباً الشال هو نفسه الذي انتشلته وحشرته في الجارور. وأيضاً ذاك الاسم. دو فارج ـ وليس لو فارج ـ دو فارج. مدام دو فارج.

خرجت من ذهولها حين حدثها ريتشارد في لطافة قائلاً:

- «ماذا أصابك؟».

- «لا. لا شيء. لقد خطر لي أمر ما».

- «فهمت»، ورفع ريتشارد حاجبيه بطريقة متعجرفة.

فكرت فيكتوريا. غداً سوف يتوجهون كلهم الى بغداد. غداً ستنتهي فترة راحتها. لقد نعمت بالأمان والسلام لمدة أسبوع، لقد حان الوقت لتستجمع قواها. ولقد استمتعت بهذا الوقت - استمتعت به جداً. خطر لفيكتوريا: «قد أكون جبانة، ربما هذا هو السبب». كانت طالما تحدثت في غبطة عن المغامرة لكنها لم تستمتع بها كثيراً حين حصلت عليها. لقد كرهت صراعها ضد الكلوروفورم واختناقها البطيء. ولقد أصيبت بالجزع، ارتعبت حين قال ذاك الرجل العربي في الغرفة العليا: «بكرا».

والآن ينبغي أن تعود الى خضم الموضوع. لأن السيد داكين استخدمها ودفع لها المال، وكان يجب أن تستحق أجرها وتكون جريئة! قد يتوجب عليها أن تعود حتى الى «غصن الزيتون». ارتعدت قليلاً حين تذكرت الدكتور راسبون ونظراته القاتمة المشككة. كان حذّرها...

لكن، ربما لن تضطر الى العودة. قد يقول السيد داكين انه من المفضل أن لا تفعل - وقد اكتشفوا أمرها الآن. لكن ينبغي أن تعود لاسترجاع متاعها، وخصوصاً الشال الأحمر المحبوك بالصنارة، الذي كانت رمته بلا مبالاة في حقيبتها... كانت وضعت كل شيء داخل الحقائب حين ذهبت الى البصرة. ستسلّم ذاك الشال الى السيد داكين وبهذا قد تكون نفّذت مهمتها على التمام. وقد يقول

لها كما في الأفلام السينمائية: «آه. لقد قمت باستعراض ممتاز يا فيكتوريا».

رفعت رأسها فوجدت ريتشارد بايكر يراقبها.

قال: «بالمناسبة. هل تستطيعين إحضار جواز سفرك غداً؟».

ـ «جواز سفري؟».

فكرت فيكتوريا ملياً في وضعها. فهي كالعادة لم تكن قررت بعد خطتها للتخلص من تورّطها مع بعثة التنقيب. ولّما كانت فيرونيكا (أو فينيسيا) الحقيقية ستصل قريباً من انكلترا، كان يجدر بها الانسحاب في هدوء. ولكن هناك فرقاً بين أن تختفي في بساطة ومن غير تفسير، وبين أن تعترف بخدعتها بواسطة أعذار مناسبة، وهو ما نوت أن تقوم به في الواقع، وهكذا لم تكن هذه المسألة حتى هذا الوقت مطروحة لديها. كانت تعتمد دائماً على حدوث ما قد يخربط الأمور.

ـ «في الواقع»، قالت مسايرة، «لست واثقة».

ـ «هذا ضروري»، فسر لها ريتشارد، «من أجل الشرطة. سوف يسجلون رقمه واسمك وعمرك وعلاماتك الفارقة الخ... وبما اننا لا نملك جواز سفرك يتوجب علينا أن نرسل لهم اسمك ومواصفاتك. بالمناسبة ما اسمك الثاني؟ أنا لم أدعك سوى «فيكتوريا»».

أجابت فيكتوريا بشهامة:

«دعك من هذا. أنت تعرفه أكثر مما أعرفه انا».

رد ريتشارد: «هذا ليس صحيحاً». ارتسمت ابتسامته مع شيء

من القسوة، «أنا لا أعرف اسمك الثاني. أظن أن من يجهل هذا هو أنت بالذات».

راقبها من خلال نظارتيه. انبرت فيكتوريا:

ـ «طبعاً أعرف اسمي».

ـ «إذاً أتحداك أن تقوليه لي. الآن».

أصبح صوته فجأة قاسياً وجدياً.

قال: «لا فائدة من الكذب. لقد انتهت اللعبة. لقد تحاذقت أكثر من اللزوم. لقد كنت وضعت لك بعض الفخاخ ولقد وقعتِ فيها. لقد قلت لك معلومات من دون معنى وكاذبة ولقد وافقتني عليها. أنت لست فينيسيا سيفيل. من أنت؟».

ـ «لقد قلت لك من أنا حين التقيتك للمرة الأولى. أنا فيكتوريا جونز».

ـ «ابنة شقيق الدكتور باونسفوت؟».

ـ «لست ابنة شقيقه ـ لكن اسمي الثاني هو جونز».

ـ «لقد أخبرتني أشياء كثيرة أخرى».

ـ «أجل لقد فعلت. وكانت كلها صحيحة! لكني رأيت انك لم تصدقني. وهذا أغضبني. صحيح اني أكذب أحياناً بل الواقع غالباً، لكن ما أخبرتك اياه لم يكن كذباً. ولهذا ولكي أدعم مصداقيتي قلت اني أدعى باونسفوت جونز. لقد كنت ادعيت هذا اللقب أيضاً قبل وصولي الى هنا. ولقد أفادني هذا جداً. ولم يخطر لي أبداً انك قادم تواً الى هنا».

قال ريتشارد متجهماً: «لا بد ان هذا صدمك قليلاً. لقد

اسبتطعت لعب الدور بشكل ممتاز. كنت هادئة كخيارة».

قالت فيكتوريا: «ليس في داخلي. كنت أرتجف بكليّتي. ولكني شعرت انه لو انتظرت وفسّرت الأمر لدى وصولي هنا ـ حسناً في مطلق الأحوال سأكون في مأمن».

ـ «آمنة؟». فكر ملياً في كلمتها. «اسمعي هنا يا فيكتوريا. هل كانت تلك القصة الغريبة التي قلت فيها انهم خدّروك حقيقية؟».

ـ «بالطبع كانت حقيقية! ألا تفهم. لو أردت أن ألفق قصة لكنت ابتكرت واحدة أفضل بكثير، ولكنت رويتها بشكل أفضل!».

ـ «بما أني أعرفك أكثر الآن أستطيع أن أصدّق! لكن يجب أن تعترفي ان القصة لم تكن مقنعة أبداً حين رويتها لي أول مرة».

ـ «لكنك راغب في تصديقها الآن. لماذا؟».

قال ريتشارد ببطء:

ـ «لأنك إن كنت تورطت كما تقولين في مسألة مقتل كارمايكل. فقد يكون ما أخبرتني اياه صحيحاً».

قالت فيكتوريا: «هنا بدأ كل شيء».

ـ «من الأفضل أن تقصّي عليّ ما جرى».

حدقت فيه فيكتوريا جيداً.

قالت: «إني أتساءل إن كان في وسعي الوثوق بك».

ـ «إننا نتبادل الأدوار! هل تعلمين أنه ساورتني شكوك مخيفة بأنك أرسلت الى هنا تحت اسم مزيّف بهدف الحصول على معلومات مني؟ وربما هذا هو ما تقومين به بالفعل؟».

ـ «هل، هذا يعني انك تعرف شيئاً ما عن كارمايكل يريدون هم معرفته؟»

من يكون هؤلاء الـ«هم»؟».

قالت فيكتوريا: «ينبغي عليّ أن أخبرك كل شيء عن المسألة. لا توجد أي طريقة أخرى. ولو كنت واحداً منهم، فأنت تعرف هذا من قبل. ولا يهم ان فعلت».

أخبرته عما جرى ليلة مقتل كارمايكل. عن لقائها مع السيد داكين، ورحلتها الى البصرة. ثم عملها في «غصن الزيتون»، عن عدائية كاترين، عن الدكتور راسبون وعن تحذيره الأخير لها. وأخيراً عن سر شعرها المصبوغ. ما لم تكشفه له كان مسألة الشال الأحمر ومدام دو فارج.

ـ «الدكتور راسبون»، توقف ريتشارد عند هذه النقطة. «هل تعتقدين انه متورط في هذا؟ أو هو وراءه؟. لكن يا فتاتي العزيزة انه رجل مهم جداً. انه معروف في كافة أنحاء العالم. ان طلبات الاشتراك في مشاريعه تتدفق من كل أنحاء الكوكب».

سألت فيكتوريا: «ما حاجته للقيام بكل هذه الأشياء؟».

قال ريتشارد مفكراً: «لقد اعتبرته دائماً بغلاً مدّعياً».

ـ «ان هذا تمويه ممتاز أيضاً».

ـ «أجل. أجل. أعتقد ان هذا صحيح. من هو هذا الـ «لو فارج» الذي سألتني عنه؟».

ـ «مجرد اسم آخر»، قالت فيكتوريا، «هناك أيضاً آنا شيل».

ـ «آنا شيل؟ لا. لم اسمع بها اطلاقاً».

قالت فيكتوريا: «انها مهمة. لكني لا أعرف كيف ولماذا؟ الأمر محيّر جداً».

قال ريتشارد: «قولي لي فقط مجدداً، من هو الرجل الذي ورّطك أولاً بأول في كل هذا؟».

ـ «إدوا... آه. أنت تعني السيد داكين. انه يعمل في شركة نفط. أظن هذا».

ـ «هل هو رجل متعب، محني الكتفين، وعلى الأصح ذو وجه خال من التعابير؟».

ـ «أجل ـ لكنه ليس في الواقع فاقد التعابير».

ـ «ألا يكثر المشروب؟».

ـ «الناس يقولون هذا. لكني لا أظن انه يفعل».

تراجع ريتشارد ونظر اليها.

ـ «فيليبس أوبنهايم، وليام لوكو، وعدد من المقلدين المتميزين منذ ذلك الوقت. هل هذا حقيقي؟ هل أنت حقيقية؟ هل أنت البطلة المضطهدة أم المغامرة الملعونة؟

قالت فيكتوريا بنبرة مميزة:

ـ «المسألة الآن، ماذا سنقول للدكتور باونسفوت جونز في شأني؟».

ـ «لا شيء»، وأضاف ريتشارد، «لا ضرورة لذلك».



الفصل
الحادي والعشرون



انطلقوا الى بغداد باكراً. كانت معنويات فيكتوريا ضعيفة لسبب ما. شعرت ببعض الحزن وهي تلتفت الى الوراء متطلعة الى منزل البعثة. في مطلق الأحوال كانت قعدتها البائسة في الشاحنة المترجرجة بجنون تمنع عنها التفكير سوى بعذابها الحالي. بدا لها غريباً أن تعبر مرة أخرى تلك الطريق العجيبة متجاوزة الحمير والشاحنات المغبّرة المسافرة. مضى ما يقارب الثلاث ساعات حتى وصلوا مشارف بغداد. أنزلتهم الشاحنة عند فندق تيو، ثم غادرت بالطبّاخ والسائق للقيام بالتسوّق. كانت كدسة كبيرة من الرسائل في انتظار الدكتور باونسفوت جونز وريتشارد.

ظهر ماركوس فجأة ضخماً ومشرقاً ورحّب بفيكتوريا بحماسته الدائمة.

قال: «آه. لم أرك منذ وقت طويل. أنت لا تأتين الى فندقي. لقد مضى أسبوع أو أسبوعان. لماذا تفعلين هذا؟ ستتناولين طعام الغداء هنا اليوم. لدينا كل ما ترغبين؟ فراريج صغيرة؟ أم تحبين شرحة كبيرة من اللحم. ولكن ليس ديك الحبش المحشو بالرز واللحم، لأن هذا يحتاج الى كثير من التحضير».

بدا واضحاً ان لا أحد في فندق تيو كان على علم باختطاف فيكتوريا. من المحتمل ان إدوارد لم يبلّغ الشرطة طبقاً لنصيحة من السيد داكين.

سألت: «هل تعرف ان كان السيد داكين في بغداد يا ماركوس؟».

ـ «السيد داكين؟ آه أجل، انه رجل لطيف جداً. طبعاً. انه صديق لك، كان هنا البارحة. لا، ما قبل البارحة. وايضاً الكابتن كروسبي. أنت تعرفينه أليس كذلك؟ انه صديق للسيد داكين سيصل اليوم من كرمنشاه».

ـ «هل تعرف أين يقع مكتب السيد داكين؟».

ـ «بالتأكيد أعرف، الكل يعرف شركة النفط العراقية ـ الايرانية».

ـ «حسناً أريد التوجه الى هناك الآن. في سيارة تاكسي. لكني أريد التأكد أولاً من أن السائق يعرف الى أين يأخذني».

قال ماركوس في طواعية: «سأقول له ذلك بنفسي».

رافقها الى آخر الممر وصرخ بطريقته العنيفة المعهودة. ركض اليه على الفور أحد موظفيه. أمره ماركوس بإحضار سيارة تاكسي. ثم رافق فيكتوريا الى التاكسي وتحدث الى السائق. ثم تراجع ملوحاً بيده.

قالت له فيكتوريا: «أريد أيضاً غرفة، هل أستطيع الحصول على واحدة؟».

ـ «نعم. نعم. سأعطيك غرفة جميلة وسأحضر لك شريحة كبيرة

من اللحم. والليلة لدي كافيار فاخر. وقبل ذلك سنتناول كأساً من المشروب».

ـ «هذا ممتاز»، وأضافت فيكتوريا، «آه يا ماركوس هل تستطيع أن تعيرني بعض المال».

ـ «بالتأكيد يا عزيزتي. تفضّلي، خذي كل ما تحتاجينه».

انطلقت السيارة محدثة ارتجاجاً مخيفاً وانقلبت فيكتوريا فوق المقعد الخلفي وتبعثرت بين يديها أوراق وقطع النقد المعدنية.

بعد خمس دقائق دخلت مكاتب شركة النفط العراقية ـ الايرانية، وسألت عن السيد داكين.

رفع السيد داكين رأسه وكان جالساً وراء مكتبه منشغلاً في الكتابة حين أطلت فيكتوريا. نهض وصافحها بطريقة رسمية.

ـ «آنسة.. آه.. آنسة جونز أليس كذلك؟ أحضر قهوة يا عبدالله».

حين انغلق الباب وراء الموظف قال بصوت منخفض.

ـ «ما كان ينبغي أن تأتي الى هنا. أنت تفهمين ما أعني».

قالت فيكتوريا: «اني مضطرة هذه المرة. هناك أمر ينبغي أن أطلعك عليه فوراً قبل أن يصيبني شيء آخر».

ـ «يُصيبك شيء؟ هل حدث لك أي مكروه؟».

ـ «ألم تعرف؟»، سألت فيكتوريا، «ألم يخبرك إدوارد؟».

ـ «كل ما أعرفه انك لا تزالين تعملين في مركز «غصن الزيتون». لم يقل لي أحد أي شيء».

هتفت فيكتوريا: كاترين.

أستميحك عذراً.

تلك الهرة كاترين! أراهن انها لفقت قصة ما لإدوارد وان ذاك الغبي صدّقها».

قال السيد داكين: «حسناً أطلعيني على الأمر. آه. ان كنت تسامحينني على ملاحظتي». ونظر بتكتم الى شعر فيكتوريا الأشقر، «أنا أفضلك سمراء».

قالت فيكتوريا: «هذا جزء من القصة».

قُرع الباب ودخل الموظف حاملاً فنجانين من القهوة الحلوة الطعم. حين غادر قال داكين:

ـ «أخبريني الآن مطوّلاً كل ما جرى. لا يمكن سماعنا هنا».

وانغمست فيكتوريا في رواية كل مغامراتها. وكما كانت تفعل على الدوام وهي تتحدث الى السيد داكين، جهدت أن تكون قصتها موجزة ومتماسكة. أنهت قصتها بالجزء المتعلق بالشال الأحمر الذي كان كارمايكل أوقعه، وكيف ربطت بينه وبين مدام دو فارج.

ثم نظرت اليه قلقة.

بدا لها حين دخلت متعباً ومحبطاً. ورأت الآن بريقاً يشع من عينيه.

قال: «يجدر بي أن أقرأ ديكنز بين وقت وآخر».

ـ «إذن أنت تعتقد اني على حق؟ أتظن انه قال دو فارج؟ وهل تعتقد ان هناك ثمة رسالة محبوكة على الشال؟».

قال داكين: «أعتقد هذا. ان هذه هي أول فرصة سنحت لنا منذ فترة لاكتشاف مفتاح ما ـ وينبغي أن نشكرك على هذا. لكن المهم الآن هو الشال. أين هو؟».

ـ «انه مع بقية متاعي. لقد حشرته في جاروري تلك الليلة. وحين وضّبت متاعي في الحقائب، أذكر اني وضعت فيها كل شيء ولم أترك شيئاً».

ـ «أولم يحصل ان ذكرت هذا الأمر أمام أحد ـ أمام اي كان ـ ان ذاك الشال كان يخصّ كارمايكل»..

ـ «لا. لأني كنت نسيت كل ما يتعلق بشـأنـه. لقد حشرته في احدى حقائبي مع أشياء كثيرة أخرى حين سافرت الى البصرة، ولم أفتحها منذ ذلك الوقت».

ـ «إذن ينبغي أن يكون هناك. حتى ولو فتشوا متاعك لا أظن أبداً انهم سيهتمون بشأن شال قديم ومتسخ، إلا إذا كانوا انتبهوا لأمره سابقاً، وحسب ظني ان هذا مستحيل. ما يجب ان نفعله الآن هو جمع أغراضك وارسالها الى... هل وجدت مكاناً تقيمين فيه؟».

ـ «لقد حجزت غرفة في فندق تيو».

هزّ داكين راسه موافقاً.

ـ «هذا مناسب جداً لك».

ـ «هل ينبغي ـ هل تريدني ـ أن أعود الى «غصن الزيتون»؟».

نظر اليها داكين بإمعان.

ـ «هل أنت خائفة؟».

رفعت فيكتوريا ذقنها.

ـ «لا»، وقالت بتحدّ، «سأذهب ان كنت ترغب بذلك».

ـ «لا أظن ان هذا ضروري ـ أو حتى مستحسن. لا بد وان أحدهم اكتشف نشاطاتك. ولهذا لن تستطيعي اكتشاف اي شيء جديد. من الأفضل أن تبتعدي».

ابتسمت.

ـ «هذا كي لا تصبحي حمراء الشعر حين سأراك في المرة القادمة».

هتفت فيكتـوريا: «هذا ما أرغب معرفته بجنون. لماذا صبغوا شعري. لقد فكرت وفكرت ولم أستطع تفسير هذا. ما الهدف من هذا، هل تعرف؟».

ـ «هناك تفسير واحد وغير ممتع على الاطلاق. وهو لكي يصعب التعرّف الى جثتك».

ـ «لكن إن كانوا أرادوا قتلي، لماذا لم يقتلوني على الفور؟».

ـ «هذا سؤال مثير للاهتمام يا فيكتوريا. انه السؤال الذي أريد أن أعرف جوابه بأي ثمن».

ـ «أوليست لديك أية فكرة؟».

قال داكين مبتسماً: «ليس لدي أي مفتاح للّغز».

قالت فيكتوريا: «وبما أننا نتكلم عن المفاتيح. هل تذكر حين قلت لك انني إرتبت لأمـر ما بشـأن السـير روبرت كروفتون لي ذاك الصباح في فندق تيو؟».

ـ «أجـل».

ـ «أنت لم تعرفه شخصياً، اليس كذلك؟».

ـ «لا أنا لم ألتقه من قبل».

ـ «لقد كنت واثقة من هذا. لأنه في الواقع لم يكن السير روبرت كروفتون لي».

ثم راحت تقص عليه من جديد وبطريقة مسرحية مسألة الحبّة في مؤخر رقبة السير كروفتون لي.

قال داكين: «هكذا إذن أنجزوا الأمر. لم أستطع أن أتصور كيف ان كارمايكل لم يأخذ حذره تلك الليلة حين قتلوه. لقد وصل سليماً الى كروفتون لي ولقد طعنه هذا الأخير. لكنه استطاع الفرار واقتحام غرفتك قبل أن يموت. ولقد أمسك جيداً بالشال: كان أكثر ضراوة من الموت».

ـ «هل تظن انهم اختطفوني لأني كنت سأتوجه لأخبرك هذا الشيء. لكن أحداً لم يعرف هذا غير إدوارد».

ـ «أظن انهم اضطروا الى ابعادك من هناك وبسرعة. كنت تشاهدين أكثر ممّا يجب في «غصن الزيتون»».

قالت فيكتوريا: «لقد حذّرني الدكتور راسبون. لقد كان تهديداً أكثر منه تحذيراً. أعتقد انه اكتشف اني مزيّفة».

قال السيد داكين بجديّة: «ان راسبون ليس غبياً على الاطلاق».

قالت فيكتوريا: «يسعدني اني لست مضطرة الى العودة الى هناك. لقد تظاهرت الآن اني جريئة. لكني في الواقع خائفة جداً. ولكن إن لم أذهب الى «غصن الزيتون» كيف سأستطيع الاتصال بإدوارد؟».

ابتسم داكين.

- «إن لم يأت محمد الى الجبل، فسوف يأتي الجبل اليه. اكتبي له رسالة الآن. قولي فقط انك في فندق تيو واطلبي منه أن يحضر لك متاعك الى هناك. سأذهب الى راسبون هذا الصباح وأسأله عن أحد اللقاءات في مركزه. سأستطيع في سهولة تمرير الرسالة الى سكرتيره. وهكذا لن تستطيع خصمك كاترين اخفاءها. أما أنت فاذهبي الى فندق تيو وابقي هناك و.. يا فيكتوريا».

- «أجل».

- «ان تعرضت لأي مشكلة - من أي نوع كانت - قومي بكل ما في وسعك من أجل نفسك فقط. سوف نقوم بحراستك قدر الإمكان، لكن خصومك خارقون. ولسوء الحظ أنت تعرفين أشياء كثيرة. حين يصل متاعك الى فندق تيو تكون انتهت كل التزاماتك معي. افهمي هذا جيداً».

قالت فيكتوريا: «الآن سأرجع تواً الى فندق تيو. سأقوم على الأقل بشراء بعض البودرة وأحمر الشفاه وغيرهما من المستحضرات. في النهاية...».

قال السيد داكين: «في النهاية لا تستطيع الواحدة لقاء حبيبها غير مسلّحة».

- «لم يكن ريتشارد بايكر يأبه كثيراً لهذا، ولكني أود أن يعرف اني أستطيع أن أبدو جميلة ان حاولت». وأضافت فيكتوريا، «ولكن إدوارد...».

الفصل
الثاني والعشرون



جلست فيكتوريا بشعرها المصفف وشفتيها المطليتين على شرفة فندق تيو. ومرة جديدة شعرت انها جولييت معاصرة تنتظر روميو.

وجاء روميو في الوقت المحدد. أطل متقدماً فوق عشب الحديقة ناظراً في الاتجاهات.

هتفت فيكتوريا: «إدوارد».

رفع إدوارد نظره الى فوق.

- «آه. أنت هنا!».

- «اصعد الى هنا».

- «ها أنذا».

بعد دقيقة انبرى فوق الشرفة التي كانت مقفرة.

قالت فيكتوريا: «إن المكان هنا أكثر اماناً. سوف ننزل وسنطلب إلى ماركوس أن يأتينا بالمشروب على الفور».

- «عذراً يا فيكتوريا يبدو شعرك مختلفاً. ما فعلت به؟».

تنهدت فيكتوريا متضايقة.

ـ «لو جاء أحدهم على ذكر شعري مرة ثانية فسوف أضربه على رأسه».

قال إدوارد: «أظن اني أحبه أكثر كما كان».

ـ «قل هذا لكاترين!».

ـ «كاترين؟ ما علاقتها بهذا؟».

قالت فيكتوريا: «ان لها علاقة بكل ما جرى لي. انت طلبت إلي أن أسايرها. وهكذا فعلت. وأعتقد انك لا تعرف ماذا فعلت بي».

ـ «أين كنت طوال هذه الفترة يا فيكتوريا؟ لقد كنت بدأت أقلق في شأنك».

ـ «آه، هل هذا صحيح؟. أين اعتقدت انه كان يمكن أن أكون؟».

ـ «في الواقع لقد أبلغتني كاترين رسالتك. قالت لي انك طلبت إليها أن تخبرني أنك توجهت الى الموصل فجأة، لأمر ضروري، وانك تلقيت أنباء جديدة. وانك ستتصلين بي لاحقاً».

قالت له فيكتوريا بنبرة مشفقة: «وأنت صدّقت هذا؟».

ـ «اعتقدت انك انطلقت في أثر معلومات ما. كان من الطبيعي انك لم تستطيعي اطلاع كاترين على أكثر من ذلك».

ـ «ألم يخطر لك البتة ان كاترين كانت تكذب. وانهم ضربوني على رأسي؟».

حدق فيها إدوارد متلفظاً: «ماذا؟».

ـ «لقد خدّروني بالكلوروفورم...».

جال إدوارد بنظره في حدّة حولهما.

ـ «يا الهي. لم اكن لأحلم ـ اسمعيني. لا أحب أن نتكلم هنا مع كل هذه النوافذ حولنا. ألا نستطيع الذهاب الى غرفتك؟».

ـ «أجل بالطبع. هل أحضرت معك متاعي؟».

ـ «أجل لقد سلمتها للحمّال».

ـ «لأنك تعرف ماذا يعني أن يبقى الواحد في بدلة واحدة لأكثر من اسبوع».

ـ «ما الذي كان يحدث يا فيكتوريا؟. أعرف. معي سيارتي هنا. هيا بنا نخرج الى ديفونشاير. أنت لم تذهبي أبداً إلى هناك، أليس كذلك؟».

قالت فيكتوريا محدقة في ذهول: «ديفونشاير؟».

ـ «آه. انه مجرد اسم لمكان ما خارج بغداد. انه رائع في هذه الفترة من السنة. هيا تعالي. أشعر وكأني لم أختلِ بك منذ دهر».

ـ «لم نكن وحدنا منذ رحلة بابل. ولكن ماذا سيقول الدكتور راسبون وجماعة «غصن الزيتون»؟».

ـ «سحقاً للدكتور راسبون. ضقت ذرعاً بهذا البغل العجوز».

نزلا الدرجات وخرجا الى حيث كانت سيارة إدوارد متوقفة. قاد إدوارد عبر بغداد في اتجاه الجنوب. ثم انعطف في مكان ما وراح يلتوي ويدور عبر مساحات مزروعة بشجر النخيل وذات جسور كثيرة. في النهاية وصلا لمفاجأة فيكتوريا الى بقعة حرجية غريبة محاطة بسواق متعرجة. كانت البقعة مشجّرة باللوز والمشمش وكانت براعم الأشجار تتفتح زهوراً.

كانت بقعة مثالية. وراء الأشجار ترقرق نهر دجلة.

قالت فيكتوريا متنهدة بعمق: «هذا رائع. هذا يشبه انكلترا في الربيع».

كان الهواء ناعماً ودافئاً. جلسا على جذع شجرة منحنية، كانت زهورها وردية اللون وتدلّت فوق رأسيهما.

قال إدوارد: «والآن يا حبيبتي أخبريني ماذا كان يحدث لك. لقد كنت تعيساً جداً طوال تلك الفترة».

- «هل هذا صحيح؟». وابتسمت هانئة.

ثم أخبرته. عن الفتاة التي غسلت شعرها. عن رائحة الكلوروفورم ومقاومتها لها. عن صحوتها مخدّرة ومريضة. عن طريقة هربها وعن لقائها المثير مع ريتشارد بايكر، وكيف ادّعت أنها فيكتوريا باونسفوت جونز وهما في طريقهما الى مركز التنقيب. وكيف حلت مكان تلميذة علم الآثار التي كانت ستأتي من لندن.

عند هذا الجزء من القصة انفجر إدوارد ضاحكاً.

- «أنت رائعة يا فيكتوريا! ان ما يخطر لك، ما تبتكرينه في منتهى الروعة».

قالت فيكتوريا: «أعرف وخصوصاً مسألة العمين تلك. الدكتور باونسفوت جونز ومن قبله الأسقف».

وفي هذه اللحظة بالذات تذكرت فجأة ماذا كانت على وشك أن تسأل إدوارد في البصرة لحظة قاطعتهما السيدة كلايتون.

قالت: «لقد أردت أن أسألك هذا من قبل. كيف عرفت بمسألة الأسقف؟».

شعرت أن يده التي تمسك يدها تتقلص فجأة. وقال بسرعة. بسرعة كبيرة.

ـ «لقد أخبرتني أنت، أليس كذلك؟».

نظرت اليـه فيكتـوريا. وفكرت في أمر لاحق كم كان غريباً أن تجعلها زلّة لسان طفولية تنجر الى كل ما فعلته.

لقد فوجىء كلياً. لم يكن قد أعدّ سابقاً تبريراً لهذا. صار وجهه مستسلماً ومن غير قناع.

وحدقت فيه. أصبح كل شيء واضحاً ومرتباً بالتسلسل. ورأت الحقيقـة. ربما لم تكتشف ذلك فجأة. ربما كان ذاك السؤال في لاوعيها، «كيف عرف إدوارد بشأن الأسقف؟» طالما أقلقها وشغل بالها هذا السؤال وكانت تقترب ببطء الى الجواب الوحيد والذي لم يكن في المقدور تحاشيه... لم يعرف إدوارد عن قصة الأسقف لانغو التي ابتكرتها منها هي. كان يمكن أن يعرف فقط عبر شخصين وحيدين هما السيد والسيدة هاميلتون كليب. وكان من المستحيل أن يكـون التقـاهما عند وصولها الى بغداد، لأنه كان وقتذاك في البصرة. إذن لقد أخبراه ذلك قبل أن يغادر هو نفسه انكلترا. لا بد وانه كان يعرف منذ البدء انها قادمة مع السيدة كليب ـ وان تلك المصادفة الرائعة لم تكن أبداً بالمصادفة. لقد كان الأمر مخططاً له ومقصوداً.

وبينما نظرت الى وجه إدوارد الفاقد القناع، أدركت فجأة ماذا عنى كارمايكل بكلمة لو سيفر. عرفت ماذا رأى ذاك النهار حين نظر أمامه في الرواق المؤدي الى حديقة القنصلية في البصرة. لقد كان

رأى ذاك الوجه الجميل الفتيّ، الذي تنظر هي اليه الآن ـ لأنه كان وجهاً جميلاً:

«لو سيفر. يا ابن الصباح. كيف سقطت هكذا؟».

لا لم يكن الدكتور راسبون ـ بل إدوارد! إدوارد الذي كان يلعب دوراً ثانوياً، دور السكرتير لكنه كان يسيطر ويخطط ويدير الأمور مستخدماً الدكتور راسبون كمجرد واجهة ـ ولقد حذرها راسبون وسألها المغادرة قبل فوات الأوان...

وبينما كانت تنظر الى ذلك الوجه الجميل الشرير، اضمحل فجأة كل حبها الغبي المراهق، وأدركت ان ما شعرت به تجاه إدوارد لم يكن أبداً حباً. كان مجرد شعور تملكها مرة تجاه همفري بوغارت ومرة نحو دوق أدنبره. كان مجرد انبهار. وادوارد لم يحبها أبداً. لقد مارس جاذبيته وألقه عليها عن قصد. لقد اختارها ذلك اليوم مستخدماً وسامته في بساطة وفي كل عفوية لكي تقع في غرامه من دون مقاومة. لقد كانت مغفلة.

أمر خارق أن تتوارد صور كثيرة في رأس المرء خلال ثوان قليلة. لم يكن من الضرورة أن تفكر حتى في تلك الأشياء. انها تتوارد كمعرفة كاملة وفورية. لأنه ربما انت في أعماقك كنت تعرف هذه الحقيقة طوال الوقت...

وفي الوقت نفسه حرك حدس فيكتوريا، أو حس البقاء عندها دماغها لردة فعل وقائية سريعة جداً. فأبقت على وجهها ذلك التعبير الساذج المنذهل ظاهرياً فقط. لأنها أيقنت على الفور انها في خطر عظيم. كانت لديها ورقة وحيدة كان يمكن أن تلعبها، وهذه الورقة وحدها قادرة على انقاذها. ولعبتها بسرعة.

قالت له: «أنت كنت تعرف طوال الوقت. لقد عرفت اني سأصل الى هنا. لا بد وانك أنت خططت لذلك. آه يا إدوارد انك رائع جداً!».

كانت تعابير وجهها مثل البلاستيك ولكنه يعكس احساساً وحيداً لا بل شعوراً بالافتتان العارم. ورأت ردة الفعل ـ تلك الابتسامة الهزيلة الساخرة. وشعرت بالارياح. شعرت كأنه يقول لنفسه: «تلك الصغيرة الحمقاء! يمكن أن تصدّق أي شيء! أستطيع أن افعل اي شيء بها».

سألته: «ولكن كيف خططت لإنجاز كل هذا. لا بد انك رجل خارق. أنت مختلف تماماً عما تدّعيه. انت كما قلت ذاك النهار ـ أنت ملك بابل».

رأت وجهه وقد شعّ بالفخر. رأت القوة والطاقة والجمال وأيضاً القسوة التي كانت محتجبة خلف مظهر الشاب المتواضع واللطيف.

وخطر لڤيكتوريا «وأنا لست سوى جارية مسيحية». ثم قالت بسرعة وبقلق وكأنما لاضفاء لمسة فنية أخيرة على إنجازها (ولم يكن أحد يعلم كم كلفها ذلك من كبريائها)، «ولكنك تحبني أليس كذلك؟».

كان احتقاره لها ظاهراً الآن. هذه الغبيّة الصغيرة ـ كل هذه النساء الغبيات! من السهل جداً أن تجعلهن يعتقدن انك تحبهنّ. وهذا وحده كان يهمهن في النهاية! ليس بمقدورهن تصوّر عظمة انشاء عالم جديد. لم يكن همهن سوى الحب! انهن جاريات وأنت تستخدمهن كجاريات لتحقيق أهدافك.

قال: «بالتأكيد أنا أحبك».

ـ «ولكن أخبرني كل شيء، قل لي حقيقة ما يجري يا إدوارد. أريد أن أفهم».

ـ «انه العالم الجديد يا فيكتوريا. عالم جديد سيطلع من ركام ورماد العالم القديم».

ـ «أخبرنـــي».

روى لهـا كل ما يجري ولقد كانت مأخوذة بالأمر رغماً عنها، كانت وكأنها في حلم، ستكون الحرب بين أولئك «العجائز الأثرياء» المتمسكين بثرواتهم من جهة والشيوعيين الأغبياء الذين يريدون بنـاء جنة كارل ماركس. سوف تكون الحرب شاملة وسيدمر كل شيء. ومن بعدها ستنشأ الجنة والأرض الجديدة. ولن يبقى سوى عصبـة صغـيرة من البشر المختـارين، العلمـاء، خبراء الزراعة، والمختصـين ـ أنـاس شبـان مثل إدوارد ـ وحدهم سكان العالم الجـديد. كلهم شبان وكلهم مؤمن بأنه رجل خارق. حين سيحلّ الدمار، سوف يخرجون ويسيطرون على العالم.

كان هذا جنوناً. لكنه جنون بنّاء.

قالت فيكتوريا: «ولكن ألا تفكر في كل هؤلاء الناس الذين سيموتون؟».

قال إدوارد: «أنت لا تفهمين. هذا الأمر لا أهمية له».

لا يهم ـ لقد كانت هذه عقيدة إدوارد. كل هذه الآلاف من الناس العاديين الذين لا همّ لهم سوى الحياة بشرف، هؤلاء الذين يزرعون الأرض ويعملون بجهد لتربية عائلاتهم. كل ضحكاتهم وكل بكائهم وصحـواتهم المبكرة ورقادهم لا معنى لها بالنسبة لإدوارد. وهي

بعكسه تماماً حيث يهمها هؤلاء الناس وليس أولئك الملائكة الملاعين الذين يريدون إنشاء عالم جديد غير آبهين بكل ما سيحصل من قتل ودمار.

وتابعت بحذر شديد. لأنها شعرت ان الموت هنا في ديفونشاير قريب جداً، وقالت:

ـ «أنت رائع يا إدوارد. ولكن ماذا في شأني؟ ماذا أستطيع أنا أن أفعل؟».

ـ «هل تريدين ـ مساعدتنا؟ هل تؤمنين بهذا؟».

اصبحت حذرة. تحوّلها هذا السريع قد يكون مريباً بعض الشيء.

ـ «أظن اني أؤمن بك فقط! سأفعل كل ما تريدني أن أفعله يا إدوارد».

قال: «أنت فتاة عاقلة».

ـ «لقد جئت الى هنا لنخطط لأمر ما. لا بد من سبب لمجيئنا؟».

ـ «بالتأكيد هناك سبب مهم. هل تذكرين حين نظرت اليك يوم التقينا لأول مرة؟».

قالت فيكتوريا: «أجل أذكر».

(أيها الغبي. كم كنت متعجرفاً، لقد تكلفت الابتسام يومذاك).

ـ «لقد صدمني تكوين وجهك من الجنب، شبهك بأحد ما. لقد حدقت فيك يومها لأتأكد من الشبه».

ـ «من أشبه؟».

ـ «تشبهين امرأة سببت لنا الكثير من المتاعب ـ انها آنا شيل».

ـ «آنا شيل؟» وحدقت فيه فيكتوريا في ذهول كامل. كان هذا آخر ما كان يمكن أن تتوقعه، «هل تعني انها تشبهني؟».

ـ «أجل الى حد بعيد وخاصة البروفيل. تقريباً الملامح نفسها. وهناك أيضاً أمر خارق. ان لديك وشماً صغيراً على شفتك العليا من ناحية الشمال».

ـ «أعرف. لقد كنت وقعت عن حصان خشبي وأنا طفلة. لكنه لا يظهر كثيراً وخصوصاً حين أضع أحمر شفاه».

ـ «آنا شيل أيضاً لديها الوشم نفسه وفي المكان عينه. هذه كانت نقطة مهمة جداً. ان لها تكوينك ووزنك، لكنها أكبر منك بأربع أو خمس سنوات. الفرق الوحيد البارز بينكما هو لون الشعر. هي شقراء وأنت سمراء. وطريقتك في تزيين شعرك مختلفة تماماً عنها. زرقة عينيك أعمق، لكن هذا يمكن أن يسوّى بواسطة عدستين لاصقتين ملوّنتين».

ـ «ولهذا أردتني أن أحضر الى بغداد؟ لأني أشبهها».

ـ «أجل خطر لي ان هذا التشابه سيكون مفيداً في أحد الأيام».

ـ «إذن لقد خططت للأمر منذ البداية... وعائلة كليب ـ من كانا؟».

ـ «لا أهمية لهذا. إنهما ينفذان فقط الأوامر».

أحست فيكتوريا بضيق كما لو انه قال بلامبالاة غير إنسانية: «انهما يطيعان فقط».

كان هذا المشروع المجنون برمته يوحي بنكهة دينية مغايرة. خطر لها «ان إدوارد هو إله نفسه. وهذا كان مخيفاً جداً».

وقالت بصوت مرتفع:

ـ «لقد قلت لي ان آنا شيل كانت الرئيسة، ملكة النحل. هل هي معك أو ضدك؟».

ـ «لقد قلت لك هذا لأضلّلك. كنت تعرفين إذ ذاك أكثر من اللزوم».

ـ فكرت فيكتوريا: «لو لم اكن أشبه آنا شيل لكنت الآن في عداد الموتى». ثم أردفت، «من هي في الحقيقة؟».

ـ «إنها سكرتيرة أوتو مورغانتال الخاصة. انه رجل مصارف أميركي. ولكن ليس هذا كل ما تفعله. انها دماغ مصرفي خارق. نعتقد انها استطاعت اكتشاف عدد كبير من عملياتنا المصرفية. ثلاثة أشخاص شكلوا خطراً علينا وهم روبيرت كروفتون لي وكارمايكل اللذان تخلصنا منهما. ولم يبق هناك سوى آنا شيل. سوف تصل بعد ثلاثة أيام الى بغداد. انها الآن مختفية».

ـ «اختفت؟ أين؟».

ـ «في لندن. لقد اختفت ظاهرياً عن صفحة الكرة الأرضية».

ـ «ألا يعرف أحد أين هي؟».

ـ «أعتقد ان داكين يعرف أين؟».

فكرت فيكتوريا: «ولكن داكين لا يعرف. كانت فيكتوريا تعلم ذلك. إذاً أين هي آنا شيل؟».

سألته: «أليست لديك أدنى فكرة عن مكان وجودها؟».

قال إدوارد في بطء: «لدينا فكرة».

ـ «حسناً».

ـ «من الضروري أن تأتي آنا شيل الى بغداد لحضور

الاجتماع. انه سيحصل كما تعرفين بعد خمسة أيام».

- «أبهذه السرعة. لم أكن أعرف».

- «اننا نسجل أسماء كل الداخلين الى هذه البلاد. لن تأتي بالتأكيد باسمها الحقيقي. ولن تحضر في طائرة تابعة للحكومة. لدينا وسائلنا للتأكد من هذا. لقد تحرينا عن كل الحجوزات الخاصة. هناك حجز في شركة الطيران البريطانية باسم غريتا هاردن. لقد تحرّينا في شأنها واتضح ان ليس هناك احد بهذا الاسم. انه اسم مزيّف. والعنوان مزيّف أيضاً. اننا نعتقد ان غريتا هاردن هي آنا شيل بالذات».

وأضاف:

- «سوف تحط طائرتها في دمشق بعد غد».

- «وماذا سيحصل؟».

نظر اليها إدوارد فجأة وقال:

- «هنا يأتي دورك يا فيكتوريا».

- «أنا؟».

- «سوف تحلّين مكانها».

تلفظت فيكتوريا في تمهل: «مثلما حدث مع روبرت كروفتون لي».

همست لنفسها: لقد قتلوا كروفتون بالأسلوب عينه. وبالتأكيد ستقتل آنا شيل أو غريتا هاردن ان هي حلت مكانها.

كان إدوارد ينتظر. ولو خامره الشك لحظة في ولائها لكانت ستموت حتماً. وستموت من غير أن يتسنى لها تحذير أحد.

لا يجدر بها أن توافق بل يجب أن تتحين فرصة للإتصال بداكين.

تنفست عميقاً وقالت:

ـ «أنا. أنا. آه، لكن يا إدوارد لا يمكنني أن أفعل ذلك سوف يكتشفون أمري. لا أستطيع التحدث بلهجة أميركية».

ـ «ليس لدى آنا شيل أية لهجة معينة. على أية حال ستقولين انك تعانين من التهاب في الحنجرة. وسيثبت ذلك أحد أهم الأطباء».

فكرت فيكتوريا: «ان لديهم عملاء في كل المجالات».

سألته: «ماذا يتوجب عليّ أن افعل؟».

ـ «ستسافرين من دمشق الى بغداد بدل غريتا هاردن. ثم تتوجهين مباشرة الى سريرك. سوف يقوم أحد الأطباء المشهورين بزيارتك مباشرة قبل وقت الاجتماع، وسيسمح لك بمغادرة الفراش. وبعدها ستتوجهين الى الاجتماع وستقدمين المستندات التي حملتها معك».

سألت فيكتوريا: «المستندات الحقيقية؟».

ـ «بالطبع لا. سوف نستبدل بها مستندات مزيفة».

ـ «ماذا كانت ستكشف تلك المستندات؟».

ابتسم ادوارد وقال: «ان فيها تفاصيل أضخم مخطط للشيوعية في أميركا».

فكرت فيكتوريا: «يا له من مخطط بارع».

وقالت بصوت مرتفع: «هل تعتقد فعلاً يا إدوارد اني سأنجح في هذا؟».

كانت تلعب دوراً. كان من السهل عليها أن تدعي الجديّة والقلق.

ـ «أنا واثق انك تستطيعين. انك بارعة في هذا المجال ومقنعة الى حد بعيد».

قالت فيكتوريا بغصّة، مخاطبة نفسها: «كم كنت غبية حين صدّقت قصة عائلة هاميلتون كليب».

ضحك هو في كبرياء.

فيكتوريا التي أبقت فوق وجهها قناع الإفتتان به، فكرت لنفسها بخبث: «لكنك كنت أحمق أيضاً حين زل لسانك بقصة الأسقف في البصرة. لو لم تفعل لما كنت اكتشفتك على حقيقتك البتة».

قالت له فجأة: «ماذا في شأن الدكتور راسبون؟».

ـ «ماذا تعنين بذلك؟».

ـ «هل هو مجرد واجهة؟».

عضّ إدوارد شفتيه مبتهجاً وفي قسوة.

ـ «راسبون مضطر الى التعامل معنا. أتعرفين ماذا كان يفعل كل هذه السنوات. كان يستخدم ثلاثة أرباع المداخيل التي كانت تتدفق عليه من كل أنحاء العالم لأغراضه الشخصية. انه مخادع. لقد كشفنا أمره وهو رهينة بين أيدينا. نستطيع أن نشهّر به في أي وقت. وهو يعرف هذا جيداً».

شعرت فيكتوريا للحال بعرفان جميل تجاه الرجل العجوز. قد يكون محتالاً ـ لكنه يعرف الشفقة ـ ولقد حاول أن ينقذها في الوقت المناسب.

قال إدوارد: «كل شيء يسير الآن لمصلحة عالمنا الجديد».

راود فيكتوريا: «إدوارد هذا الذي يبدو عاقلاً جداً، هو مجنون في الواقع. قد يصبح أي واحد مجنوناً إن حاول أن يتصور انه إله. يقولون دائماً ان التواضع هو فضيلة مسيحية، والآن يمكنني أن أعرف لماذا. ان التواضع هو الذي يحفظ الانسان عاقلاً لا بل مخلوقاً بشرياً..».

نهض إدوارد.

قال: «حان الوقت للذهاب. يجب أن نوصلك الى دمشق لأن مخططنا هنا سينفذ بعد الغد».

نهضت فيكتوريا في رشاقة. ستكون في مأمن من إدوارد ما أن يبتعدا عن ديفونشاير ويعودا الى بغداد حيث الازدحام، وفندق تيو، وماركوس الزاعق طوال الوقت. كان عليها أن تلعب دوراً مزدوجاً. أن تتابع خداع إدوارد بطاعتها العمياء والمَرْضية له، وأن تحاول في سريّة تدمير مخططاته.

قالت له: «هل تعتقد ان السيد داكين يعرف مكان اختباء آنا شيل؟ ربما أستطيع أنا أن أكتشف هذا منه. أن أحصل على مفتاح ما لهذا السر».

ـ «لا أعتقد هذا. في مطلق الأحوال أنت لن تري داكين بعد الآن».

قالت فيكتوريا وهي تكذب وقدهزّتها ارتعاشة من الخوف: «لقد طلب إلي أن ألتقيه هذه الليلة، سوف يرتاب إن لم أفعل».

قال إدوارد: «لا يهمنا ما قد يخطر له في هذه المرحلة. لقد أعددنا الخطة. لن يراك أحد في بغداد بعد الآن».

- «لكن يا إدوارد. ان متاعي كله موجود في فندق تيو! لقد حجزت غرفة».

الشال. الشال الثمين.

- «لن تحتاجي إلى متاعك الآن، ليس قبل انتهاء العملية. لقد جهّزت لك ثوباً خاصاً. تعالي».

ركبا في السيارة من جديد. وفكرت فيكتوريا: «كان يجب أن أعرف ان إدوارد ليس غبياً ليسمح لي بالاتصال بداكين بعد أن اكتشفت أمره. انه يعتقد اني مغرمة ومأخوذة به. أجل أظن انه واثق من هذا. لكنه في مطلق الأحوال غير مستعد للمجازفة».

قالت له: «ألن يفتشوا عني، ان أنا اختفيت فجأة؟..».

- «سوف نهتم بهذا. ظاهرياً سوف تودعينني عند الجسر وستتوجهين لزيارة أصدقاء عند الضفة الغربية من النهر».

- «وماذا سيحدث بالفعل؟».

- «انتظري وسترين».

جلست فيكتوريا صامتة بينما راحت السيارة تنعطف قاطعة طرقات غير معبدة وبساتين نخيل وجسوراً.

تمتمت فيكتوريا: «لو فارج. لو فقط نعرف ماذا قصد كارمايكل بذلك».

ثم قفز قلب فيكتوريا فجأة وانبرت:

ـ «آه. نسيت أن أخبرك. لا أعرف ماذا يعني هذا، ولكن أ. م لو فارج جاء في أحد الأيام الى مركز التنقيب في تل أسود».

ـ «ماذا؟». وكاد إدوارد يوقف السيارة من شدّة إثارته. «متى حدث ذلك؟».

ـ «آه! من أسبوع تقريباً. قال انه جاء من موقع ما للتنقيب في سوريا. حيث ينقّب العالم باروث على ما أظن».

ـ «هل حضر رجلان يدعيان، أندريه وجوفيه حين كنت هناك؟».

ـ «آه. أجل كان أحدهما مريضاً. لقد دخل الى المنزل ليستريح».

قال إدوارد: «لقد كانا من رجالنا».

ـ «لماذا ذهبا الى هناك؟ أليبحثا عني؟».

ـ «لا. لم نكن نعرف انك هناك. لكن ريتشارد بايكر كان في البصرة حين كان كارمايكل هناك. نعتقد ان من المحتمل أن كارمايكل سّرب له شيئاً ما».

ـ «قال ريتشارد ان أغراضه فتشت، هل وجدتم أي شيء؟».

ـ «لا. الآن فكري جيداً يا فيكتوريا. هل أتى لو فارج قبل أو بعد قدوم الرجلين؟».

جعلت فيكتوريا تفكر متظاهرة بالاهتمام الشديد، وكانت في الواقع تفكر في تلفيق تصرفات ما ستنسبها لهذا «اللو فارج» الأسطوري.

ـ «أجل لقد جاء قبل يوم واحد من حضور الرجلين».

ـ «ماذا فعل؟».

- «حسناً. لقد ذهب الى مركز التنقيب مع الدكتور باونسفوت جونز. ثم توجه مع ريتشارد بايكر الى المنزل ليشاهدا شيئاً ما في غرفة المعدات».

- «هل توجه الى المنزل مع ريتشارد بايكر. هل تحدثا الى بعضهما؟».

- «بالطبع. أعني: هل يمكن أن يشاهدا معاً شيئاً ما صامتين، هل تتصور هذا؟».

تمتم إدوارد: «لو فارج. من هو لو فارج. لماذا لم ننجح أبداً في اكتشافه؟».

تاقت فيكتوريا لأن تقول: «انه شقيق السيدة هاريس» لكنها امتنعت. لقد ابتهجت لتلفيقها قصة السيد لو فارج، كانت تستطيع الآن تخيل شكله. رجل نحيل جداً، أسود الشعر بشاربين قليلين. وحين سألها إدوارد عن مواصفاته، جعلت تكرر له هذا في دقّة.

كانا يتقدمان الآن في ضواحي بغداد. ثم انعطف إدوارد ليتابع في طريق جانبيـة تحيط بها فيلات حديثة أوروبية الطراز محاطة بحـدائق وشرفـات. أمـام أحد البيوت وقفت سيارة كبيرة فتوقف إدوارد خلفها وخرجا هو وفيكتوريا من السيارة. ثم صعدا الدرجات أمام الباب الخارجي.

خرجت امرأة نحيلة سمراء للقائهما وتحدث اليها إدوارد معجلاً باللغة الفرنسية. لم تكن فرنسية فيكتوريا جيدة لتفهم كلياً ماذا قال لها، ولكنها فهمت ما معناه، ان هذه هي الفتاة وانه ينبغي تنفيذ خطة التبديل على الفور.

استدارت المرأة نحوها قائلة في تهذيب بالفرنسية: «تعالي معي ان كنت تسمحين».

قادت فيكتوريا الى داخل غرفة نوم حيث شاهدت ثوب راهبة قد بسط فوق السرير. أشارت اليها المرأة، فخلعت فيكتوريا ملابسها وارتدت الثوب الجوخ الضخم الأسود اللون. ثم سوّت لها المرأة الفرنسية غطاء الرأس. نظرت فيكتوريا الى نفسها في المرآة. بدا وجهها أو ما تبقى منه تحت القماشة البيضاء التي غطت ذقنها نقياً وملائكياً. ثم انتعلت حذاء واسعاً جداً وعجيب الشكل وخرجت لتعود الى إدوارد مجدداً.

قال موافقاً: «يبدو شكلك مقنعاً. أبقي عينيك خفيضتين خصوصاً في حضور الرجال».

ثم انضمت المرأة الفرنسية اليهما بعد قليل وكانت ترتدي ثوباً مشابهاً لثوبها. وخرجت الراهبتان من المنزل وصعدتا في السيارة الكبيرة، حيث جلس رجل طويل أسمر في ثياب أوروبية وراء المقود.

قال إدوارد: «اننا نعتمد عليك الآن يا فيكتوريا. تصرفي تماماً كما قلت لك».

شعرت فيكتوريا بنبرة مهددة في كلماته.

قالت فيكتوريا في بساطة، «ألن تأتي معنا يا إدوارد؟».

ابتسم لها. وقال: «سوف ترينني بعد ثلاثة أيام. ثم تمتم بطريقته المراوغة المعهودة: «لا تخيبي ظنّي يا حبيبتي. أتمنى أن تنجزي الأمر. أحبك يا فيكتوريا. لن أجرؤ على تقبيل راهبة، لكني أحب أن افعل هذا».

اخفضت فيكتوريا عينيها موافقة وكأنما هي راهبة بالفعل. ولم يكن ذلك إلا لإخفاء غضبها الذي ما استطاعت اخفاءه في تلك الدقيقة.

فكرت: «يا له من يوضاس مخيف».

عوضـاً عن ذلك قالت بطريقة جدّية: «حسناً، يبدو انني حقاً جارية مسيحية».

قال إدوارد، «هذه هي فتاتي»، وأضاف، «لا تجزعي ان أوراقك الثبـوتيـة المزيفة منجزة بشكل ممتاز. لن تلاقي أية صعوبة مع الجمـارك السورية. اسمك الجديد كونك راهبة هو الأخت ماري دو أونـج. الأخت تيريـز التي ترافقـك معها كل المستندات وهي المسـؤولة عن كل شيء بحق السمـاء أطيعي الأوامر. وأحذرك في صراحة وإلا ستدفعين الثمن».

تراجع، لوّح بيده في حيوية وانطلقت السيارة الكبيرة. تراجعت فيكتوريا واتكأت على المقعد وراحت تفكر في كل الاحتمالات. يمكنها وهم يعبرون بغداد أو عند نقطة التفتيش الحدودية أن تقوم بحركة ما، أن تصرخ طالبة النجدة، وأن تشرح انها اختطفت رغماً عنها. أو ادعاء أي احتجاج من أي نوع.

ماذا سيحقق لها ذلك؟ في مطلق الأحوال لن يحقق ذلك سوى نهـاية فيكتوريا جونز. لقد كانت لاحظت أن الأخت تيريز حشرت تحت ساعدها مسدساً صغيراً من النوع الأوتوماتيكي. بالتأكيد لن يفسحوا لها المجال لتتفوه بأي حرف.

أو انها تستطيع الانتظار حتى يصلوا الى دمشق؟ وهناك تنفجر

صارخة. ولكن ماذا يمنع أن يصيبها المصير نفسه. أو أن الراهبة الأخرى والسائق سوف يدحضان ادعاءها بواسطة الأوراق الثبوتية. قد يقدمان أوراقاً تثبت انها متخلفة عقلياً.

كان أفضل حل لها هو أن تتابع الى آخر الامر ـ وأن تستسلم للمخطط.

أن تعود الى بغداد بدل آنا شيل وأن تلعب دورها حتى النهاية، ولو فعلت هذا لا بد أن تحين فرصة أو مناسبة لن يستطيع إدوارد خلالها مراقبة لسانها أو تصرفاتها. ولو استطاعت أن تتابع مقنعة إدوارد انها ستنفذ الأمور حسب رغبته، فستصل الى الوقت الذي ستقف فيه مع مستنداتها المزيفة أمام أعضاء الإجتماع ـ ولن يكون إدوارد هناك.

ولن يستطيع أحد منعها عن قول: «أنا لست آنا شيل وكل هذه الأوراق مزوّرة وغير صحيحة».

تساءلت في نفسها: هل يعقل أن هذا الأمر لم يكن قد خطر ببال إدوارد. ولكنها تذكرت أن نيّة الشر غالباً ما تكون عمياء. ومن ناحية اخرى كان من الضروري أن يكون لدى إدوارد وجماعته آنا شيل اخرى ان نجحت خطتهم في اختطافها. لم يكن أمراً سهلاً بالنسبة اليهم العثور على فتاة تشبه آنا شيل وأن يكون لديها وشم الشفة العليا نفسه. لا ان هؤلاء الرجال«السوبرمان» في حاجة ماسة الى فيكتوريا جونز السكرتيرة. وكان هذا يضعها في مركز قوة وليس العكس.

أسرعت السيارة فوق الجسر. نظرت فيكتوريا الى دجلة في حنين.

ثم انطلقوا معجلين على الأوتوستراد الواسع والمغبر. مررت فيكتوريا أناملها فوق السبحة وقد أعطاها هذا شعوراً مطمئناً.

فكرت فيكتوريا وقد غمرها فجأة شعور بالاطمئنان: «في النهاية أفضل أن اكون شهيدة مسيحية على أن أكون ملكة بابل. ويبدو ان هناك احتمالاً كبيراً في أن أصبح شهيدة. آه. حسناً في مطلق الأحوال لن تأكلني الأسود. أنا أكره الأسود».

الفصل الثالث والعشرون



- ١ -

هبطت الطائرة الضخمة من طراز سكاي ماستر وحطت على المدرج بشكل ممتاز. ثم نزل الركّاب. وانفصل أولئك المتوجهون الى البصرة عن الذين كانوا سيركبون طائرة ستقلهم بعد وقت الى بغداد.

في المجموعة الثانية المتوجهة الى بغداد كان هناك أربعة ركاب، بينهم رجل أعمال عراقي ثري المظهر، وطبيب انكليزي شاب وامرأتان.

تقدمت فتاة سمراء ذات شعر أشعث ووجه متعب.

ـ «السيدة باونسفوت جونز؟ بريطانية. أجل. للالتحاق بزوجك ما هو عنوانك في بغداد لو سمحت؟ أي نوع من العملة تحملين؟».

ثم جاء دور المرأة الثانية.

«غريتا هاردن. أجل. ما جنسيتك؟ دانماركية. من لندن. ما هدف زيارتك؟ مدلّكة في مستشفى؟ ما العنوان في بغداد؟ أي نوع من العملة تحملين؟».

كانت غريتا هاردن شابة نحيلة جميلة الشعر وكانت تضع نظارة سوداء. كان أحمر الشفاه يخفي الوشم على شفتها. كانت ترتدي ثياباً أنيقة انما قديمة بعض الشيء. كانت تتكلم الفرنسية بشكل سيىء وكانت تسأل أحياناً أن يعيدوا عليها طرح السؤال.

أبلغ الركاب الأربعة أن الطائرة المتوجهة الى بغداد ستنطلق بعد الظهر. وانهم سينقلون الى فندق العباسية للاستراحة وتناول طعام الغداء.

كانت غريتا هاردن جالسة على سريرها حين طرق الباب. فتحته ووجدت أمامها امرأة طويلة سوداء ترتدي زي شركة الطيران البريطانية.

ـ «أنا آسفة يا آنسة هاردن. أرجو أن تحضري معي الى مكتب شركة الطيران البريطانية. هناك إشكال بسيط يتعلق ببطاقة سفرك. تقدمي من هنا إن سمحت».

تبعت غريتا هاردن المضيفة عبر الرواق. الى حيث ارتفعت فوق باب وبأحرف ذهبية لوحة عليها اسم شركة الطيران البريطانية.

فتحت المضيفة الباب ثم ابتعدت لتدخل غريتا هاردن. وبسرعة أقفلت الباب من الخارج وانتزعت اللوحة.

ما إن دخلت غريتا هاردن حتى انقض عليها رجلان من الخلف وغمرا رأسها بقطعة من القماش. ثم حشرا في فمها قطعة كبيرة من القطن. رفع أحدهما كمها وغرز إبرة في ذراعها.

بعد دقائق قليلة تراخى جسمها وفقدت الوعي.

ثم قال الطبيب الشاب في انشراح: «هذه الإبرة سيستمر

مفعولها لست ساعات. والآن قوما أنتما بتنفيذ الباقي».

ثم هز رأسه متطلعاً الى اثنتين أخريين في الغرفة. كانتا راهبتين قاعـدتين من دون حراك قرب النافذة. خرج الرجال من الغرفة. توجهت الأكبر سناً الى غريتا هاردن وخلعت عنها ثيابها. الراهبة الشابة ارتجفت بعض الشيء وبدأت تخلع هي أيضاً رداءها. كانت غريتـا هاردن ممـددة على الفـراش ومـرتدية ثياب راهبة. وكانت الراهبة الشابة في ملابس غريتا هاردن.

انتبهت الراهبة الأكبر سناً الى شعر رفيقتها الأشعث. حملت صورة فوتوغرافية وراحت تمشط وترتب لها شعرها مرسلة إياه الى الخلف بعيداً عن جبهتها ليسترسل فوق رقبتها.

ثم تراجعت وقالت بالفرنسية:

«أمـر مذهل كيف تغيّر هذه التصفيفة شكلك! ضعي النظّارة السوداء. عيناك زرقاوان وقاتمتان. أجل هكذا رائع».

سمع طرق خفيف على الباب ثم دخل الرجلان مجدداً. كانا يبتسمان.

قال أحدهما: «ان غريتا هاردن هي فعلياً آنا شيل. لقد عثرنا على المستنـدات لقـد كانت موضبة بعناية بين نشرات دانماركية عن رسالة المستشفيات. والآن يا آنسة هاردن»، وانحنى بسخرية أمام فيكتوريا أتشرف بدعوتك لتناول الغداء معي».

تبعتـه فيكتـوريا الى الخارج وعبر الرواق ورأت امرأة أخرى تحاول ارسال برقية. كانت تقول: «لا. ب. ا. ن. س. ف. ف. ث. الدكتور باونسفوت جونز. سأصل اليوم الى فندق تيو. رحلة موفقة».

نظرت اليها فيكتوريا فجأة في اهتمام. لا بد وانها زوجة الدكتور باونسفوت وهي قادمة للانضمام اليه. لقد أتت قبل أسبوع من الموعد، لكن هذا لم يفاجىء فيكتوريا لأن الدكتور باونسفوت تذمر أكثر من مرة بسبب فقدانه رسالتها التي تحدد فيها موعد قدومها. ولكنه كان شبه أكيد انه السادس والعشرون من الشهر.

لو تستطيع بطريقة أو بأخرى ارسال رسالة فقط عبر السيدة باونسفوت الى ريتشارد بايكر..

وكما لو أن الرجل الذي كان يرافقها قرأ أفكارها، فأمسكها بذراعها وأبعدها عن المكتب الذي وقفت عنده السيدة باونسفوت.

- «الأحاديث ممنوعة مع المسافرين الآخرين يا آنسة هاردن». وأردف قائلاً، «لا نريد هذه المرأة الطيبة أن تلاحظ انك لست تلك التي حضرت معها في الطائرة من انكلترا».

ثم اصطحبها الى خارج الفندق لتناول طعام الغداء. وحين عادا كانت السيدة باونسفوت جونز تنزل الدرج داخل الفندق. حيث كانت فيكتوريا من غير أن تشك أبداً في أي شيء.

«هل كنت في رحلة استطلاعية؟»، وأضافت، «أنا متوجهة الى الأسواق».

فكرت فيكتوريا: «لو أستطيع أن أدس شيئاً ما فقط في حقائبها..».

لكنها لم تترك وحدها دقيقة واحدة.

انطلقت طائرة بغداد عند الساعة الثالثة.

كان مقعـد السيـدة باونسفـوت جونز في المقدمة. وكان مقعد فيكتـوريا في مؤخرة الطائرة قرب الباب. وبينهما في وسط المسافة تقريباً جلست سجّانتها. كان من المستحيل أن تصل فيكتوريا الى المرأة الاخرى أو أن تدس في متاعها رسالة.

لم تكن الرحلة طويلة. ونـظرت فيكتـوريا مرة أخرى الى منظر المـدينة من الجو. كانت رأته أيضاً منذ أقل من شهر. وكم جرت أحداث منذ ذلك التاريخ!

بعـد يومـين سوف يلتقي هنـا رجـال يمثلون الأيديولوجيتين المسيطرتين على العالم. وسوف يناقشون مستقبل العالم.

وسيكون لها هي فيكتوريا جونز دور في هذا.

- ٢ -

قال ريتشارد بايكر: «في الحقيقة أنا قلق في شأن تلك الفتاة».

قال الدكتور باونسفوت جونز في غرابة:

- «أي فتاة؟».

- «فيكتوريـا».

- «فيكتوريا؟». حدّق الدكتور باونسفوت في الاتجاهات، «أين هي؟ - بحق الله. لقد عدنا من دونها في الأمس».

قال ريتشارد: «أتساءل ان كنت لاحظت ذلك».

- «يـا لي من مهمـل. لقد انغمست كلياً في ذاك التقرير الذي وصلني من البعثة التي تعمل على تل بمدار. ألم تعرف هي مكان وجود الشاحنة؟».

قال ريتشارد: «كان من المستحيل أن تعود الى هنا، في الواقع انها ليست فينيسيا سافيل».

«ليست فينيسيا سافيل؟ هذا عجيب. لكني أذكر انك قلت ان اسمها هو فيكتوريا».

- «هذا صحيح. لكنها ليست عالمة آثار. وهي لا تعرف إمرسون. في الحقيقة كان كل الأمر مجرد سوء تفاهم».

- «آه. يبدو الأمر غريباً جداً. أتمنى - هل أنا مذنب؟ أعرف اني ساهم معظم الوقت. لقد قرأت ربما رسالة أخرى؟».

قال ريتشارد بايكر مرتعداً وغير آبه للدكتور باونسفوت: «لا أستطيع أن أفهم. لقد غادرت في سيارة مع شاب، ويظهر انهما لم يعودا. أكثر من هذا، فقد كانت حقائبها هناك ولم تكلّف نفسها بفتحها. يبدو الأمر مريباً - ان أخذنا بعين الاعتبار الوضع الصعب الذي تواجهه لقد اتفقنا أن نلتقي بعد الغداء... لا أستطيع أن أفهم. اتمنى أن لا يكون حصل لها أي سوء».

ثم أردف ريتشارد: «لقد اختطفوها مرة من قبل. ما الذي سيمنعهم من اختطافها مجدداً؟».

قال الدكتور باونسفوت: «هذا غير معقول. هذا غير معقول».

- «لو أستطيع أن أذكر فقط اسم ذاك الرجل في شركة النفط. هل كان ديكون؟ ديكون، داكين؟ أو ما يشابه هذا».

قال الدكتور باونسفوت: «لم أسمع به البتة».

- «هل يزعجك يا سيدي لو عدت غداً الى بغداد؟».

- «غداً؟ ولكنك كنت هناك البارحة؟».

ـ «أنا قلق بشأن تلك الفتاة. أنا قلق جداً».

ـ «رباه، يا ريتشارد، لم أكن أعرف أن بينكما شيئاً من هذا النوع».

ـ «أي نـوع؟».

ـ «انك على علاقة معها. هذه ظاهرة سيئة احضار نساء الى بقعة تنقيب. وخصوصاً الجميلات منهن. ان فيكتوريا أو فينيسا جذّابة جداً ولطيفة أيضاً. أنت تملك ذوقاً جيداً يا ريتشارد. اعترف بهذا هذا غريب، انها أول فتاة تنال إعجابك من بين اللواتي أعرفهن».

رد ريتشـارد وقـد احمر خجلاً: «ليس بيننا اي شيء من هذ النوع. اني فقط.. آه.. قلق في شأنها. يجب أن أعود الى بغداد».

قال الدكتور باونسفوت: «حسناً إن كنت ستذهب غداً، احضر معك تلك الأشياء التي نسيها هذا السائق الغبي هناك».

انطلق ريتشارد الى بغداد باكراً عند الفجر وتوجه مباشرة الى فندق تيو. وهناك أعلموه أن فيكتوريا لم تعد بعد.

قال ماركوس: «لقد كنت على موعد معها لتناول طعام العشاء، ولقد حجزت لها غرفة جيدة. هذا غريب أليس كذلك؟».

ـ «هل أعلمت الشرطة؟».

ـ «آه. لا. يا عزيزي. لن يكون هذا لطيفاً، قد لا يعجبها ذلك. أنا متأكد انها ستنزعج من هذا».

استعلم ريتشارد عن مكان وجود السيد داكين وتوجه الى مكتبه.

لم تخذله ذاكرته في استرجاع الصورة التي رسمتها له فيكتوريا

عن الرجل. كان رجلاً محدودباً، ساهم الوجه. اعتذر من السيد داكين وسأله إن كان رأى الآنسة فيكتوريا جونز.

ـ «لقد حضرت إلي منذ يومين».

ـ «هل تستطيع أن تعطيني عنوانها الحالي».

ـ «أظن انها في فندق تيو».

ـ «ان حقائبها هناك لكنها ليست موجودة».

رفع السيد داكين حاجبيه قليلاً.

قال ريتشارد مفسراً: «لقد كانت تعمل هنا في التنقيبات في تل أسود».

ـ «آه. فهمت. أعتقد اني لا أعرف شيئاً قد يساعدك. ان لديها الكثير من الأصدقاء في بغداد. أعتقد هذا. ولكن معرفتي بها ليست وثيقة الى درجة اني أعرف أسماء أصدقائها».

ـ «هل من المعقول أن تكون في مركز «غصن الزيتون؟»».

ـ «لا أعتقد هذا، يمكنك أن تسأل».

قال ريتشارد: «اسمعني هنا. أنا لن أغادر بغداد حتى أجدها».

عبس في وجه السيد داكين وأسرع خارجاً من الغرفة.

ما إن انغلق الباب خلف ريتشارد، حتى ابتسم السيد داكين وهز رأسه.

همهم قائلاً: «آه منك يا فيكتوريا».

مندفعاً داخل فندق تيو التقى ريتشارد ماركوس وكان هذا الأخير مبتسماً.

هتف ريتشارد متلهفاً: «لقد عادت، أليس كذلك».

«لا. لا انها السيدة باونسفوت جونز. انها ستصل اليوم في الطائرة، لقد سمعت هذا للتو. لقد قال لي الدكتور باونسفوت انها قادمة في الأسبوع المقبل».

ـ «انه يخطىء دائماً في المواعيد. ماذا عن فيكتوريا جونز؟».

تجهم وجه ماركوس مجدداً.

ـ «لا لم أسمع عنها شيئاً. وهذا لا يعجبني أبداً يا سيد بايكر. هذا بشع. انها فتاة صغيرة جداً. وجميلة جداً. ومرحة وفاتنة».

ـ «أجل، أجل»، قال ريتشارد مجفلاً، «من الأفضل أن أنتظر لأرحب بالسيدة باونسفوت جونز».

وتساءل: «ماذا بحق الله أصاب هذه الفتاة».

ـ ٣ ـ

ـ «أنت!» قالت فيكتوريا بعدائية فاضحة.

كانت فيكتوريا صعدت الى غرفتها في فندق قصر بابل. وأول شخص رأته كان كاترين.

احنت فيكتوريا رأسها بكراهية موازية.

قالت: «أجل. هذا أنا. والآن ان سمحت الى الفراش. سيصل الطبيب قريباً».

كانت كاترين ترتدي زي ممرضة مستشفى وكانت تقوم بواجباتها بجديّة. وبدا واضحاً انها مصممة على عدم الابتعاد عن

فيكتوريا لحظة واحدة. استلقت فيكتوريا على الفراش ممتعضة وتمتمت:

ـ «لو أستطيع فقط الاتصال بإدوارد».

ـ «إدوارد، إدوارد» رددت كاترين ساخرة، «إن إدوارد لم يهتم بأمرك أبداً أيتها الفتاة الانكليزية الحمقاء. انه يحبني أنا».

نظرت فيكتوريا الى وجه كاترين العنيد بغير مبالاة.

وتابعت كاترين:

ـ «لقد كرهتك منذ لحظة حضورك يوم جئت وسألت بفظاظة عن الدكتور راسبون».

فتشت فيكتوريا عن كلام مثير للغضب وقالت: «في مطلق الأحوال ان دوري أساسي؛ في مقدور أية واحدة أن تلعب دور ممرضة مستشفى. لكن الأمر برمته يتعلق بالدور الذي ألعبه أنا».

قالت كاترين بازدراء:

ـ «لا أحد أساسياً. هذا ما تلقنّاه».

ـ «في الواقع. أنا مهمة جداً. بحق السماء اطلبي وجبة إضافية. ان لم تحضري لي الطعام كيف تتوقعين مني أن ألعب بنجاح دور سكرتيرة مصرفي أميركي مهم، حين يحين وقت ذلك؟».

قالت كاترين: «أظن انه ينبغي أن تأكلي كلما سنحت لك الفرصة».

لم تهتم فيكتوريا لملاحظة كاترين الغامضة.

- ٤ -

قال الكابتن كروسبي:

ـ «أفهم منك أن الآنسة هاردن وصلت للتو؟».

أحنى الموظف الشاب في فندق قصر بابل رأسه موافقاً.

ـ «أجل يا سيد. لقد جاءت من انكلترا».

ـ «انها صديقة لشقيقتي. هل تستطيع أن توصل اليها بطاقتي؟».

كتب بضع كلمات على البطاقة وبعثها الى فوق داخل مغلف.

عاد الآن الفتى الذي كان صعد بالبطاقة.

ـ «ليست السيدة على ما يرام يا سيدي. لديها التهاب في حنجرتها. سيأتي الطبيب عاجلاً. يوجد في الغرفة معها ممرضة مستشفى».

استدار كروسبي مغادراً. توجه الى فندق تيو حيث استقبله ماركوس.

ـ «آه. يا عزيزي تعال نتناول كأساً من المشروب. فندقي هذه الليلة محجوز كلياً. هذا بسبب الاجتماع. ولكن للأسف، لقد غادر الدكتور باونسفوت جونز الى مركز التنقيب ما قبل البارحة، ولقد وصلت زوجته وكانت تتوقع انه سيكون في انتظارها. وهي ليست سعيدة البتة. لا! قالت انها أخبرته انها ستصل في هذه الطائرة. هل تعرف من يشبه. انه يشبه ذاك الرجل هناك. انه يخطيء دائماً في التواريخ وفي التوقيت. لكنه رجل لطيف جداً».

- «تبدو بغداد مجنونة اليوم».

- «الشرطة منتشرة في كل مكان. انهم يتخذون اجراءات أمنية صارمة. يقولون - هل سمعت؟ ان هناك مخططاً شيوعياً لاغتيال الرئيس. لقد اعتقلوا عدداً كبيراً من التلامذة. هل رأيت رجال الشرطة الروس؟ انهم يرتابون في أي كان. لكن كل هذا جيد للأعمال. جيد جداً بالفعل».

- ٥ -

رن جرس الهاتف وأجيب عليه في الحال.

- «السفارة الأميركية».

- «هنا فندق قصر بابل. هل الآنسة آنا شيل مقيمة عندكم؟».

- «آنا شيل؟». كان من يتكلم أحد موظفي السفارة. «هل تستطيع الآنسة شيل التحدث معي؟».

- «الآنسة شيل مريضة في الفراش، لديها التهاب في حنجرتها. أنا الدكتور سمول بروك. اني أعتني بها شخصياً. ان لديها مستندات مهمة وترغب في أن يحضر مسؤول من السفارة ويأخذها. حالاً؟ شكراً. سوف أكون في انتظارك».

- ٦ -

ابتعدت فيكتوريا عن المرآة. كانت ترتدي ثوباً انيقاً جداً. كان شعرها الأشقر مصففاً بعناية. كانت عصبية المزاج ولكن منتبهة جداً.

حين استدارت رأت بريق ابتهاج في عيني كاترين، وأخذت

حذرها على الفور. لماذا كانت كاترين مبتهجة؟

ماذا كان يجري؟

سألتها: «ما الذي يُبهجك؟».

ـ «سترين بعد وقت قريب».

كان الخبث واضحاً على وجهها.

قالت كاترين ساخرة: «هل تظنين انك حذقة؟ انك تعتقدين أن كل شيء متعلق بك. باه. انك لست سوى حمقاء».

قفزت فيكتوريا قفزة واحدة، أمسكتها من كتفيها وغرزت أظافرها فيها.

ـ «قولي لي ماذا تعنين أيتها الفتاة البشعة».

ـ «آخ. انك تؤلمينني».

ـ «قولي لي».

سمعت قرعاً على الباب. طرقة مزدوجة ثم بعد توقف طرقة وحيدة.

صرخت كاترين: «سوف ترين الآن».

فتح الباب وانسل رجل الى الداخل. كان رجلاً طويلاً مرتدياً زي بوليس دولي. أقفل الباب خلفه ونزع المفتاح. ثم تقدم نحو كاترين.

قال: «أسرعي».

انتشل حبلاً رفيعاً وقصيراً من جيبه وفي استسلام كلّي من جانب كاترين قيدها إلى الكرسي. ثم أحضر قطعة من القماش وكمّ فمها.

ثم تحـول في اتجـاه فيكتوريا. رأت الهراوة الثقيلة التي كان يحملهـا وعرفت فوراً ماذا كانت خطتهم الحقيقية. لم تكن نيتهم أبداً أن تلعب هي دور آنا شيل في المؤتمر. لم يكن من المعقول أن يقوموا بهكذا مجازفة. كانت فيكتوريا معروفة جداً في بغداد. لا. كانت الخطة انهم سيقتلون آنا شيل في اللحظة الأخيرة وبطريقة بشعـة لا يمكن بعـدهـا التعـرف الى ملامحهـا. لن يبقى سوى المستنـدات التي أحضرتهـا معها ـ تلك المزورة بعناية ـ وحدها المستندات ستبقى.

استـدارت فيكتوريا في اتجاه النافذة ـ وصرخت. وتقدم اليها الرجل مبتسماً.

ثم حدثت أمور كثيرة. تحطم زجاج. قبضة انهالت على رأسها ـ رأت نجوماً ـ وظلمة.. ثم وهي تخرج من الظلمة سمعت صوتاً انكليزياً مطمئناً.

سألها الصوت: «هل أنت بخير يا آنسة؟».

تمتمت فيكتوريا شيئاً ما.

سأل صوت آخر: «ماذا قالت؟».

حكّ الرجل الآخر رأسه.

قال مرتاباً: «لقد قالت انه من الأفضل أن نخدم في الجنة، من أن نحكم في الجحيم».

قال الآخر: «هذا مثل رائع، لكنها التقطته مغلوطاً».

قالت فيكتوريا: «لا. هذا ليس صحيحاً». ثم غابت عن وعيها.

- ٧ -

رنّ جرس الهـاتف فرفـع داكين السمّاعة. قال صوت: «لقد تمت عملية فيكتوريا بنجاح».

قال داكين: «جيد».

ـ «لقـد أمسكنا كـاترين سركيس والطبيب. الـرجل الآخـر ألقى بنفسه عن الشرفة. لقد أصيب بجروح خطيرة».

ـ «هل الفتاة على ما يرام».

ـ «لقد فقدت وعيها. لكنها بخير».

ـ «لا أخبار بعد عن آ. ش. الحقيقية؟»..

ـ «لا أخبار اطلاقاً».

وضع داكين السماعة.

على أيـة حال فإن فيكتـوريا بخير. لا بد وأن آنا الحقيقية قد قتلت... لقد كانت أصرت على أن تتصرف بمفردها، وأنها كررت انها ستكون في بغداد في التاسع عشر من الشهر. اليوم هو نهار التاسع عشر ولم تطل بعـد. ربمـا كانت محقـة في عدم ثقتها بالمسؤولين الرسميين ـ لم يكن متأكداً. بالتأكيد كان هناك تسرب معلومات. خيانات. ولكن الواضح أن حذاقتها الفطرية لم تصل بها الى نتيجة أفضل.

ومن دون آنا شيل كانت البراهين غير كاملة.

حضر ساعٍ حامـلاً ورقة صغيرة كتب عليها: السيد ريتشارد بايكر والسيدة باونسفوت جونز.

قال داكـين: «لا أستـطيع أن أقابل أحداً الآن. قل لهما اني أعتذر. أنا مشغول».

انسحب الساعي، ولكنه عاد سريعاً وناول داكين رسالة.

فتح داكين الرسالة وقرأ:

«أريد أن أراك لأمرٍ يتعلق بهنري كارمايكل. ـ الامضاء. ر. ب.».

قال داكين: «أدخله».

دخل ريتشارد بايكر والسيدة باونسفوت جونز. قال ريتشارد بايكر:

ـ «لا أريد أن أضيّع وقتك، ولكني كنت في المدرسة مع رجل يدعى هنـري كارمايكل. ثم ما عدنا التقينا لسنوات مديدة. ولكني حين كنت في البصرة منذ أسابيع التقيته في القنصلية في غرفة الانتظار. كان متنكراً في ثياب عربية ومن غير أن يظهر أية معرفة بي، نجح في الاتصال بي. هل هذا يهمك؟».

قال داكين: «هذا يهمني جداً».

كان فحوى الرسالة انه كان واثقاً انه في خطر شديد. وسرعان ما تحقق هذا الخوف. لقد هاجمه رجل بواسطة مسدس ونجحت أنا في إمساك يد ذاك الرجل. فرّ كارمايكل ولكنه قبل أن يفعل دسّ شيئاً ما في جيبي، وقد اكتشفت ذلك لاحقاً. لم تبدُ الورقة ذات أهمية بدت وكأنها مجرد تفاهة ـ انها ورقة أو شهادة توصية لواحد يدعى أحمد محمد. ولكني تصرفت على أساس أن هذه الورقة كانت مهمة بالنسبة لكارمايكل ولما لم يعطني أية توجيهات. احتفظت بها بعناية

معتبراً انه سيعود ويطالبني بها يوماً ما. ومنذ بضعة ايام عرفت من فيكتوريا انه مات. وهذه كانت احدى القصص الكثيرة التي أخبرتني اياها. ولقد قررت بناء على قصتها انك الرجل المناسب الذي يجب أن أسلمه هذا الفرض.

نهض ووضع قطعة الورق المتسخة التي كتب عليها كارمايكل على مكتب داكين.

ـ «هل تعني لك هذه الكلمات أي شيء؟».

تنهد داكين بعمق.

قال: «أجل. انها تعني أكثر مما يمكنك أن تتصوره».

نهض من مكانه.

قال: «اني ممتن لك كثيراً يا بايكر. أعتذر لأني مضطر أن أقطع هذا اللقاء ولكن ينبغي أن أهتم بأمور كثيرة ولا يمكنني تضييع دقيقة واحدة». صافح السيدة باونسفوت جونز قائلاً: «أظن انك ستلتحقين بزوجك في مكان التنقيب. أتمنى لك موسماً طيباً».

قال ريتشارد: «أمر جيد أن الدكتور باونسفوت جونز لم يحضر معي الى بغداد هذا الصباح. المسكين لا يعرف ابداً ما الذي يجري حوله. ولكنه ربما سيلاحظ الفرق بين زوجته وشقيقتها».

نظر داكين متفاجئاً بعض الشيء الى السيدة باونسفوت جونز. فقالت بصوت خَفِر وجميل:

«إن شقيقتي إيلسي لا تزال في انكلترا. لقد صبغت شعري وسافرت حاملة جواز سفرها. اسم شقيقتي قبل الزواج هو إيلسي شيل. يا سيد داكين انا ادعى آنا شيل».



الفصل
الرابع والعشرون



١

تغيّرت بغداد كلياً. ملأت الشرطة الشوارع. كان رجال الشرطة يتوافدون من الخارج. شرطة دولية. رجال شرطة روس واميركيون وقفوا جنباً الى جنب بوجوههم الخالية من التعابير.

كانت الإشاعات تنتشر باستمرار. لن يأتي أي من الزعيمين حطت الطائرة الروسية مرتين - واتضح انها لم تكن تحمل سوى الطيار الروسي الشاب!

ولكن انتشر أخيراً في بغداد أن الأمور تسير بشكل جيد. لقد وصل رئيس الولايات المتحدة والديكتاتور الروسي الى بغداد. انهما في فندق ريجنت.

أخيراً سوف تقام القمة التاريخية.

وفي غرفة صغيرة كانت تحدث امور كان يمكن أن تحوّل مجرى التاريخ. ومثلما يجري دائماً في اللقاءات المهمة لم تكن الاجراءات مثيرة البتة.

قدم الدكتور آلان بريك من معهد هارويل للعلوم الذرية مجموعة من المعلومات بصوت دقيق وباختصار. كان السير كروفتون لي ترك

له بعض العينـات ليحلّلها. لقد كان السير كروفتون جلبها أثناء احـدى جولاتـه في الصـين وكـردستان وتركستان حتى العراق. الدكتـور بريـك يقدم الآن براهين علمية تقنية. كان الأمر يتعلق بمعدن خام يحتوي على كمية كبيرة من مادة الأورانيوم. لم يكن مكـان هذه المعادن محدداً بالضبط إذ ان دفتر ملاحظات السير روبيرت ومذكراته كان قد أتلف أثناء الحرب بواسطة عملاء للعدو.

ثم تكلم السيـد داكين وأخبر قصته. بصوته المتعب اللطيف. أخبـر مغـامـرة هنـري كارمايكل البطولية. وعن تصديقه لبعض الاشـاعات والقصص الغريبة عن انشاءات هائلة وعن مختبرات أقيمت تحت الأرض في واد بعيد جداً وراء حدود المدينة. ثم عن بحثه عن المكان وعن نجاحه في اكتشافه. وكيف أنَ الرحالة العظيم السير روبيرت كروفتون لي، الذي صدّق كارمايكل لأنه كان يعرف تلك المنـاطق، وقَبِـلَ أن يأتي الى بغداد، وعن مقتله. وكيف لقي كارمـايكـل مصرعـه على يد رجـل ادعى زيفـاً انه السير روبيرت كروفتون لي.

لقد مات السير روبيرت ومات أيضاً هنري كارمايكل. لكن هناك شاهداً ثالثاً لم يزل على قيد الحياة وهو هنا اليوم. ودعا الآنسة آنا شيل لتقديم شهادتها.

قدّمت آنا شيل في هدوء وفي صرامة، كما كانت تتصرف في مكتب السيد مورغانتال، قوائم بأسماء وأرقام. وراحت تفسر انطلاقاً من معـرفتهـا العميقة بالأمور المالية كيف عملت تلك الشبكة المالية السريـة على سحب السيولة المالية من السوق، وصبّتها في تمويل نشاطات تسعى لتقسيم العالم المتمدن الى قسمين متنازعين. لم

يكن هذا مجرد احتمال. ثم بيّنت وقائع وحسابات تدعم كل أقوالها. اثباتاتها تلك زادت مصداقية قصة كارمايكل الغريبة.

وتحدث داكين مجدداً:

«لقد مات هنري كارمايكل. لقد أحضر معه من رحلته الخطرة براهين ثابتة ومحددة. لم يجرؤ على ابقاء تلك البراهين في عهدته. كان أعداؤه قريبين جداً منه. لكن كان لديه الكثير من الأصدقاء. وبواسطة صديقين بعث تلك البراهين الى مكان امين عند صديق آخر. رجل يجلّه ويحترمه كل العراقيين ولقد شرفنا بحضوره الى هذ اليوم. انه الشيخ حسين الزيارة من كربلاء».

كان الشيـخ حسـين الزيـارة مشهـوراً جداً عبـر كل العـالـ الإسـلامي كرجل دين وكشاعر معروف. كان الكثيرون يعتبرونه تقيـاً. وقف الآن وكـان وجهه جذاباً بلحيته البنيّة المحنّاة. كانت سترتـه مزنرة بشريط ذهبي اللون. كان يضع فوق رأسه كوفية خضراء يلفها عقال ذهبي. تكلم بصوت رخيم:

«كـان كارمـايكل صديقي. عرفته صبياً ودرس عندي أشعار شعرائنا العظام. حضر رجلان الى كربلاء. رجلان يجولان في البلاد بصندوق للفرجة. انهما رجلان بسيطان ولكن مؤمنان. أحضرا لي رزمة قالا ان صديقي كارمايكل طلب اليهما تسليمها لي باليد. كان علـيَّ أن أحتفـظ بهـا بسريّة وبأمان وان أسلمها فقط لكارمايكل بذاتـه. أو الى رسـول سيردد كلمات معينة. ان كنت أنت حقيقة الرسول يا بني. قل لي هذه الكلمات».

قال داكين: «يا سيدي. الشاعر العربي المتنبي، الذي ادعى

النبـوة، والذي عاش قبل الف عام كتب هذه القصيدة الى سيف الدولة في حلب وجاء في القصيدة:

زد هشَّ بشَّ هبِ اغــفــر ادنِ سُرَّ صِلِ (*).

قدم الشيخ حسين الزيارة مبتسماً الرزمة الى داكين.

- «سأقول كما قال سيف الدولة: «ستنال مبتغاك...»».

قال داكـين: «سـادتي توجـد هنـا أفـلام أحضرها كارمايكل كإثباتات لقصته».

ثم تكلم شاهـد آخر - وكان شخصاً بهيئة مأساوية محطمة. رجل عجوز كان يوماً رجلاً محترماً ومحبوباً في كل أنحاء العالم.

قال: «أيها السادة. قد أكون مجرد محتال من بدون شأن. ولكن هناك أشياء لا يمكنني أن اقبلها. هناك عصبة من الرجال. معظمها من الشبان يملكون في قلوبهم وفي أهدافهم كمية من الشر ما لا يمكن تصديقه».

ثم رفع رأسه وقال بصوت عظيم:

- «انهم مهرطقون. وأقول ان هذا ينبغي أن يتوقف. يجب أن نحصل على السلام. السلام لنشفي جروحنا ونقيم عالماً جديداً. ونفعل ما في وسعنا لنفهم بعضنا بعضاً. لقد كنت أنشأت مؤسسة لأكسب المال. ولكني اقسم بالله اني انتهيت مؤمناً بما أبشر به. على

(*) هذا عجز بيت المتنبي التالي:

اقِـلْ انِـلْ اقــطع احــمِــلْ علّ سلّ اعِـدْ
زِدْ هشّ بشّ هب اغــفــر ادنِ سُرَّ صِلِ

الرغم من أني لا أمدح الأساليب التي استخدمتها. محبة بالله أيها السادة، دعونا نبدأ من جديد ونحاول أن نتشارك...».

حل صمت لبرهة ثم تكلم واحد بصوت رسمي، وقال في برودة بيروقراطية: «سوف نقدم هذه البراهين الى رئيس الولايات المتحدة الأميركية، والى رئيس اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية».



الفصل
الخامس والعشرون



قالت فيكتــوريــا: «مــا يزعجني هو أمر تلك المرأة الدانماركية المسكينة التي قتلت خطأ في دمشق».

قال السيد داكين بمرح: «آه. انها بخير. ما إن أقلعت طائرتك، حتى قبضنــا على المـرأة الفـرنسيــة وأخـذنـا غريتـا هاردن الى المستشفى. انها بخير. كانوا سيبقونها مخدرة لبعض الوقت الى أن يتأكدوا من نجاح خطتهم في بغداد. لقد كانت بالطبع من جماعتنا».

ـ «هل هذا صحيح؟».

ـ «أجل. حين اختفت آنا شيل. كان ينبغي أن نشغل الطرف الآخر بأمر ما. وهكذا حجزنا بطاقة باسم غريتا هاردن وتقصدنا أن لا يكون لديها أي سجل. لقد وقعوا في الفخ. واستنتجوا على الفور ان غريتا هاردن لا بد وأن تكون آنا شيل. ولقد حملناها كدسة من الأوراق المزيفة لاثبات هذه الخدعة.

في هذا الوقت بقيت آنا شيل في هدوء كامل في المصحة الى أن حان وقت التحاق السيدة باونسفوت جونز بزوجها هنا.

أجـل مخـطط بسيط ولكنه فعّال. لقد تصرفنا حسب الاعتقاد

الشائع الذي يقول انه في أوقات الشدّة لا تستطيع أن تعتمد سوى على أهلك. انها امرأة ذكية جداً».

قالت فيكتوريا: «لقد ظننت حقاً انه قضي علـيَّ. هل كنتم تراقبونني؟».

- «طوال الوقت. لم يكن صاحبـك إدوارد ذكيـاً جداً كما كان يعتقـد. في الواقـع لقد كنا نراقب تحركاته منذ وقت طويل. حين أخبرتني قصتك ليلة مقتل كارمايكل. لقد قلقت جداً عليك، أقولها بكل صراحة.

كان أفضل ما يمكن أن أفكر فيه هو أن أرسلك عمداً الى عقر دارهم كجاسوسة. ولو عرف إدوارد انك على اتصال معي فستكونين في مأمن، لأنه كان سيعرف عبرك بما كنا نفكر فيه. ستكونين أثمن من أن تقتلي. وسيكون في وسعه أن يمرر لنا معلومات خاطئة عبرك. لقد كنت وسيطاً. ولكنك حين اكتشفت مسألة بديل السير كروفتون، فضل إدوارد أن يبعدك الى حين يحتاج اليك (لو انه احتاج اليك) كبديل عن آنا شيل. أجل يا فيكتوريا أنت محظوظة جداً جداً كونك جالسة بيننا الآن وتأكلين الفستق».

- «أعرف هذا».

قال السيد داكين: «هل كان يهمك أمر إدوارد... كثيراً؟».

حدقت فيه فيكتوريا بثبات.

- «لا. أبداً. لقد كنت مجرد حمقاء. لقد سمحت له أن يخدعني وأن يغويني. لقد افتتنت به كتلميذة صغيرة، تصورت أني جولييت وكل تلك الأشياء الغبية».

ـ «لا يجدر بك أن تلومي نفسك كثيراً. إن لدى إدوارد موهبة طبيعية في جذب الفتيات».

ـ «أجل، ولقد استخدمها جيداً».

ـ «لقد استخدمها بالتأكيد».

قالت فيكتوريا: «حين سأغرم في المرة القادمة. لن أنجذب أبداً الى مظهره الخارجي ولا الى تألقه. أريد رجلاً حقيقياً ـ لا واحداً يتفوه بكلام فقط بكلام جميل. لن يهمني ان كان أصلع أو يضع نظارة طبيّة أو ما شابه. أريده أن يكون مهماً ـ وأن يعرف أشياء مهمة».

سأل داكين: «هل تريدينه في الخامسة والثلاثين أم في الخامسة والخمسين؟».

حملقت فيه فيكتوريا.

قالت: «آه. في الخامسة والثلاثين».

ـ «لقد ارتحت الآن. خطر لي لوهلة انك تطلبينني للزواج».

ضحكت فيكتوريا.

ـ «أيضاً ـ أعرف انه لا ينبغي عليّ أن أسأل. لكن هل كانت هناك فعلياً رسالة محبوكة على الشال؟».

ـ «كان هناك اسم الـ «الحابكات» والتي كانت السيدة دو فارج احداهن، وكانت تحبك مسجّلة الأسماء. كان الشال والورقة المتسخة هما نصفا مفتاح اللغز. أحدهما أعطانا اسم الشيخ حسين الزيارة من كربلاء. والآخر كلمات السر التي كانت ضرورية ليعطينا الشيخ الرزمة الأمانة. لم يكن هناك مكان أكثر أماناً لاخفاء

هذه الأفلام من مدينة كربلاء المقدسة.

ولقد حملها عبر البلاد رجلا السينما أو صندوق الفرجة الجوالة
ـ لقد كنا التقيناهما في الواقع.

أجل رجلان مشهوران. لا علاقة لهما بالسياسة. انهما صديقان شخصيان لكارمايكل. كان لديه الكثير من الأصدقاء».

ـ «لا بد انه كان لطيفاً جداً. أنا آسفة انه مات».

قال السيد داكين: «لا بد اننا سنموت في أحد الأيام. وان كانت هناك حياة بعد هذه. وهذا ما أؤمن به كلياً فسوف يكافأ بأن يكتشف أن ايمانه وشجاعته قد أنقذا العالم بأسره من الدمار والبؤس والموت».

قالت فيكتوريا متأملة: «انه أمر غريب أليس كذلك؟ ان يمتلك ريتشارد أحد نصفي السرّ، وأمتلك أنا النصف الآخر. يبدو الأمر وكأنما...».

أنهى السيد داكين كلامها فرحاً: «كما لو أنه قدركما. وماذا ستفعلين الآن. إن سمحتِ بسؤالي؟».

قالت فيكتوريا: «يجب أن أفتش عن وظيفة. يجب أن أبدأ على الفور؟».

قال السيد داكين: «لا تفتشي كثيراً. أعتقد ان هناك واحدة آتية اليك».

ثم انزاح في لطف ليفسح مكاناً للسيد ريتشارد بايكر.

قال ريتشارد: «اسمعيني يا فيكتوريا. لن تتمكن فينيسيا سافيل من القدوم. في الواقع انها مصابة بالإكتئاب. لقد كنت مفيدة جداً

لنا في بقعة التنقيب. هل ترغبين في العودة الى هناك؟ لن نستطيع سوى أن نأويك، وربما أيضاً نؤمن لك بطاقة العودة إلى لندن، سنتحدث عن هذا لاحقاً. السيدة باونسفوت آتية في الأسبوع المقبل. ماذا تقولين؟».

هتفت فيكتوريا: «آه. هل تريدونني فعلياً؟».

لسبب ما أصبح ريتشارد بايكر أحمر الوجه. سعل وتحسّس نظارته.

قال: «أظن انك ستكونين ـ آه ـ مفيدة جداً».

قالت فيكتوريا: «كم أحب هذا!».

قال ريتشارد: «في هذه الحالة، يجب أن تجمعي متاعك لنعود الى التلة الآن. هل تريدين البقاء في بغداد بعض الوقت؟».

قالت فيكتوريا: «لا أريد أبداً».

قال الدكتور باونسفوت جونز: «ها أنت أخيراً يا عزيزتي فيرونيكا. لقد أصيب ريتشارد بالهلع من أجلك. جيد. جيد ـ أتمنى لكما السعادة العارمة».

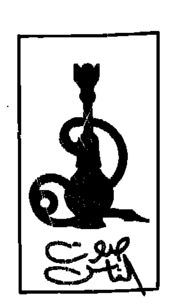
سألت فيكتوريا منذهلة ما أن غادر الدكتور باونسفوت جونز: «ماذا كان يعني؟».

قال ريتشارد: «لا شيء. أنت تعرفينه جيداً، إنه ـ ناضج قبل أوانه».









اكتشف العميل السري البريطاني، أن سلاحاً سرياً قد تم تصنيعه، وأن هناك كميات هائلة من الأموال قد سرقت وكذلك كمية من الجوهرات.
سلسلة من الجرائم المترابطة شغلت مجموعة من الأشخاص الذين اقتضت ملابسات التحقيق بالتقائهم في بغداد بحثاً عن حل، والجواب كان في لغز مكتوب: «... جمل أبيض محمل بالشعير...»



1855131544